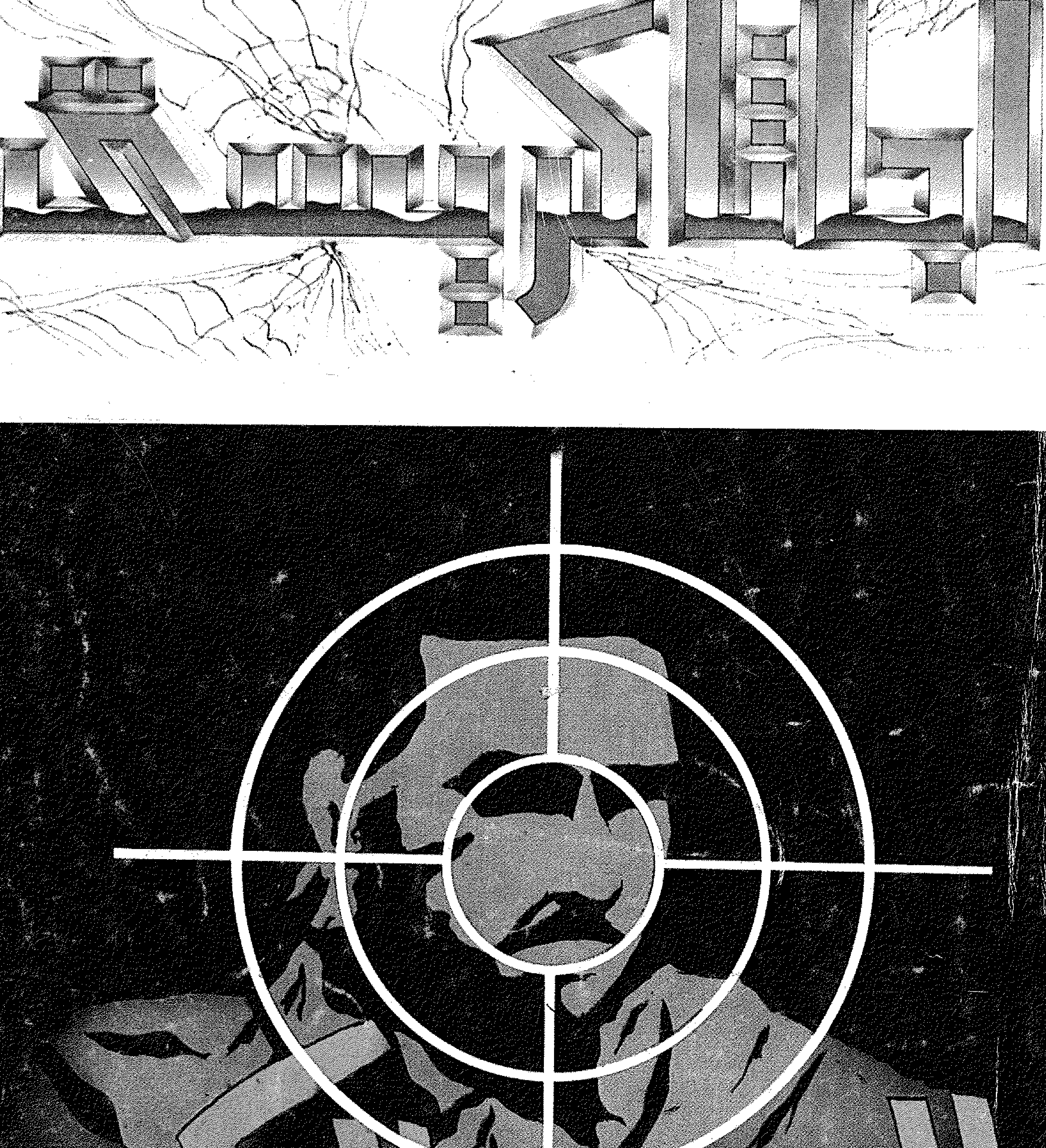
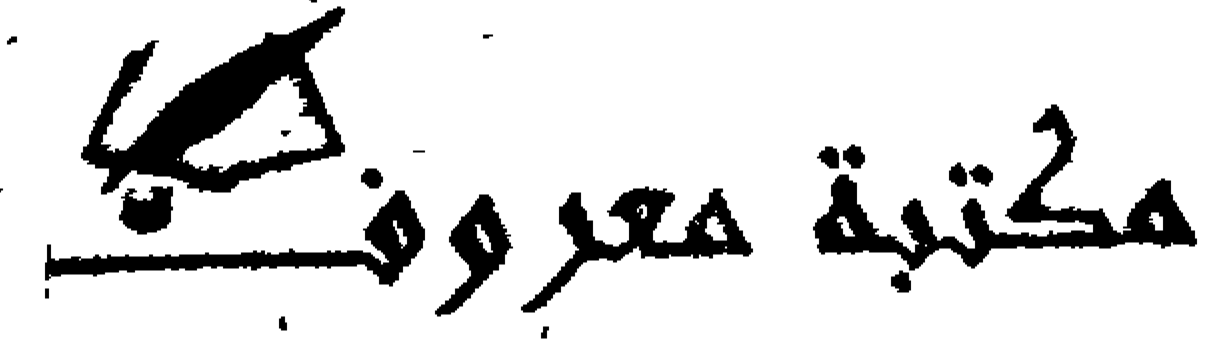


مكتبة معروف

اجاثا كريستى

التضحية الكبرى

ترجمة / محمد عبد المنعم جلال



الإسكندرية: ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩

القـــاهرة: ٣٦١١٢٢٩ ص.ب ١٣٧٠ الإسكندرية

معروف أخوان
اسكندرية ٤ ش سعد زغلول

كنت مقيما فى باريس عندما جاءنى خادمى بارفيت يقول لى أن هناك امرأة تريد أن تتحدث إلىّ فى أمر هام .

وكنت قد اعتدت فى ذلك الوقت ألا أستقبل أحدا إلا بناء على موعد سابق ، فإن الناس الذين يأتون لزيارتك لأسباب ضرورية يلتمسون دائما تقريبا معونة مالية ، ومن ناحية أخرى فإن الذين يحتاجون إلى معونة مالية حقا نادرا مايتنقلون لطلبها .

سألت بارفيت عن اسم زائرتى فناولنى بطاقة عليها اسم كاترين يعقوبيان ، وهو اسم لم أستدل منه على شىء ، وإذا أردتم الصراحة فإنه لم يرق لى على الاطلاق . وعدت إلى رأيى الأول ، وهو أنها لاشك تريد سلفة عاجلة أو أنها تريد أن تبيعنى شيئا ... تحفة مشكوكا فى أمرها تطلب فيها ثمنا باهظا وتصر على بيعها بأى ثمن .

وأبديت أسفى لعدم استطاعتى استقبال مدام يعقوبيان واقترحت أن تكتب لى عن الغرض من زيارتها .

وأحنى بارفيت رأسه وخرج ، وبارفيت هذا رجل يمكن الاعتماد عليه ولايمكن لرجل عاجز مثلى الاستغناء عنه ، ولهذا لم أشك أبدا فى أنه سيستطيع تدبير الأمر . ولكن ماكانت أشد دهشتى حين عاد وقال أن المرأة تصر على رؤيتى وأن المسألة مسألة حياة أو موت تتعلق بأحد أصدقائى القدامى .

واستيقظ فضولى على الفورلا لأن المسألة مسألة حياة أو موت ، ولا لأنها تتعلق بأحد أصدقائى القدامى ، فإن مثل هذه الأسباب أصبحت مستهلكة ، وإنما بسبب تصرف بارفيت نفسه لأنه لم يكن من عادته الاصرار فى موضوع كهذا .

واستنتجت عندئذ ، وكان استنتاجى خاطئا ، ان كاترين يعقوبيان هذه لابد أن تكون على جانب كبير من الجمال أو أنها تتمتع على الاقل بفتنة طاغية إذ لم يكن هناك تبرير آخر لتصرف بارفيت .

والرجل رجل مهما يكن الأمر ، حتى ولو كان عاجزا مثلى ، ولهذا فقد وقعت فى

الفخ وأردت أن أرى المخلوقة الفاتنة التى استطاعت أن تقهر جميع حجج خادمى القوية..

وأمرته أن يدعها تدخل ، ولكنها ماكادت تفعل حتى صعقتنى الدهشة بحيث لم أستطع النطق .

وانتى أفهم الآن تصرف بارفيت طبعا فإن غريزته فيما يتعلق بالناس قلما تخونه ، وقد أحس بأن كاترين تتمتع بقوة من العناد والاصرار تتحطم ازاءها كل مقاومة ، ولهذا رأى أن من الحكمة أن يتراجع من البداية وأن يوفر على نفسه معركة كبيرة مضنية لأنه رأى أن كاترين يعقوبيان تجمع بين ثبات المطرقة ورتابة قاذفة اللهب وقوة قطرة الماء إذ تتساقط فوق حصاة وتفتتها . والوقت لمثل هذا النوع من النساء لاوجود له عندما يبغين الوصول إلى هدفهن ، وقد كان فى مقدورها أن تبقى جالسة فى ردهتى طوال اليوم ، ثم أنها من هؤلاء القوم الذين لايدور فى ذهنهم غير فكرة واحدة.

وكما سبق القول صعقت عندما رأيتها ولم أستطع النطق ، فقد كنت أتوقع أن أرى امرأة تتمتع بجمال صارخ ، ولكن المرأة التى دخلت كانت امرأة عادية ، إذا جاز لنا هذا القول ، امرأة عادية غير دميمة . والدمامة لها ايقاعها الخاص ووسائلها للهجوم . ولكن كاترين كانت ذات وجه عريض منبسط خال من الاصباغ يعلو شفتها العليا ظل شارب خفيف . لها عينان ضيقتان داكنتان بعيدتان عن الجمال وشعر كثيف غير منسق يتهدل فوق كتفيها ، وجسد بعيد عن الرشاقة يتحدى كل وصف ويغطيه ثوب غير منسجم ، ولم يكن يبدو عليها الثراء ولا الفاقة . وعندما انفتح فمها القوى خرج منه صوت حاد أجش .

رميت بارفيت بنظرة عتاب مستفيض تقبلها دون أن ترمش عيناه . كان يبدو أنه واثق من نفسه تماما ... وقال قبل أن ينصرف ويغلق الباب خلفه :

– مدام يعقوبيان .

تقدمت كاترين نحوى فى عزم ، ولم أدرك مدى عجزى كما أدركته فى تلك اللحظة ، فقد كانت تلك المرأة من ذلك النوع الذى يود المرء الفرار منه ، ولم أكن أستطيع الحراك .

وتكلمت فقالت فى صوت مرتفع لحوح وفى انكليزية غير سليمة :

- سيدى .. أرجو أن تتكرم وتأتى معى .

كان أمرا أكثر منه رجاء . وقلت مشدوها :

- معذرة ، ولكننى ..

- اننى لاأجيد الانجليزية ، وأرجو الا نضيع الوقت فى مناقشات غير مجدية .. أننى سأذهب بك إلى مستر جابرييل ، فهو مريض جدا ، وسوف يموت قريبا . أنه يريد أن يراك ، ويجب أن تأتى معى حالا .

حدقت فيها وقد خطر لى أنها مجنونة ، فإن اسم جابرييل لم يدلنى على شىء . ولعل ذلك لأنها نطقته بطريقة عجيبة ، ولكن حتى إذا كنت قد سمعت الاسم كما يجب فلا أظن أننى كنت أشعر بأية استجابة لأن الأمر كان قد مضى عليه وقت طويل ... وقد مضت عشر سنوات لم أفكر فيها فى جون جابرييل . وقلت :

- تقولين أن رجلا يحتضر يريد أن يرانى .. رجل أعرفه ؟

حدجتنى بنظرة عتاب كبيرة وقالت : نعم . رجل تعرفه جيدا .. وهو يريد أن يراك.

كانت تتكلم عن يقين بحيث بدأت أفكر وأقدح ذهنى بطريقة جدية ، أى اسم هذا الذى نطقت به .. ؟ جابك جالبريت .. ذلك أنها لم تكن تتكلم الانجليزية بطريقة سليمة . وكنت قد عرفت رجلا باسم جالبريت ، وهو مهندس تعدين ، ولكن معرفتى به كانت سطحية ولم يكن من المعقول أن يطلب رؤيتى وهو يحتضر . وسألتها :

- أى اسم تقولين .. ؟ جالبريت ؟

- كلا .. كلا .. جايربيل .. جابرييل .

حدقت فى وجهها مرة أخرى ، فقد سمعت الاسم هذه المره فى وضوح تام . ولكنه لم يحدث فى نفسى أى أثر . وإذ رأت ذلك عادت تقول فى اصرار :

- جون جابرييل .

نعم .. عاد كل شيء إلى ذهنى فجأة .. وأحسست بذهول وقلق خفيف ... وتذكرت سنت لو والسيدات المسنات وميللى قارت وجون جابرييل ، بوجهه الضامر الشديد الدمامة .. جون جابرييل وهو يهتز إلى الامام وإلى الوراء فى هدوء ، وريوبيرت ، ذلك الشاب الطويل القامة الوسيم الوجه وايزابيللا .

وتذكرت لقائى الأخير مع جون جابرييل فى زاجرار ، وماحدث عندئذ . وعصفت بى موجة شديدة من الغضب والاشمئزاز فقلت فى قسوة :

- إذن فهو يحتضر .. حقا .. ؟ حسنا .. ماأسعدنى بذلك .

- عفوا ؟ .

وهناك عبارات لايمكن للمرء أن يكررها عندما يقاطعه من يستمع إليه ويقول : "عفوا" ، وبدا على كاترين يعقوبيان أنها لم تفهم قولى تماما ، ولهذا قلت :

- تقولين أنه يحتضر ؟

- نعم .. وهو يتألم .. يتألم كثيرا .

وقد اسعدنى أن اسمع ذلك ايضا ، فقد رأيت أن مايحس به من ألم أن هو إلا تكفير عادل عما صدر منه ، ولكن كيف أقول ذلك لشخص يبدو أنه يعبده عبادة ؟

وقلت لنفسى فى غضب : ماهو السر الذى يكمن فى هذا الرجل ويحمل النساء على حبه وعبادته . ؟ كنت أراه دميما ومغرورا وسوقيا . كان يتمتع بشيء من الذكاء بالطبع . وكان يستطيع أن يكون رفيقا محبوبا عند اللزوم ، ثم أنه لم تكن تنقصه روح الدعابة . ولكن هذه الصفات لم تكن لتحظى باعجاب النساء على وجه الخصوص .

وقطعت كاترين حبل أفكارى قائلة : انك ستأتى طبعا اسرع إذن .. لايجب إضاعة

الوقت .

تمالكت نفسى وقلت : أى سيدتى العزيزة .. أننى أسف .. أخشى أنى لاأستطيع مرافقتك .

- أواه .. ولكنه يريد .

وكان ذلك اصرارا منها ولكنى قلت : أننى آسف .. لاأستطيع الذهاب .

قالت : ألا تفهم ؟ انه مريض .. سيموت ، ويريد أن يراك .

أعددت نفسى للمعركة ، وبدأت أفهم بماذا أحس بارفيت لأول وهلة . لم يكن من السهل اقناع كاترين يعقوبيان .

وهزت رأسها وقالت : نعم .. نعم .. أنه قرأ اسمك فى الصحيفة التى تقول أنك عضو فى اللجنة ، فطلب منى أن آتى إليك ، وأن أذهب بك إليه . أرجو أن تأتى حالا فإن الطبيب يقول أنه مشرف على الموت ... يجب أن تأتى حالا ...

- فيما يتعلق بى أنا يمكنه أن يذهب إلى الشيطان .

- عفوا .

ونظرت إلىّ فى شىء من القلق ، مقطبة الجبين ، محاولة أن تفهم . وقلت فى بطء وفى هدوء :

- ان جون جابرييل ليس صديقى .. أنى أمقته .. هل تسمعين... ؟ هل هذا واضح ؟ .

رمشت بعينها كما لو أن شعاعا من الادراك ومض فى ذهنها وقالت : ماذا تقول؟

وعادت تقول كالطفل الذى يحاول أن يفهم أمرا عسيرا عليه :

- تقول أنك تمقت جون جابرييل ؟

- هو ذلك .

أغاظتنى ابتسامتها وهى تقول فى هدوء : كلا ، كلا . هذا مستحيل . لايمكن أن

يمقته أحد . أنه رجل عظيم . وكريم جدا .. نحن الذين نعرفه جيدا نود لو أن نموت مكانه.

- صحت محنقا : ياالهى .. ما الذى يتمتع به هذا الرجل لكى يستحق كل هذا الاخلاص؟

ماكدت أفرغ من قولى هذا حتى تدفقت منها الكلمات نسيت رسالتها العاجلة ، وجلست وأبعدت عن جبينها خصلة من الشعر ، وومضت عيناها بالحماس وراحت تتكلم .

وأظن أنها تكلمت نصف ساعة كاملة ، وقد عجزت عن فهم بعض كلماتها لأنها لم تكن تجيد الانجليزية كما سبق لى القول . ومع ذلك فقد راحت الكلمات تنساب من بين شفتيها فى صدق واخلاص بحيث وعيت قصتها كلها .

وكانت تتكلم فى احترام وانفعال وحماس واقناع ، فتكلمت عن جون جابرييل كما لو كان نبيا من الانبياء ، وذكرت لى عنه أمورا مخيفة وعجيبة وبعيدة عن التصديق ووصفته بالرقة والشجاعة والقوة .. قالت عنه أنه قائد .. وانه طالما عرض حياته للخطر فى سبيل الغير .. رجل يمقت القسوة والظلم كل المقت .. رجل كان فى نظرها نبيا وأميرا وقديسا بذر الشجاعة فى قلوب من يفتقر إليها .. رجل طالما عذبه الناس واساءوا معاملته وشوهوه ، ومع ذلك استطاع جسده المحطم ، بمعجزة من المعجزات وبأرادته القوية أن يفعل ويحقق المستحيل .

- تقول أنك لاتعرف ماذا فعل .. ؟ومع ذلك فالعالم كله سمع عن الأب كليمانت.. العالم كله ..

حدقت فيها مذهولا ، فقد كانت تقول الصدق ، وقد سمع الجميع عن الأب كليمانت ، فقد كان أشهر من نار على علم ، وأصبح اسمه رمزا .

ولكن كيف يتسنى لى أن أصف الأب كليمانت .. ؟

على المرء أن يتصور ريتشارد قلب الأسد والأب داميان ولورنس العرب ، فقد اجتمعت فيه صفاتهم معا ، فهو صاحب معجزات ومقاتل جسور ومتهور تهور الشباب.

كانت السنوات التى تبعت سني الحرب من سنة ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥ تعد حقبة من الغموض والظلمات تظللها حالة من الخوف والهمجية والقسوة .

فقد بدأت المدينة تتزعزع من الهند وإيران وتتابعت شرور لا حد لها ، مذابح ومجاعات وتعذيب وفوضى . وإذا بين كل هذه الفظاعات برجل يدعو نفسه الأب كليمانت يظهر فينقذ الأطفال ، وينتزع من الجلاد ضحاياه ويوجه رعاياه الذين ينقذهم من الموت إلى طرقات مجهولة عبر الجبال ويرشدهم نحو السلام ، وحظى بذلك بحب الجميع واحترامهم ، وأصبح أسطورة من الاساطير .

وإذا بكاترين يعقوبيان تأتى اليوم لكى تقول لى أن الأب كليمانت ماهو إلا جون جابرييل الذى عرفته عضوا من البرلمان الانجليزى بمقاطعة سنت لو ، زير النساء والسكير الذى لا هم له فى الدنيا إلا مصلحته هو بالذات . أفاق ووصولى لاأهمية له غير قوته البدنية ..

وفجأة ، وفى شيء من القلق تبددت شكوكى ، فعلى الرغم من استحالة قصة كاترين يعقوبيان الا أنه كان فيها عنصر من الصدق ، فإن الأب كليمانت وجون جابرييل كانت تجمع بينهما قوة غريبة وتشابه عجيب ، فإن بعض الأعمال الباهرة التى أتى بها الأب كليمانت وشجاعته التى تبددت فى انقاذ الكثيرين ، والوقاحة التى تتسم بها وسائله كانت هى نفس وسائل جون جابرييل .

ولكن جون جابرييل كان ينشد الشهرة دائما ، ولم يكن يقدم على شيء إلا وأمام عينيه جمهوره ، وإذا كان هو الأب كليمانت حقا لكانت الدنيا كلها قد عرفت ذلك ... كلا .. لايمكن أن يكون الأمر كذلك أبدا ... بقيت متشككا ومع ذلك فعندما سكتت

كاترين يعقوبيان مبهورة الأنفاس وعندما انطفأت جذوة النار فى عينيها وعندما عادت تقول بصوتها الرتيب : هل تأتى معى الآن .. ؟ قرعت الجرس استدعى بارفيت .. وجاء هذا الأخير وعاوننى على النهوض . وناولنى عكازى وساندنى حتى أسفل السلم واجلسنى فى سيارة أجرة وجلست كاترين بجوارى .

كان لابد لى أن أعرف . أهم أسرار كاترين يعقوبيان الذى حملنى على الذهاب معها.. مهما يكن فقد كان لابد لى من الذهاب معها على كل حال . ولكن كل هذا لايهم أردت أن أرى جون جابرييل ، وأن أحاول أن استشف فيه أسطورة الأب كليمانت بما أعرفه عن جون جابرييل . ولعلنى أردت أن أرى مارأته فيه ايزابيللا نفسها . ماالذى رأته فيه ودفعها إلى أن تفعل مافعلت ؟

أن يقص المرء قصته هو بالذات ، وأن يقرر فى البداية أن يحتل فيها المكان الرئيسى، وأن يتساءل فيما بعد ، وأن يشك ويضله هذا الشك .. هكذا كان الأمر معى بالذات . كانت هذه قصتى أنا فى البداية .. كنت أظن أننى سأتكلم عنى وعن جنيفر، متعانقين كروميو وجوليت وايزولت وتريستان ، ولكن بدت ايزابيللا فى ظلماتى وأوهامى بعد ذلك فاجتذبت اهتمامى ، وكانت النجم الذى يهدينى فى الليل ، وأصبحت الصورة الرئيسية فى لوحة لم أكن أنا نفسى إلا نسجها ولاأكثر .. لاأكثر ولاأقل ، لابد بدون النسيج لايوجد رسم ، ولأن تغير الرسم من جديد لم تعد القصة قصتى أنا ولاقصة ايزابيللا وإنما أصبحت قصة جون جابرييل .

هذه القصة تنتهى هنا ، فى النقطة التى بدأتها منها ... تنتهى مع جون جابرييل، ومع ذلك فهى تبدأ به .

لاأدرى ماالذى كنت اتوقعه وأنا أتبع كاترين يعقوبيان فى السلم الضيق ، وفى الغرفة الصغيرة التى تطل على الفناء . كان هناك طبيب فرنسى ، ذو لحية ونظرات صارمة . وكان منحنيا فوق المريض ، ولكنه ابتعد عنه وأشار إلىّ فى رقة أن أقترب .

ورأيت فى عينى الطبيب شيئا غريبا من الاجلال والاعتبار . فقد كنت الشخص الذى طلبه رجل مشهور على فراش الموت .

واحسست بصدمة وأنا أرى جون جابرييل . كان قد مضى وقت طويل على لقائنا فى زاجرار . وما كنت لأعرف المخلوق الذى يستريح فى هدوء فوق الفراش . كان ميئوسا منه ، وقد أدركت ذلك على الفور وعرفت أنه قريب من نهايته . وبدا لى أنه لم يطرأ تغيير فى وجه ذلك الرجل وأنه لايزال مألوفا لدى . ويجب أن أعترف أنه إذا أخذنا بالظواهر فإن كاترين لم تقل إلا الصدق ، فإن تلك الملامح الهزيلة التى أراها أمامى لم تكن إلا ملامح قديس . كانت ملامحه تحمل آيات الألم والاحتضار كما تحمل علامات الزهد ، وفوق كل شيء ، ذلك السلام الروحانى ... ولم يكن شيء من ذلك ملكا لذلك الذى كنت أعرفه فيما سبق بجون جابرييل .

وفى هذه اللحظة فتح عينيه فرآنى وابتسم ... نفس الابتسامة المكشرة ونفس العينين الجميلتين فى وجهه الدميم الصغير اشبه بوجه المهرج .

وقال فى صوت يكاد لايسمع : إذن فقد استطاعت أن تأتى بك .

نعم .. كان هو جون جابرييل نفسه . وأشار إلى الطبيب وطلب بصوته المتألم الحاسم الدواء المخفف الذى وعده به . وهز الطبيب رأسه . كان جابرييل يسيطر عليه ، ولاشك أن الدواء كان سيعجل بنهايته ، ولكن جابرييل أفهمه أن رجفة أخيرة من القوة ضرورية له ، بل أكثر من ضرورية .. حتمية ..

هز الطبيب كتفيه وأذعن ، وأعطاه الحقنة المطلوبة ثم خرج تتبعه كاترين ، وبقيت وحدى مع المريض .

وبدأ جابرييل الحديث على الفور فقال : أود أن تعرف كيف ماتت ايزابيللا .

ولما أجبته بأنى أعرف قال : كلا لاأظن ذلك .

ووصف لى عندئذ ، المشهد الأخير كما حدث فى مقهى زارجراد . وسأذكره بدورى

فى حينه . ولكنه لم يقل بعد ذلك غير شىء واحد ، وبسبب هذا الشىء أكتب هذه الصفحات .

والأب كليمانت ملك للتاريخ الآن . وملحمته البطولية ، وتحمله واحتماله ومعاناته وشجاعته ، كل ذلك أصبح ملكا للذين يمجدون الأبطال والجمعيات الإنسانية التى أنشأها هى أساس تجاربنا الإجتماعية الجديدة . وسوف يكتب الكتاب السير المختلفة عن ذلك الرجل الذى استوحى هذه التجارب وحققها .

ولكن هذه القصة ليست قصة الأب كليمانت ، وإنما هى قصة جون مريوتر جابرييل بطل الحرب ، وفى نفس الوقت ، رجل الملذات الوصولى الذى يتمتع فوق ذلك بجاذبية شخصية عجيبة .

أنا وهو ، كل منا أحب ، بطريقته الخاصة نفس المرأة .

***

الفصل الأول

فى أية لحظة يجب أن تبدأ قصتى ؟ .. هل أبدأها بذلك الاجتماع الذى أقيم فى قاعة ميموريال حيث ألقى جون جابربيل المرشح الجديد لحزب المحافظين خطابه ؟ ذلك المرشح الذى قدمه لنا أحد الزعماء القدامى والذى بنينا عليه الآمال الكبار فجاء مخيبا لهذه الآمال بسبب صوته الهادئ الخشن وبسبب دمامته المفرطة ..؟ على أننا لم نلبث أن تغلبنا على مشاعرنا عندما تذكرنا أمجاده الباسلة ولمسنا الضرورة الملحة لوجود صلة تربط بين الحزب وبين غالبية ناخبيه ، خاصة وأن الطبقة المتميزة قد تضاءلت إلى حد كبير .

أو هل يجب أن أعود القهقرى إلى بولنورث هاوس ، وإلى تلك الغرفة الكبيرة ذات السقف المنخفض والتى تقع أمام البحر بشرفتها الكبيرة ، حيث يدفعون عربتى المتحركة فى الأيام الصافية الجميلة ، لكى أتأمل الاطلنطى بأمواجه التى تتدافع نحو الشاطئ، وأمتع عينى بمنظر الجبل الشامخ المقيم الذى يقطع خط الأفق حيث تمتد نوافذ وأبراج قصر سنت لو ، ذلك القصر العتيق الذى يعيد إلى الأذهان قصور العصور الوسطى .

أو هل أبدأ بزيارة الليدى سنت لو والليدى تريسليان ومسز بيجهام وايزابيللا .. ؟ أو هل أرجع إلى ماقبل ذلك ، إلى تلك اللحظة التى أمسكت فيها بعجلة قيادة سيارتى لكى أمضى إلى مطار نورثولث حيث تنتظرنى جنيفر ؟ .

والقصة قبل تلك اللحظة بالذات قصتى أنا ، وقد بدأت منذ ثمانية وعشرين عاما، وكان لابد لها أن تنتهى فى ذلك اليوم .

ومع ذلك فالقصة ليست قصتي أنا ، وقد سبق أن قلت ذلك ، ولكنها تبدأ كما لو أنها قصتي لأنها تبدأ بي أنا ، هوج نوريز . وإذ أنظر إلى الوراء ، إلى ذلك الماضي أرى حياتي تشبه حياة أكثر الناس ، وأنها ليست أكثر أو بأقل أهمية من حياتهم .. فيها خيبة أمل وهموم تافهة لاحصر لها ، وفيها حماس وإثارة وشجون ، وفيها ذلك الافتتان العجيب الذي تولده أحيانا أتفه الأسباب ، وعليّ أنا أن أضع هذه الحياة تحت الإشارة التي تروق لي .. إما الكبت والحرمان وإما النجاح .

وكلا الأمرين صحيح .. والمسألة إنما هي مسألة اختيار ، فمن ناحية ، هوج نوريز كما يرى نفسه وهوج نوريز كما يراه الناس من ناحية أخرى . وهما بطبيعة الحال شخصان مختلفان كما سيمثلان أمام الله . ولكن ماالذي أعرفه الآن عن ذلك الشاب الذي استقل من محطة بنزانس قطارا منطلقا إلى لندن في بداية سنة ١٩٤٥ .. لو أن أحدا سألني في ذلك الوقت لقلت له أن الدنيا حبتني وأحسنت معاملتي ، لأن الوظيفة المريحة التي كنت أشغلها في هيئة التدريس كانت تناسبني تماما . وكنت قد اكتسبت من تجاربي الحربية بعض المال ، وكانت مهنتي تنتظرني ، وكان هناك احتمال في أن يعهد إليّ بإدارة المدرسة التي كنت أعمل بها . وقد عرفت الحب بحلاوته ومرارته دون الارتباط بأي رباط . وكانت علاقاتي العائلية تروق لي ولا تثقل عليّ . وكنت في السابعة والثلاثين من عمري عندئذ . وفي ذلك اليوم بالذات أحسست أن حدثا انتظره في غموض منذ بعض الوقت يوشك أن يقع . وكنت أنتظر ذلك الحدث واتساءل هل يكون تجربة جديدة جوهرية ؟ .

أحسست في ذلك الوقت أن حياتي كلها لم تكن الا خدعة وأني سأدخل عالم الواقع .. وأظن أن كلا منا يحس هذا الاحساس ، ولو مرة واحدة في حياته ... أحيانا في وقت مبكر جدا وأحيانا في وقت متأخر .

ركبت إذن القطار في محطة بنزانس وابتعت تذكرة لتناول العشاء في عربة الطعام

وعندما مر الساقى يعلن بصوته الخشن والعشاء جاهز " تذاكركم من فضلكم " أعطيته تذكرتى ومضيت إلى عربة الطعام . وأشار الجرسون إلى مكان شاغر خلف القاطرة ، أمام المقعد الذى تجلس فيه جنيفر .

هكذا وقعت الأمور ، وجلست أمام جنيفر دون تدابير أو تخطيط . وكانت تبكى . ولكننى لم ألحظ ذلك فى بادىء الأمر لأنها كانت تغالب نفسها بقدر ماتستطيع . لم يكن يصدر منها أى صوت ، ولم تأت بأية حركة ، ولم ينظر أى منا إلى الآخر ، وإنما تصرفنا طبقا للاصول التى تسوى العلاقات بين المسافرين الذين تجمع بينهم الصدفة ، فقد بسطت لها قائمة الطعام ، ولم يكن ذلك ضروريا ، لأنها لم تكن تحتوى إلا على حساء وسمك أو لحم وجبن .

وتقبلت حركتى كما يجب ، بابتسامة غامضة مهذبة ، وبانحناءة من رأسها . وأقبل الجرسون وسألنا ماذا نريد أن نشرب ، فطلب كل منا كأسا من الجعة .

وخيم الصمت بيننا بعد ذلك لحظة . وغرقت أنا فى مطالعة المجلة التى كنت قد أتيت بها معى . وجاء الساقى ووضع أطباق الطعام بيننا ... وتصرفت تصرف الجنتلمان فدفعت بالملاحة نحوها . وحتى تلك اللحظة لم أكن قد رفعت عينى إليها . أعنى أنى لم أكن قد نظرت إليها حقا ، على الرغم من أننى كنت قد تحققت من بعض الخصوصيات ، فقد كانت شابة ، ولكنها لم تكن فى مقتبل العمر . كانت تصغرنى ببضع سنوات ، معتدلة القامة سمراء الشعر ، تنتمى إلى نفس الطبقة الاجتماعية التى انتمى أنا إليها . وكانت على جانب كبير من الفتنة الطبيعية . ومع ذلك فلم تكن من ذلك النوع الذى يستلفت الأنظار .

وقررت أن أفحصها أكثر من ذلك ، وأن أحاول التقرب منها إذا تراءى لى ذلك ، ولكن لم تلبث خططى أن انقلبت فجأة ، فقد وقعت عينى بحركة آلية على طبقها فإذا بدموعها تنساب من عينيها فى هدوء ، وبدون أن تتشنج ، أو تأتى بأية حركة ،

وتتساقط فى طبق الحساء .

وأحسست بصدمة ، ورميتها بنظرة سريعة ، فتوقفت دموعها على الفور ، وأفلحت في التغلب عليها ، وبذلت مجهودا كبيرا لكى تأكل . وعندئذ قلت لها فى جرأة لم استطع أن أكبحها :

- أنك تعيسة جدا ، أليس كذلك ؟

وكان أن أجابت فى صراحة قاسية : بل قل أننى غبية . ثم ساد بيننا الصمت ، ورفع الجرسون طبقى الحساء ووضع أمامنا طبقين من اللحم المفروم ، مضافا إليه بعض الكرنب والبطاطس المحمرة .

ونظرت إلى النافذة ، وأتيت بملاحظة تتعلق بالمنظر الذى يمر أمامنا ، ثم أفضت فتكلمت عن الناحية ، فقلت أننى لاأعرفها جيدا ، وسألتها أن كانت تعرفها فأجابت : نعم .

وزادت فقالت أنها تقيم فيها . وتكلمنا عن كورنواى عندئذ وعن ديفونشاير وبلاد الغال والضفة الشرقية . ولم يكن لحديثنا هذا أى نص فيما عدا أنه كان محاولة للتغطية على تطفلها ببكائها فى مكان عام ، وعلى حماقتى لأننى لاحظت ذلك .

ولم نأخذ الأمور من بدايتها إلا بعد أن فرغنا من تناول القهوة ، وبعد أن قدمت لها سيجارة فقلت لها أننى آسف لتطفلى ، وأجابتنى فقالت لابد أنها بدت غبية جدا ، فقلت:

- كلا .. كل ماهناك أننى أدركت أنك لم تستطيعى المقاومة ، هذه هى الحقيقة ، أليس كذلك ؟

أجابت : نعم . (وأردفت تقول فى غضب) أن من الخزى حقا أن يبلغ بى الأمر إلى حد أن أرثى لنفسى ، والا أهتم بما أفعل أمام الناس .

- أبدا .. أنك تغالين نفسك ماتستطعين .

- نعم ، فلم أكن أبكى بصوت مرتفع .

وسألتها عما إذا كان الأمر خطيرا إلى هذا الحد .

فأجابت : نعم . خطير جدا . أنه نهاية كل شيء ، ولم أعد أدرى ماذا أفعل ؟ .

وكنت قد خمنت الأمر طبعا ، فقد كان مافيها يعبر عن توتر يائس ، ولم أشأ أن افترق عنها وهى فى هذه الحال ، فقلت :

- ألا يمكن أن تبثينى همومك .. فأنا غريب عنك ، والغرباء يتعاطفون عادة ، وليس للأمر أية أهمية .

أجابت : ولكن ليس هناك ماأقول فيما عدا أننى تورطت حتى أذنى فى مأزق .

قلت لها أنها ربما تبالغ فى المأزق الذى تورطت فيه ، وأن من رأيى أنها فى حاجة إلى من يطمئنها وينفخ فيها حياة جديدة وشجاعة جديدة وأن ينتزعها من ذلك الاحساس بالرضوخ للواقع والاستسلام للحزن ، وأن تنتقل إلى أرض صلبة . ولم أشك لحظة واحدة فى أننى أنا وحدى الذى أستطيع أن أفعل ذلك ..نعم ، هكذا كنت أفكر .

نظرت إلىّ لحظة فى تفكير كالطفل المتردد ، وفجأة راحت الكلمات تتدفق من بين شفتيها وفى أثناء ذلك كان الجرسون قد جاء ورفع أطباق الطعام ونقدناه أجره . وأعطيته حلوانا (بقشيشا) كبيرا ، فانحنى فى احترام وانصرف .

ورحت أصغى لحديث جنيفر .

كانت قد اجتازت محنة قاسية ، وراحت تدافع عن نفسها ضد الأحداث بشجاعة كبيرة ، ولكن وقعت أمور كثيرة بعضها أثر بعض ، ولم تستطع مقاومتها جسديا ، وساءت الأمور بالنسبة لها . وكانت دماثة خلقها سببا فى وقوعها فى المأزق وهى طفلة، ثم وهى فتاة ، ثم وهى امرأة متزوجة . وقد سنحت لها الفرصة للخروج من مأزقها . ولكنها تركتها تفلت منها مفضلة تحمل المصائب بصدر رحب . وأخيرا ، عندما وجدت المخرج لم يكن بالمخرج السليم ، فازدادت أمورها سوءا على سوء .

ولكنها لم تلم إلا نفسها على ماحدث لها . وتأثر قلبى إزاء هذه اللمسة الرقيقة ، وإزاء غياب المرارة والغيظ ، وأردفت هى تقول فى أسى : ولاشك أنى أنا المخطئة .

وددت لو أن أهيب بها فأقول : أبدا .. ألا ترين أنك أنت الضحية ، على العكس ماتقولين ، وانك ستكونين ضحية دائما طالما أصررت على هذا المسلك السخيف ، ورميت نفسك بكل الأخطاء !

وما كان أجملها وهى جالسة هكذا ، يستبد بها القلق والبؤس والقهر ، وخيل لى عندئذ وأنا أنظر إليها عبر المائدة أنها هى التى انتظرتها دائما ... اعنى جنيفر . لا بصفتها ملكية خاصة ، وإنما بصفتها امرأة يجب أن أعيد إليها الشجاعة وحب الحياة .. أعنى جنيفر أخرى جديدة .

نعم ، أدركت ذلك عندئذ . وكان لابد لى من أسابيع كثيرة بعد ذلك لكى أعترف بينى وبين نفسى أننى أحبها . بل كان الأمر أكثر من ذلك .

ولم نخطط لكى يرى كل منا الآخر . وقد حسبت هى عندئذ أننا لن نلتقى بعد الآن . أما أنا فقد كنت واثقا من العكس . كانت قد أخبرتنى باسمها ، وأردفت تقول فى رقة كبيرة عندما غادرنا عربة الأكل " هذا وداع ، ولكن تأكد أننى لن أنساك أبدا ، ولن أنسى مابذلته من أجلى . كنت يائسة .. يائسة جدا .. " .

وكنت ممسكا بيدها فودعتها وتركتها تنصرف . ولكننى كنت أعلم أن وداعى لها لم يكن وداعا إلى الأبد . وكنت واثقا من ذلك بحيث أننى ماكنت لأحجم عند الضرورة بأن أعدها بأننى لن أحاول رؤيتها بعد ذلك أبدا لأن القدر أراد أن يكون لنا نفس الأصدقاء ، ولم أقل لنفسى ذلك لأننى كنت أعرف أن من اليسير علىّ أن أجدها . وأنه لمن الغريب حقا أننا لم نلتق ، أنا وهى ، أبدا قبل اليوم .

ورأيتها بعد أسبوع فى حفلة كوكتيل عند كارو ستراجويز . ولم يبق أى شك بيننا بعد ذلك ، وفهمنا ماحدث لنا .

وكنا نلتقى ونفترق ثم نلتقى من جديد فى حفلات إجتماعية ، وعند الأصدقاء ، وفى المطاعم الصغيرة الهادئة . وكنا نستقل قطارات تنطلق بنا إلى الريف ، ونمشى تحت ضباب ذهبى حالم سعيد غير واقعى ، ونختلف إلى الحفلات الموسيقية لنستمع إلى اليزابيث شومان وهى تغنى وتقول :

" فى ذلك الممر حيث قادتنا خطانا

كنا نلتقى فننسى الدنيا وتلفنا

الأحلام ، ونسأل السماء أن تضع

الأختام على حبنا الذى لن تعرف

الدنيا أن تقوضه " .

وعندما كنا نخرج من إحدى هذه الحفلات كنت أكرر ، وفى ضوضاء الشارع الكلمات الأخيرة للأغنية وأقول " ونعيش فى حب وهناء دائمين إلى الأبد " . ثم تلتقى عيناى بعينيها فتقول :

– أن السعادة لم تخلق لنا ياهوج .

فأرد عليها : بل هى قد خلقت لنا .

وأضيف : لأنه يجب أن نعيش باقى أيامنا معا .

ولكنها كانت تحتج فتقول أنها لاتستطيع أن تتخلص من كل شىء هكذا ، فهناك زوجها أولا ، وهو لن يرضى أبدا أن يمنحها الطلاق .

– ولكن فى مقدوره هو أن يطلبه .

– ربما . ولكن لماذا لانبقى كما نحن ياهوج .

قلت : كلا . أبدا .. محال .

وكنت قد تذرعت بالصبر ، وتركتها تسترد صحتها وروحها المعنوية . ولم أشأ أن ألاحقها لكى تتخذ أى قرار طالما لم تسترد مرحها وحبها للحياة ، والآن ، وقد

استردت كل هذا وأصبحت قوية معنويا وأدبيا ، فقد كان لابد من اتخاذ قرار .

ولكن الأمر لم يكن سهلا مع ذلك ، فقد راحت جنيفر تبدى حججا وأعذارا لم أكن أتوقعها . كان يجب عليّ أولا أن أهتم بعملى الذى قد يتعرض للأهتزاز . وكنت أعرف هذا . وقد فكرت فيه ولم أبال فقد كنت لاأزال شابا ، وكنت أستطيع أن أفعل الكثير فى غير مجال التدريس .

وبكت عندئذ وقالت أنها لن تغفر لنفسها أبدا لو أننى حطمت حياتى بسببها ، فأجبتها بأن ما من شيء يحطم حياتي إلا إذا هجرتنى هى ، لأن الحياة بدونها لن يكون لها أي معنى بالنسبة لى .

وشيئا فشيئا رضخت لأسبابى وحججى ، فإن الذى بيننا لم يكن حبا فحسب ، بل كان أكثر من ذلك . كان اتحاد الذهن والفكر .. كان وفاقا عميقا مشتركا .. كانت شفاهنا تنطق بنفس الكلمات فى وقت واحد . وكنا نفكر فى نفس الأشياء . وإذا عرفت أخيرا بأننى على حق وأن كلامنا خلق للآخر تراجعت وقالت :

- أنك على حق ياهوج . ولكن كيف يمكن هذا .. ؟ اننى لاأفهم .. هل أنا مهمة إلى هذا الحد بالنسبة لك إذن ..؟ ومع ذلك فإننى أصدقك وأعتقد ذلك .

وواجهنا كل شيء ودرسنا كل نقطة ، ورسمنا الخطط المادية التى لابد منها .

وفى صباح يوم بارد مشمس استيقظت وأنا أدرك أن حياتنا الجديدة ستبدأ فى ذلك اليوم وأننا سنرتبط ، أنا وجنيفر ابتداء من اليوم . وكنت أرفض حتى ذلك الوقت أن أصدق شيئا من ذلك ، فقد كنت أخشى دائما أن تأتى عقدة النقص عندها وتتدخل فى آخر لحظة وتتراجع . وحتى فى صباح ذلك اليوم الأخير من حياة منتهية كان لابد لى أن أتأكد فأمسكت بسماعة التليفون وقلت :

- جنيفر ؟

- هوج .

كان صوتها الرقيق متهدجا بعض الشيء . ورأيت أننى لم أخطىء فقلت :

- معذرة ياحبيبتى .. أردت أن أسمع صوتك .. أننى لاأحلم .. أليس كذلك ؟

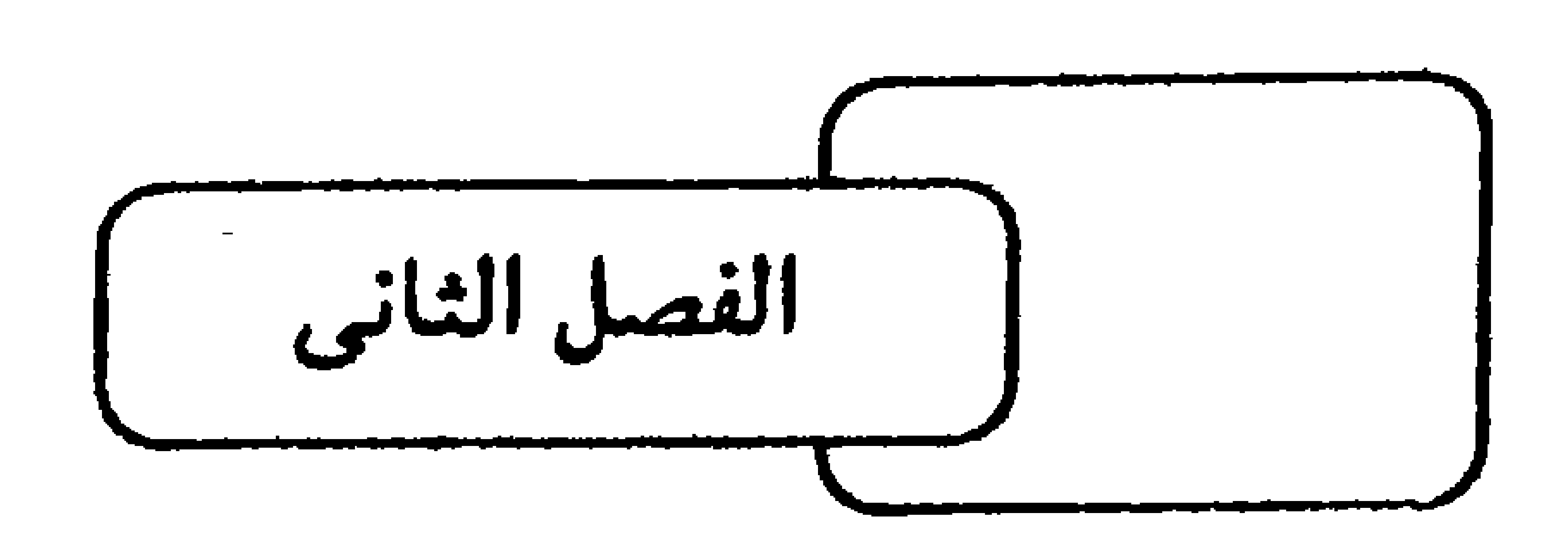
- كلا . كلا هذا صحيح .

كان يجب أن نلتقى فى مطار نورثولث . ورحت ادندن وأنا أرتدى ثيابى ، وحلقت ذقنى فى عناية كبيرة ، وعكست مرآتى صورة رجل مأخوذ وفى منتهى السعادة . كان ذلك اليوم أعظم يوم فى حياتى .. كان اليوم الذى أنتظره منذ سبعة وثلاثين عاما . وتناولت افطارى ، وفحصت التذكرتين وجواز السفر ، ثم هبطت إلى عربتى ، وكان يجب أن يسوقها هاريمان ، ولكنى طلبت منه أن يجلس فى المقعد الخلفى ، وأخذت أنا مكانى خلف عجلة القيادة . وخرجت من الشارع المسدود الذى أقيم فيه ، وانطلقت فى طريقى : وكانت حركة المرور هادئة ، وكان أمامى كل الوقت . كان صباحا رائعا صباحا جميلا خلق خصيصا لجنيفر وهوج .. وددت لو أن أغنى وأن أملأ الدنيا صياحا ..

وجاءت عربة النقل من الشارع الجانبى بسرعة ستين كيلو مترا فى الساعة ، ومن المستحيل أن أقول أنه كان فى مقدورى أن أتوقع الصدمة أو أن أتحاشاها . لم يكن هناك أى خطأ من جانبى أو أى رد فعل آخر . وقد قيل لى فيما بعد أن سائق عربة النقل كان مخمورا ، كما أنه كان من الأهمية أن أعرف لماذا تقع مثل هذه الأمور .

وارتطمت عربة النقل بالسيارة البويك ، وحطمتها وحطمت معها حياتى . ومات هاريمان على الفور . وكانت جنيفر تنتظر فى المطار ، وانطلقت الطائرة دون أن أوافى جنيفر.

***



الفصل الثانى

ليس هناك فائدة تذكر فى وصف ماحدث بعد ذلك . فى بداية الأمر لم يكن هناك أى ترابط .. لاشىء غير الأرتباك والظلمات والألم .. كنت أهيم بلا نهاية ، أو على الأقل كان يخيل لى ذلك ، عبر طرقات مظلمة ، ومن بعيد كنت أرى أننى فى قاعة مستشفى ، وكنت أحس إلى جوارى أطباء وممرضات يرتدون الثياب البيضاء ، وأدوات الجراحة تعكس ومضات ، وعربات صغيرة زجاجية تنتقل هنا وهناك بلا انقطاع .

ثم عاد الاحساس بالواقع شيئا فشيئا ، فى حين هدأ الاحساس بالضياع والألم . ولكن لم يكن هناك أى أدراك لا بالمكان ولا بالأشخاص . والحيوان الذى يتألم لايقيس إلا مدى ألمه ولايمكنه أن يهتم بشىء آخر . والمخدرات تهدىء الألم الطبيعى ، ولكنها تزيد من اضطراب الذهن وتساهم فى الاحساس بالهوان .

ثم عرفت بعد ذلك فترات من الصحو ، وجاءت الساعة التى استطاعوا أن يشرحوا لى فيها أننى كنت ضحية حادث . وعرفت أخيرا الحقيقة كلها عن حالتى وعن سبب جمودى.. وعن جسدى المسكين المحطم .. لن أستطيع أن أعيش أبدا كرجل بين الرجال.

وأقبل أناس لزيارتى ..أخي ، وكان مرتبكا ومقتضبا لايعرف ماذا يجب أن يقول، ولم أستطع أن أكلمه عن جنيفر . وكنت لاأفكر إلا فيها هى .. وكلما تحسنت حالتى كلما أتونى برسائلها .. رسائل جنيفر .

ولم يسمح لأى أحد غير أقاربى بزيارتى ولم تكن جنيفر من بينهم . لم تكن لها أية صفة ولا أى حق .. لم تكن نظريا أكثر من صديقة .

كتبت الى تقول : انهم لايسمحون لى بزيارتك أيها الحبيب ... ولكننى سآتى بمجرد أن أستطيع .. أننى أحبك .. لاتفكر إلا فى الشفاء .. جنيفر .

وفى رسالة أخرى : " لاتقلق ياهوج .. لاشىء يهم مادمت على قيد الحياة . سنجتمع إلى الأبد بعد قليل ... حبيبتك جنيفر " .

وكتبت لها رسالة عادية بالقلم الرصاص أسألها ألا تأتى ، فماذا لدى الآن لكى أقدمه لها ؟ ولم أرها إلا بعد أن خرجت من المستشفى ورقدت طريحا فى بيت أخى . وكانت قد كررت لى نفس الأشياء فى رسائلها .. أننا متحابان . وأنه يجب أن نعيش معا ، حتى إذا لم يقدر لى الشفاء التام ، وأنها ستعنى بى وتشرف على علاجى ، وأن السعادة مازالت ممكنة لنا .. إذ لم تكن السعادة التى كنا نحلم بها ، فهى سعادة أخرى على الأقل . وعلى الرغم من أن الفكرة الأولى التى كانت تدور برأسى هى أن أقطع كل صلة بها وأن أهيب بها أن ابتعدى ولاتعودى أبدا ، فقد أخذنى الضعف لأننى اعتقدت مثلها أن الذى يجمع بيننا لم يكن نداء الجسد ، وإنما كل ملذات أفكارنا المشتركة ، كان من الأفضل طبعا أن ترحل وأن تنسانى ولكن مادامت ترفض الرحيل ...

ولكن كان لابد لى مع ذلك من وقت طويل قبل أن أراها وكنا نتبادل الرسائل كثيرا وكانت رسائلنا رسائل حب حقيقية .. نبيلة ، بل وبطولية . وأخيرا تركتها تأتى .

وجاءت . وكان هذا كل شىء .

ولم يسمح لها بالبقاء طويلا . ولكننا فهمنا من أول دقيقة ومن غير أن نعترف بذلك . وعادت مرة ثانية وثالثة ولكننى لم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك . ولم تدم الزيارة الثالثة أكثر من عشر دقائق . ومع ذلك فقد بدت لى أنها دامت أكثر من ساعة . وماكنت لأصدق ذلك لولا أننى نظرت إلى الساعة ، وأعتقد أن الوقت كان هكذا بالنسبة لها هى الأخرى لأنه لم يكن لدى الواحد منا مايقوله للآخر .

نعم ، هكذا كان الأمر بكل بساطة .. والخلاصة لم يكن بيننا شيء على الاطلاق وهل هناك أسوأ من مرارة انهيار حلم سخيف ..؟ كل هذه الأفكار المشتركة ، وكل هذه الطفرة لروح تندفع لكى تلحق بروح أخرى شقيقة .. صداقتنا .. وزمالتنا .. أوهام .. لم تكن إلا مجرد أوهام .. من تلك الأوهام التى تتولد عادة من ميل طبيعى بين الرجل والمرأة ... فخ الطبيعة نفسها .. وهى أقوى وأعظم خدعاتها .

لم يكن بينى وبين جنيفر شيء آخر غير تلك الرغبة التى تتولد منها أبشع الأوهام.. لم يكن بينى وبينها إلا مجرد اشتهاء ولاشيء أكثر ، وقد أذلنى هذا الاكتشاف وتسبب لى فى ضغينة أرغمتنى على كراهية جنيفر تقريبا ، وعلىّ أن أكره نفسى فى نفس الوقت. ونظر كل منا إلى الآخر فى ارهاق وضنى . وتساءل كل منا عن السراب الذى بنى عليه أكبر الآمال .

كانت امرأة جميلة .. وكنت أعرف ذلك ، ولكن حديثها كان يثير ضجرى وضجرها كذلك . ولم يعد أى منا يجد متعة فى تبادل الحديث مع الآخر . وراحت تنعت نفسها بكل أنواع اللوم . وتمنيت ألا تنطق بشيء مما تنطق به ، فقد بدا لى كل ذلك عديم الجدوى . ورحت أسأل نفسى " لمَ كل هذا الرياء بالذات ؟ " .

وعندما نهضت لكى تفارقنى فى المرة الثالثة قالت فى مرح مصطنع :

- سأعود لزيارتك قريبا ياحبيبى .

ولكننى أسرعت أقول : كلا .. لايجب أن تأتى .

- بل سآتى بكل تأكيد .. يجب أن آتى ..

وبدا صوتها بعيدا عن الواقع فصحت محتجا : كفى غشا وخداعا بالله عليك ياجنيفر.. ان كل مابيننا قد انتهى .. انتهى تماما ..

ولكنها زعمت أن مابيننا لم ينته ، وانها لاتفهم مااعنيه وأنها مصممة على تكريس حياتها لى ، وأننا سنكون سعيدين جدا . كانت تريد التضحية بنفسها بكل

تأكيد . وتملكنى الغضب ، وخشيت أن تنفذ فكرتها . لم أستطع أن أتصور بقاءها بجوارى بثرثرتها المضنية وجهدها الرقيق وملاحظاتها التفاؤلية العديمة الجدوى ، فصحت بها أن تنصرف وأن تنسانى . وأطاعتنى مرتاعة ، وأن كنت قد لمحت ارتياحا فى عينيها .

وعندما جاءت زوجة أخى بعد ذلك بقليل لاسدال الستائر أطلعتها على ماحدث وقلت:

– وقد انتهى الأمر بيننا ياتيريزا ورحلت .. رحلت ولن تعود بعد الآن .. أليس كذلك ؟

أجابت تيريزا : كلا أنها لن تعود .

– تيريزا .. هل تظنين أن المرض هو الذى يجعلنى أرى الأشياء على غير حقيقتها ؟

أدركت تيريزا ماأعنيه فقالت أنها ترى أن مرضى من شأنه أن يرينى الأمور على حقيقتها .

– هل تعنين أننى أرى جنيفر الآن كما هى ؟

– كلا .. ليس تماما .

ولم يكن ذلك لأننى أصبحت أكثر وضوحا فيما يتعلق بجنيفر ، وإنما لأننى اكتشفت مدى ماقد يكون من تأثيرها على خارج حبنا . وسألت تيريزا عن رأيها فيها ، فقالت أنها تراها جذابة وظريفة ولكنها مجردة من أى اهتمام ، فسألتها فى اصرار :

– هل تظنين أنها تعيسة ياتيريزا ؟

– نعم . أظنها كذلك .

– بسببى أنا ؟

– كلا .. وإنما بسببها هى .

وعدت أقول : أنها لاتكف عن لوم نفسها بسبب هذا الحادث . تقول أنه لو لم أذهب إلى المطار لكى ألحق بها لما وقع لى شىء ، وهذا أمر سخيف طبعا .

- نعم . أنه كذلك .

- لاأريد أن تختمر هذه الفكرة فى رأسها .. لاأريد أن تتعذب ياتيريزا .

قالت : لاتشغل بالك بذلك ياهوج .. ودع لها أوهامها على الأقل .

- ماذا تعنين ؟

- أنه يحلو لها أن تتألم ، وأنت لاتستطيع أن تشفق على أحد مالم يشفق هو على نفسه . وهى تجد فى احساسها بالألم لذة ومتعة كبيرتين .

قلت لتيريزا أنها فظيعة ، فأجابتنى بأنها كذلك حقا ، فقلت :

- ألا تشفقين على أحد إذن ؟

لاأدرى ياهوج .

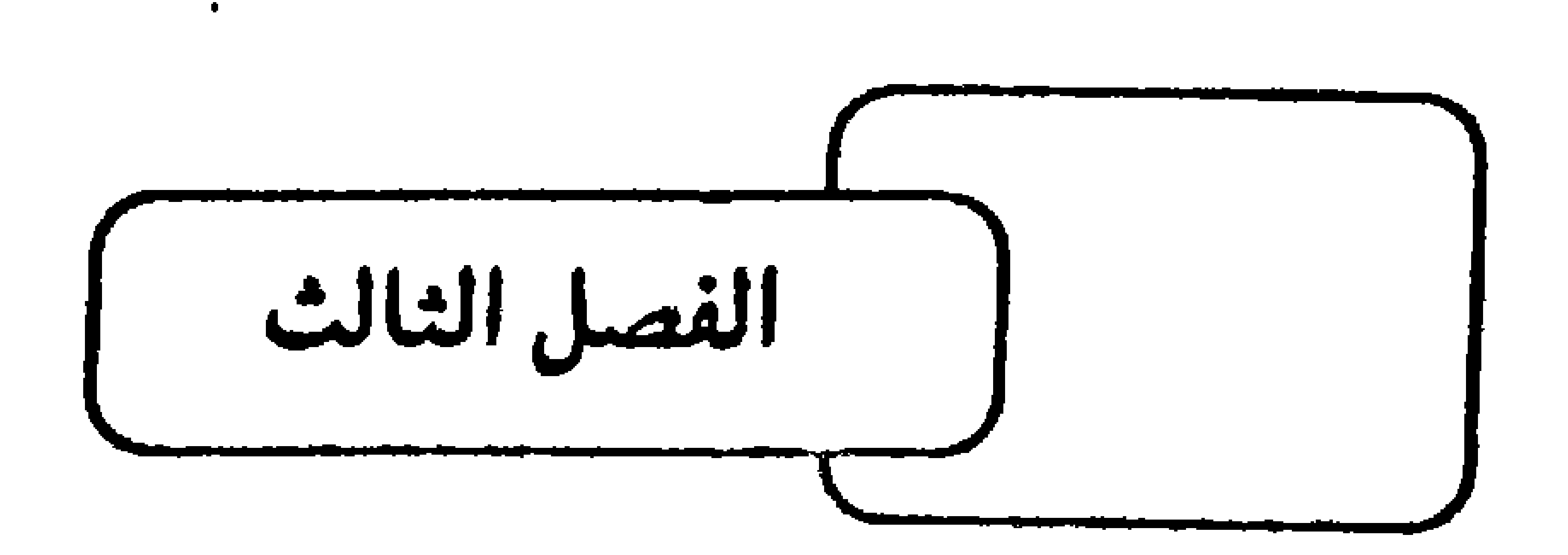
قلت متهكما : ألا يحزنك أننى أصبحت حطاما مهشما ، وأنه لم تعد لى غاية فى الحياة بعد ؟

- لاأدرى أن كان هذا يحزننى أم لا . ان حالتك هذه إنما تعنى بوجه خاص أنه يجب أن تبدأ حياتك من جديد ، وأن تتناولها من زاوية جديدة تماما .

رميت تيريزا بالقسوة فغادرتنى وهى تبتسم .

وقد أصابتنى فى ذلك اليوم بخير كبير .

***



الفصل الثالث

انتقلنا بعد ذلك إلى بلدة سنت لو بمقاطعة كورنواى ، حيث ورثت تيريزا قصرا من عمة لها . وكان الطبيب قد نصحنى بمغادرة لندن . وكان أخى روبير رساما يعتقد البعض أنه يرسم الريف بطريقة غير صحيحة ، فوجد فى ذلك فرصة لكى يرى الريف على حقيقته .

وسبقتنا تيريزا لكى تدبر لنا كل شىء ، وبعد أن فرغت من توقيع أوراق رسمية لاحصر لها استطعت أخيرا الانتقال فى عربة اسعاف خاصة .

وقلت لتيريزا فى صباح اليوم التالى : كيف تجرى الأمور هنا ؟

وكانت قد استطلعت ذلك فقالت أن البلدة تنقسم إلى ثلاثة أوساط مختلفة .. الطبقة القديمة ، وهى طبقة الصيادين الذين يقيمون على مشارف الميناء ببيوتهم ذات الأسطح الاردوازية وبعد الميناء بقليل تقوم على طول الشاطىء بيوت حديثة وفنادق ضخمة أعدت لأقامة السياح والطبقة البورجوازية ، والبلدة نفسها تعج بالحركة فى الصيف وتخلد إلى الهدوء شتاء . ثم هناك قصر سنت لو وتقيم فيه الليدى سنت لو ، محور عالم آخر قائم بذاته تمتد فروعه عبر طرقات ملتوية نحو عدة قصور تقوم فى الوادى فى ظل أبراج قديمة . وأردفت تيريزا تقول : " وبمعنى آخر ، بيوت النبلاء " ..

وسألتها : وإلى من ننتمى نحن ؟

أجابت : إلى طبقة النبلاء طبعا .

لأن قصر بولنروث كان ملكا لعمتها مس لوسى تريجلليس ، ولأن هذه الأخيرة

كانت من طبقة النبلاء ، وأن القصر قد أصبح ملكا لتيريزا عن طريق الميراث لا عن طريق الاقتناء فقد أصبحنا من طبقة النبلاء .

وسألتها : وحتى روبير ، على الرغم من أنه رسام ؟

أجابت سيكون من الصعب تقبله لأن كثيرين من الرسامين يقيمون فى بلدة سنت لو أثناء الصيف . (ولكنها أسرعت تقول) : ومهما يكن فهو زوجى من ناحية ، ثم أنه سليل أسرة بولدورو من ناحية أخرى .

وسألت تيريزا عندئذ أن تذكر لى الدور الذى يجب أن نقوم به فى محل أقامتها الجديد، أو بالحرى ماذا تنوى أن تفعل لأنه كان من الواضح أننى لن أكون إلا مجرد شاهد فأجابتنى بأنها ستشترك فى النشاط المحلى .

- ماذا تعنين ؟

- أعنى السياسة والفلاحة والجمعيات الخيرية .

وأردفت تقول : وعلى الخصوص السياسة فنحن على أبواب انتخابات جديدة .

- هل اهتممت بالسياسة قبل ذلك ياتيريزا ؟

- ابدا . بدت لى عديمة الفائدة دائما ، وكنت أقنع حتى اليوم بأدلاء صوتى للناخب الذى يبدو لى أقل ازعاجا من غيره .

واستطردت تقول : انها ستهتم من الآن بالسياسة بصورة جدية ، وأنها بصفتها صاحبة قصر بولوورث لن يسعها إلا أن تلتحق بحزب المحافظين ، لأنها لو فعلت غير ذلك فلن تشعر مس لوسى تريجلليس فى مثواها الأخير بالهدوء فقلت :

- ولكن هبى أن حزب العمال هو الأفضل ؟

أجابت : ولو .. لاأستطيع أن أتردد لحظة واحدة بين الحزبين .

وكان قد مضى على اقامتنا فى قصر بولوورث نحو أسبوعين عندما أقبلت الليدى سنت لو لزيارتنا . وقد أقبلت هى وأختها الليدى تريسليان وزوجة أخيها مسز بيجهام

كارتريس وحفيدتها ايزابيللا .

وبعد انصرافهن قلت لتيريزا فى شىء من الدهشة انهن لايمكن أن ينتسبن إلى عالم الواقع لأنهن كن اشبه بسيدات الأساطير .. الجميلة و الساحرات الثلاث .

والواقع أن ليدى سنت لو كانت أرملة البارون السادس الذى كان يحمل هذا اللقب والذى قتل فى حرب البوير ، وقد لقى ولداها الكبيران حتفهما بدورهما فى الحرب العالمية الأولى ، ومات ابنها الأصغر فى حادث طائرة تاركا ابنته ايزابيللا وحدها إذ كانت أمها قد ماتت أثناء الوضع ، وانتقل اللقب إلى ابن عم يعيش الآن فى نيوزيلندا . وقد سره أن يؤجر القصر للأرملة العجوز وشبت ايزابيللا مع جدتها وعمتيها ، فقد اقبلت الليدى تريسليان للإقامة فى القصر بعد أن مات زوجها ، كما اقبلت أخت زوجها مسز بيجهام كارتريس .

وكن يتقاسمن نفقات المعيشة فيما بينهن .. واستطاعت ايزابيللا أن تقضى حياتها فى بحبوحه .. وكانت الليدى سنت لو قد تجاوزت هى وزميلتاها السبعين من العمر ، وبدت كل منهن اشبه بالغراب .. كان وجه الليدى سنت لو مملوءا بالغضون والتجعدات وكانت عريضة الجبين ... أما الليدى تريسليان فكان لها عينان واسعتان براقتان ووجه مستدير ، وكانت ممتلئة الجسم على عكس مسز بيجهام كارتريس النحيفة التى كانت اشبه بالجلد على العظم ، يحيط بهن جميعا جو ادواردى (نسبة إلى الملك ادوارد السابع)، كما لو كان الوقت قد توقف بالنسبة لهن ، تبدو مجوهراتهن باهته مقلدة على الرغم من أنها مجوهرات حقيقية نفيسة .

هؤلاء هن صاحبات قصر سنت لو الثلاث ومعهن ايزابيللا ، طويلة القامة ، رشيقة القد ، ذات جبين عريض عال يحيط به شعر أشقر بلون الرماد ينساب فوق كتفيها .. كانت أشبه بصورة مرسومة على لوح من الزجاج .. لم يكن فى الامكان القول بأنها جميلة أو جذابة ولكنها كانت على شىء من الحسن .. حسن مهمل بعيد عن الحسن

الحقيقى الذى يصفونه هذه الأيام ... لم يكن فيها أى مرح ولا أى بريق ولا أى تناسق فى القسمات وإنما توازن صارم فى بناء الجسد والعظام .. كانت تبدو كما لو كانت اسطورة وأشبه بإحدى فتيات العصور الوسطى ، جادة الملامح صارمة ، تنم قسماتها عن أصالتها ونبلها .

وبعد أن قلت لتيريزا أن السيدات الثلاث يبدون كأنهن غير حقيقيات أردفت أقول أن الفتاة هى الأخرى لاتبدو حقيقية .

– تعنى أنها كالأميرة الأسيرة فى قصر من الأطلال ؟

– تماما .. وكان يجب أن تأتى فوق صهوة رهوان أبيض لا فى سيارة عتيقة من طراز ديملر .

واستطردت أقول :– اننى اتساءل فيم تفكر ؟

ذلك لأن ايزابيللا لم تتكلم كثيرا فى تلك الزيارة الرسمية ، وإنما بقيت معتدلة فى جلستها وعلى وجهها ابتسامتها الحلوة ، ترد فى أدب على أى سؤال يلقى عليها دون أن تجد أى داع للحديث طالما أن جدتها وعمتيها تديران دفته .. وتساءلت إذا لم تكن هذه الزيارة تثقل عليها ، وإذا لم تكن قد قامت بها لا لشىء إلا لأن حدثا جديدا قد وقع فى بلدة سنت لو ، فقد بدا لى أنها تقضى حياتها رتيبة مملة .

وقلت فى فضول :– ألم تشترك فى الحرب ؟ .هل بقيت فى البيت طوال هذه المدة .

– انها مازالت فى التاسعة عشرة من عمرها ، وقد قادت سيارات الصليب الأحمر بعد مغادرتها المدرسة الداخلية .

– المدرسة الداخلية ؟ .. اتعنين انها كانت فى مدرسة داخلية حقا ؟

– نعم .. مدرسة سنت نينيان .

ازدادت دهشتى لأن مصاريف سنت نينيان باهظة جدا ، ثم أن المدرسة نفسها كانت حديثة العهد ومزودة بأحدث الوسائل العلمية .

وسألتنى تيريزا : - أيدهشك هذا ؟

أجبت فى بطء :- نعم .. فإن تلك الفتاة تعطيك انطباعا بأنها لم تضع قدمها خارج البيت أبدا ، وأنها نشأت فى جو مشبع بأعمال الفروسية ، وأعنى أنها تعيش فى جو يختلف عن الجو الذى نعيش فيه فعلا .

هزت تيريزا رأسها فى تفكير وقالت : - نعم .. اننى أفهم ماتعنيه .

واشترك أخى روبير فى الحديث فقال : - هذا يثبت أن التأثير الوحيد الذى يهم هو تأثير البيئة .. تأثير البيئة والوراثة بالطبع .

وعدت أقول : - اننى اتساءل فيم تفكر بالذات .

أجابت تيريزا : - لعلها لاتفكر على الاطلاق .

ضحكت لهذا القول ، ولكننى لم أكف مع ذلك عن التفكير فى هذه الفتاة الكبيرة الناضجة .

وكنت فى ذلك الوقت بالذات فريسة احساس بغيض بحالتى الصحية ، فقد قضيت قبل الحادثة التى وقعت لى حياة سليمة رياضية ، وكنت أكره كل مايمت بصلة للمرض والعجز .. ولم يكن ذلك لأننى كنت غير جدير بالشفقة ، ولكن لأن شفقتى كان يشوبها دائما نفور بهم .

ولكن أصبحت أنا الذى أثير الشفقة والنفور الآن ، أنا المريض العاجز الذى يقضى وقته فى عربة متحركة يغطى أطرافه الملتوية بغطاء .

كنت أرقب ردود فعل الزوار فيما يتعلق بى . وقد تنبه فى كل احساس . ومهما كانت تلك الردود ، فقد كانت تخدش شعورى . مجرد نظرة اشفاق وعطف كانت بغيضة بالنسبة لى . وأكثر من ذلك تلك السرقة التى تدفع الزوار إلى التظاهر بأن حالتى عادية ، وأنه ليس فيها أية غرابة . ولولا أراده تيريزا الحديدية التى أبدتها نحوى لحبست نفسى فى غرفتى ، ولما قبلت أن أرى أحدا .. كنت قد عقدت العزم على

ألا أقضى حياتى فى عزلة ، واستطاعت برقتها وبدون أية غلطة أن تُفهمنى أن اعتزالى العالم سيخلق حولى نوعا من الغموض ويساهم فى خلق دعاية بغيضة .. وكنت أعرف ماذا تفعل ولماذا تفعل ومع ذلك فقد أطعتها وشددت على أسنانى وقررت ان اريها مدى ما تستطيع من احتمال وتقبلت حياتى الجديدة دون أى تبرم أو تذمر .

ولم يكن مسلك السيدات المسنات والثلاث مثيرا لأى ازعاج بالنسبة لى ، فقد أبدت الليدى سنت لو عدم اكتراث ولباقة ..أما الليدى تريسليان فهى بطبيعتها الأمومية لم يسعها إلا أن ترثى لى ، وتكلمت عن الكتب التى صدرت حديثا ، وسألتنى أن لم أكن أريد انتقادها .. وكانت مسز كارتريس من نوع بداتى ، فكبحت شعورها ، وأمسكت عن الحديث فجأة عندما جاء ذكر أنواع الرياضة التى يمكن ممارستها فى الهواء الطلق (ياللرجل المسكين .. لايمكن أن نتكلم أمامه عن الصيد والقنص طبعا) .

وكانت ايزابيللا هى الوحيدة التى أثارت دهشتى بطبيعتها الكاملة ، فقد نظرت إلىّ دون أن يخطر ببالها أن تحول عينيها عنى ، كما لو كانت تجمع فى ذهنها بينى وبين مفروشات الغرفة (رجل تجاوز الثلاثين من عمره وعاجز) .. مجرد سطر فى قائمة بأشياء لاشأن لها بها .

وبعد أن فرغت منى انتقلت عيناها إلى البيانو ، ثم إلى الحصان الخشبى الهزاز الذى بجواره ، ويبدو أنه آثار اهتمامها بوجه خاص فسألتها :

- هل يروق لك .

فكرت مدة طويلة ثم قالت فى قوة كما لو كان الأمر على جانب كبير من الأهمية :

- نعم .

وتساءلت أنَ لم تكن غبية بعض الشىء ، ثم سألتها إن كانت تحب الجياد ، فأجابتنى بأن الحصان الخشبى هو أول حصان تراه .

- أعنى الجياد الحقيقية .

- أوه نعم .. ولكن مواردى لاتسمح لى بالحصول على جواد للصيد .

- وهل تحبين الصيد ؟

- ليس بوجه خاص .. أن المنطقة هنا ليست مشهورة بالصيد .

وسألتها ان كانت تحب ركوب البحر فأجابتنى بالإيجاب .. وفى هذه اللحظة بالذات بدأت الليدى تريسليان تحدثنى عن الكتب .. وعادت ايزابيللا إلى صمتها .. كانت تملك ، كما رأيت صفة من اندر الصفات وهى صفة الهدوء .. كانت تستطيع البقاء جالسة من غير ان تتحرك ومن غير أن تدخن عاقدة ساقيها ، الواحدة فوق الأخرى ، دون أن تحرك أصابعها أو تلمس شعرها . وكانت تستطيع البقاء جالسة معتدلة فى مقعدها ذى المسند العالى ويداها فى حجرها .. وهما يدان طويلتان ضيقتان .. كانت لاتبدى حراكا وبدت كالحصان الخشبى تماما كما لو كانت قطعة من الاثاث الموجود بالغرفة .

وكنت قد ضحكت حين قالت تيريزا أن ايزابيللا لاتفكر على الاطلاق ، ولكن لم تلبث صورتها ان عادت إلى ذهنى فلم استبعد ذلك .

وتحققت تكهنات تيريزا فيما يتعلق بحياتنا فى سنت لو ، فلم يمض وقت طويل حتى ألفينا نفسينا غارقين فى السياسة إلى عنقينا .. وكان قصر بولنورث كبيرا ، وقد اضطرت مس تريجلليس عندما رأت أن الضرائب تستنفذ الجزء الأكبر من ثروتها إلى تخصيص أحد جناحيه للسكنى وأجرته للكابتن كارسليك ، الوكيل الانتخابى لحزب المحافظين .

وعندما آل القصر إلى تيريزا وزوجها لم يسعهما إلا الابقاء على الكابتن كارسليك وزوجته لأنه لم يكن فى مقدورهما اجبارهما على الانتقال إلى مسكن آخر بسبب أزمة المساكن .. غير أن اشتراكهما معنا فى السكنى اضطرنا إلى أن نشترك معهما فى

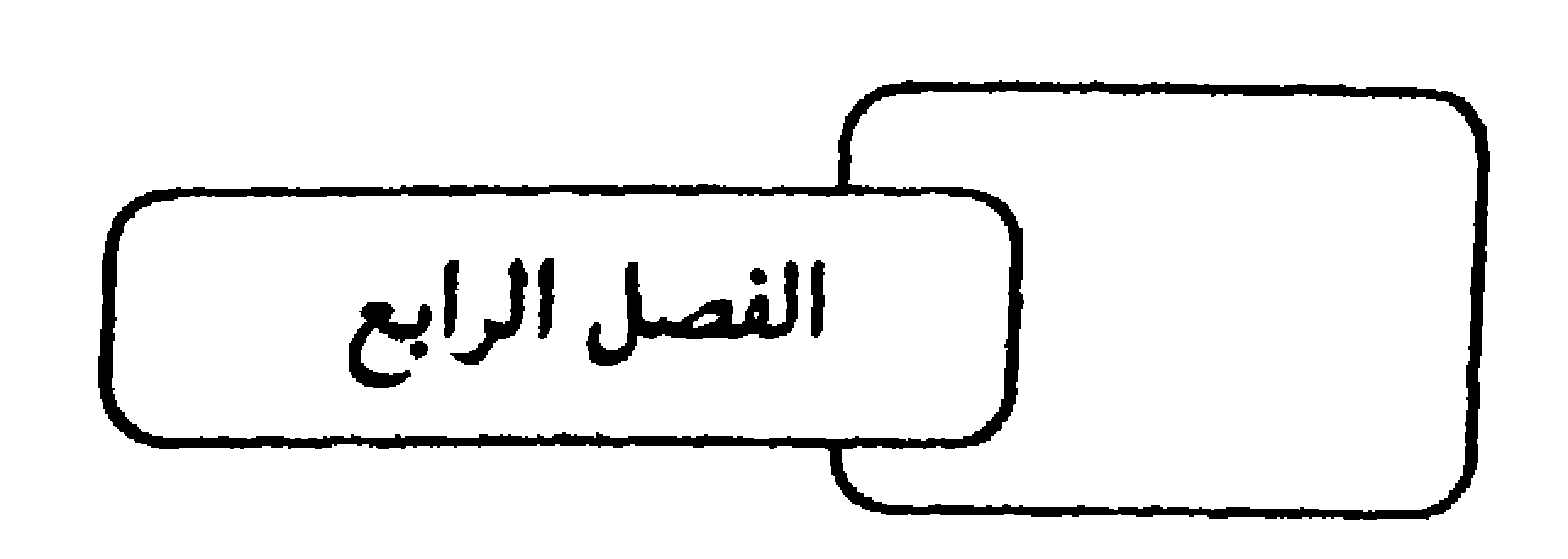
الحملات والدعاية الانتخابية ، سواء كان ذلك فى قصر برلنورث أو فى مقر حزب المحافظين الذى يقع فى الشارع الرئيسى لبلدة سنت لو .

ووجدت تيريزا نفسها ، كما توقعت ، فى دوامة .. فراحت تسوق السيارات فتوزع النشرات الانتخابية .. وقامت ببعض الدعايات الفعلية ، وكان المعروف عن الأهالى انهم يدلون بأصواتهم دائما لحزب المحافظين ، ولكن بلدة سنت لو أصبحت أخيرا مركزا حيويا للسياحة .. وشيدت فيها بيوت جديدة سكنها اناس كثيرون من مختلف الأماكن ، بحيث أن حزب المحافظين فشل فى الحصول على ثقة الأهالى فى الانتخابات الجزئية التى تمت فى سنة ١٩٤٣ ، وفاز حزب العمال .

وقال الكابتن كارسليك مخاطبا تيريزا وهو يتأرجح على عقبيه من الخلف إلى الامام .

– وقد استحققنا هذا الفشل عن جدارة .

ويجب أن ندرك أننى أنا نفسى لاأفهم فى الأمور التى لم أدرسها دراسة وافية وسيكون وضعى للانتخابات محشوا بالأخطاء طبعا .. ولنقل أن الانتخابات بالنسبة لى أشبه بالأشجار التى رسمها أخى .. والمعروف أن الأشجار فى الطبيعة نباتات لها جذور وأغصان وأوراق وألياف وثمار أما أشجار روبير فهى ليست بأكثر من بقع أو لطخات من الدهان الكثيف والألوان الغامقة مثبته بطريقة معينة على قطعة من القماش .. وهذان أمران لايتشابهان فى شىء ، ومن رأيى أن أشجار روبير لايمكن تسميتها بالأشجار حقا ، ويمكن أن نقول عنها أنها أطباق من الاسفاناخ أو عدادات كهربية ، ولكن هى الصورة التى يراها روبير للأشجار فى ذهنه على كل حال . ونفس القول عن الانتخابات بالنسبة لى ، فهى لاتتفق فى ذهنى مع الانتخابات الحقيقية ، ومن المحتمل أن الفنيين لن يفهموا شيئا مما أقول وأن حديثى عنها وعن الاجراءات قد يكون بعيدا عن الواقع ، وان كنت أتحدث عنها فذلك لأنها الديكور المعقد للشخص الرئيسى فى هذه القصة وأعنى به جون جابرييل .



الفصل الرابع

سمعت باسم جون جابريبل لأول مرة فى ذلك المساء الذى تكلم فيه كارسليك ، فقال أن الحزب لم ينل فى الانتخابات السابقة الأغلبية التى كان يستحقها ، فقد تقدم سير جيمس برادويل ، وهز نبيل محافظ مرشحا عن حزب المحافظين ، وهو من أهالى المنطقة ويملك ثروة ما ، له مبادىء نبيلة وخصال حميدة ، وبلغ من العمر اثنتين وستين سنة ، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء وإلى اتخاذ القرارات السريعة الحازمة .. ثم أنه لم يكن يملك أية موهبة خطابية وكان يتلعثم عند أول محاولة .

واستطرد كارسليك يقول :- كان أمره مثيرا للرثاء على المنصة .. مثيرا للرثاء حقا ، وقد أخذ يتلعثم ولم يحسن التصرف .. وكنا قد أعددنا له خطابه طبعا ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يحصل إلا على نسبة ضئيلة جدا من الأصوات ، مع أنه رجل صادق صريح وجنتلمان بكل معنى الكلمة .

قلت : - ولكن الناخبين اليوم بحاجة إلى رجل ذكى .

لم يبد كارسليك أى اهتمام بقولى واستطرد :- انهم بحاجة إلى رجل لين العريكة. ماكر ، يعرف كيف يشد الخيوط ، جدير بأن يضحكهم وأن يبذل لهم أكبر الوعود طبعا.. ان المرشحين القادمين الذين على شاكلة برادويل أصبحوا من الطبقة القديمة لايستطيعون اقناع الناخبين بأن كلا منهم سيكون له بيته الخاص ، وأن نهاية الحرب ستكون غدا ، وأن كل ربة بيت ستكون لها غسالتها الكهربائية وجهاز التدفئة الخاص بها .

وراح يقول :- ثم اننا كنا قد بقينا فى السلطة مدة طويلة ، وكان لابد أن يتغير

كل هذا .. والمرشح الآخر لم تكن تنقصه القدرة ولا الحركة .. كان مدرسا قديما عائدا من الحرب وعاجزا ، عرف كيف يكون مقنعا فى وعوده فيما سوف يفعل من أجل الجنود بعد عودتهم من الميدان .. وكان والحق يقال خطيبا مفوها نال أغلب الأصوات .. وكانت هذه أول مرة يفشل فيها حزب المحافظين فى بلدة سنت لو .. وأؤكد لك أننا أصبنا بصدمة كبيرة فى ذلك الوقت ، ولابد لنا أن نتحرك هذه المرة وأن نقصى هذا الولبراهام .

- هل يتمتع بشعبية ؟

- بين بين .. أنه لاينفق فى البلد مايكفى من المال ، ولكنه رجل وقور ويروق للناس ، لن يكون من السهل التخلص منه .. يجب أن نعمل بجد .

- لاأخالك تظن أن العمال سيأتون إلى السلطة ؟

- ذلك لأننا لم نكن نستطيع أن نصدق ذلك فى تلك اللحظة ، قبل انتخابات سنة ١٩٤٥ .

وقال كارسليك :- طبعا لا .. ان انجلترا كلها وراء تشرشل كأنها رجل واحد ، ولكن الأغلبية فى الدوائر الانتخابية تختلف .. ولن أدهش يامستر نوريز إذا نال حزب الأحرار اصواتا كثيرة جدا .

ألقيت إلى تيريزا نظرة جانبية .. كانت تحاول أن تبدو شديدة الاهتمام بالسياسة.. وقال كارسليك :

- اننى واثق انك ستكونين ذات عون كبير لنا .

قالت تيريزا انها لاتشعر بأى ميل للسياسة بعد .. وقال كارسليك أنه لابد لها أن تبذل مجهودا ، ثم نظر إلىّ متوقعا منى أن انضم إليه .. واقترحت عليه على الفور أن أتولى تحرير المظاريف وقلت :

- اننى مازلت أستطيع استخدام يدى .

ونظر إلىّ فى شىء من الحيرة وقال :- حسنا .. حسنا .. هل أستطيع أن أسأل أين أصبت ..؟ فى أفريقيا الشمالية ؟

أجبت :- كلا .. وإنما فى طريق هارو .

وكان هذا نهاية كل شىء ، وبدأ عليه الارتباك ، ولكنه أخفى حرجه بأن قال :

- أظن أن زوجك سوف يساعدنا يامسز نوريز ؟

هزت تيريزا رأسها نفيا وقالت : أن ذلك ليدهشنى ، فهو شيوعى .

ولو أنها قالت له أن زوجها وحش مفترس لكان ذلك أخف وطأة ، فان كارسليك راح يرتعش من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه .. وقالت تيريزا :

- أعنى أنه فنان .

تمالك كارسليك نفسه شيئا ما ، فان الفنانين والكتاب كل هؤلاء الزمرة .. وقال وهو يأتى بحركة كبيرة من يده :

- نعم .. نعم .. اننى أفهم .

قلت :- اننى اتساءل ماهو شكل مرشحنا الجديد ؟ وكان كارسليك قد أبدى تحفظا فى هذه الناحية ، وسألته تيريزا إذا كان سير جيمس سيرشح نفسه من جديد ، فهز رأسه وقال :

- كلا ليس هذه المرة ، فان المعركة عنيفة ، ولاأدرى كيف تتم .. أن مرشحنا غريب عن هذه البلدة .

- ومن هو ؟

- رجل يدعى الميجور جابرييل وهو حائز على وسام صليب الحرب .

- أى حرب .. أهذه أم الماضية ؟

- بل هذه .. أنه شاب فى الرابعة والثلاثين من عمره .. أتى أعمالا باهرة تدل على الجرأة والبطولة والتفانى وانكار الذات .. أبدى شجاعة منقطعة النظير أمام قوة

معادية فى معركة ساليرن ، فقد كان يقود فرقة بطارية تحت نيران العدو وأصيب هو نفسه ، فقد بقى مكانه إلى أن نفذت منه الذخيرة ، وتراجع إلى الخطوط عندئذ بعد أن قتل الكثيرين من الأعداء .. وقد أفلح فى إعادة زميله معه فى رأيك ؟ .. ولكن مظهره لايدل على ذلك لسوء الحظ ، فهو يبدو كأنه رجل تافه لاشأن له .

سألته :- وهل يعرف كيف يتصرف فوق المنصة ؟

انبسطت أسارير كارسليك وقال : - أوه .. اننى مطمئن من هذه الناحية ، فهو ماكر كالقرد ، ونشيط كالبارود وجدير بأن يهز القاعة هزا !

وأردف يقول وقد ظهر عليه الامتعاض :- ولكن لاخلفية له لسوء الحظ .

- تعنى أنه لاينتمى إلى هذه البلدة .. ولكن من أين أتى ؟

- الحق اننى لاأدرى ، ويخامرنى أحساس بأنه لم يأت من أى مكان .. ولكننا سنتظاهر بأننا لانعرف ذلك ، وسنقدمه من الزاوية العسكرية ، وسوف نذكر أعماله البطولية .. ومن الجائز أن ينجح بهذه الطريقة ، ولكنه لاينتمى إلى طبقتنا بالطبع .

وزم شفتيه وأردف يقول :- وأخشى أنه لن يروق أبدا لليدى سنت لو .

وسألته تيريزا أن كان من المهم أن يروق لليدى سنت لو ، فأجاب بأن ذلك على جانب كبير من الأهمية لسوء الحظ ، فان الليدى سنت لو رئيسة للمنظمة النسائية لحزب المحافظين ، وهؤلاء النسوة يحكمن البلدة ، فهن يدرن ويدبرن ، ويقدن كثيرا من الحركات ويؤثرن تأثيرا كبيرا فى الأصوات النسائية وأردف يقول أن أصوات النساء لها فاعلية كبيرة .

وعاد يقول وهو يبتسم :- وأحد الأسباب التى تجعلنى أتوقع نجاح جابرييل هو أنه يروق للنساء .

- ولكن يبدو أنه لايروق لليدى سنت لو بالذات ؟

- كلا .. أنه لايروق لها ، ولكنها امرأة رياضية ، وهى تعترف بكل صراحة بأنها

أصبحت من الطبقة القديمة .. غير أنها لاتتردد فى أن تقف قلبا وقالبا خلف المرشح الذى يختاره حزبها .

واستطرد كارسليك يقول فى حزن :- ومهما يكن فقد تغيرت الأوقات .. كانت السياسة فيما سبق من عمل الرجال ، ولكنها لم تعد كذلك الآن .. كنت أفضل طبعا أن يكون ذلك الرجل (جنتلمان) فعلينا أن نقنع بأحد أبطال الحرب .

ولم أر جون جابرييل إلا فى مساء اليوم الذى تم فيه ذلك الاجتماع الكبير بقاعة دريل .. وكانت تيريزا قد استطاعت أن تقتنى لى عربة متحركة على غاية من الصلاحية ، كنت أمضى بها إلى أى مكان أريد ، فانتقلت إلى القاعة المذكورة ، وكانت قد امتلأت بجمهور من الاثرياء والمسنين .. أما الأشخاص الذين دون الأربعين فقد آثروا ملذات البحر ، ولست ألومهم على ذلك .. وبينما كان أحد الصبية يدفع عربتى بجوار الجدار على مايبدو أن كل الموجودين قد عقدوا العزم على الأدلاء بأصواتهم للمرشح الجديد حتى قبل أن يروه .

ولم يلبث أن أقبل رئيس الحزب ومعه بعض أتباعه والمرشح الجديد ، واحتلوا مكانهم فوق المنصة التى أعدت لهذه المناسبة ... وتكلم الرئيس بصوت متهدج مرتعش، ونطق ببعض التفاهات التى لم يعبأ بها أحد ، وكان جنرالا مسنا أظهر تفوقا فى حرب البوير ، وهى حرب أصبحت بعيدة جدا .. وأمسك عن الكلام بعد لحظات فدوى التصفيق تلقائيا .

واختتم الجنرال حديثه بأن قدم للحاضرين المرشح الجديد جون جابرييل ، الحائز على وسام صليب فيكتوريا .

وندت عن الليدى تريسليان عندئذ تنهيدة عميقة ، وسمعتها تقول ، وكانت على كثب منى :

- خسارة أن تكون له مثل هاتين الساقين المبتذلتين .

وأدركت ماذا تعنى على الفور ومع ذلك فلو أن أحدا طلب منى أن أذكر له إذا كانت ساقا فلان مبتذلتين أم لا لتملكنى الأرتباك ولما استطعت الرد .. ولكن جابرييل لم يكن طويل القامة ، وكانت ساقاه متناسبتين مع جسده .. لم تكونا مفرطتى الطول ولا مفرطتى القصر .. وكان يرتدى بذلة أنيقة متقنه الصنع .. ومع ذلك فان ساقيه العاديتين المكسوتين كما يجب كانتا بعيدتين عن الأصالة والتمييز .

ومع ذلك فلم يكن فى وجهه مايشير إلى أنه من طبقة متوسطة .. كان نجما دميما ولكنه مع ذلك كان من أكثر الوجوه جاذبية ، تنيره نظرة زرقاء ..كانت ساقاه فقط هما اللتان تخذلانه .

ونهض وابتسم ابتسامة حلوة ، وفتح فمه ، وبدا يتكلم فى صوت معتدل وبلهجة شعبية بعض الشيء .. وظل يتكلم لمدة عشرين دقيقة ، وقد أجاد الحديث ، وأن كنت لاأستطيع القول ماذا قال بالضبط .. ولكنه انتزع تصفيق الموجودين انتزاعا ، وضمهم إلى صفه على الفور .. نسى الجميع شكله الدميم وصوته العادى الخشن ، ولم يهمهم فيه غير اخلاصه للحزب وارتباطه بهم .. وأدركوا أنه قد صمم على الفوز بمقعده فى البرلمان ...

وبعد أن انتهى التصفيق وقف رئيس الحزب وأدلى بكلمة أشاد فيها بجون جابرييل، وطلب من الناخبين أن يقفوا خلفه صفا واحدا .

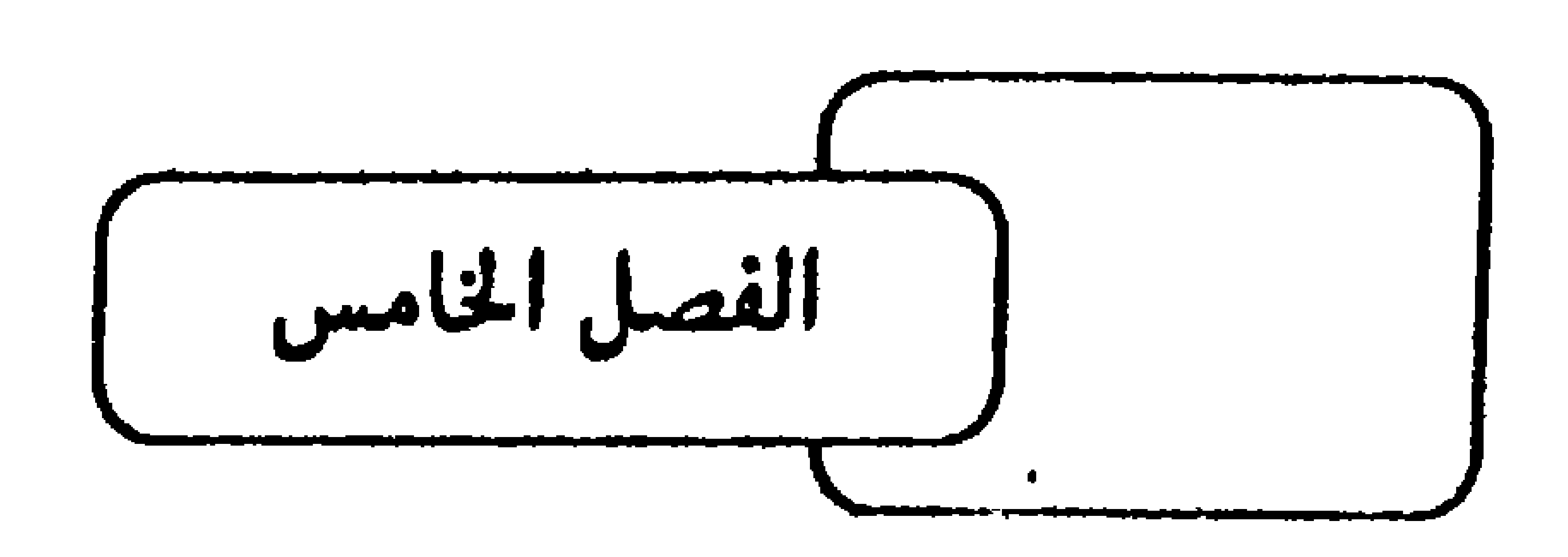
وبدأ الناس يقفون وينصرفون .. واقتربت الليدى تريسليان وسألتنى وهى مبهورة الأنفاس قائلة :

– مارأيك فيه ؟ .. أجبنى بصراحة .

قلت : لابأس .. أنه رجل قدير . وقد أعطانى انطباعا بأنه يتكلم عن اخلاص .

– وهذا رأيى فيه أنا أيضا .. أنه عرف كيف يتكلم عن تشرشل ، وليس هناك أى شك فى أن البلاد كلها تقف خلف تشرشل .. ألا ترى ذلك ؟

– نعم .. وأعتقد حقا أن المحافظين سيفوزون فى الانتخابات فوزا ساحقا .



الفصل الخامس

رأيت المرشح الجديد بعد يومين عندما أقبل إلى بورنورث للتشاور مع كارسليك ، وقد اصطحبه هذا الأخير إلى البيت لتناول كأس من الكوكتيل .. وخرجت تيريزا مع كارسليك لحظة لتسوية مسألة خاصة بالانتخابات ، واعتذرت لجابرييل بأننى لاأستطيع النهوض لكى أقدم له كأسا ، وطلبت منه أن يخدم نفسه ، فصب لنفسه كأسا وصب لى أخرى جاءنى بها وهو يقول فى لهجة عادية :

- أهى أصابة حرب ؟

- كلا .. بل مصادمة فى الطريق .

وكان هذا هو الرد الذى أعتدت عليه منذ وقت طويل ، وكان يطربنى أن أرى رد الفعل عند مختلف الناس .. ولكن جابرييل بدا عليه الطرب وقال :

- هذا أمر يؤسف له .. لقد ضاعت منك فرصة طيبة .

- أكنت تفضل أن اختلق قصة من قصص البطولة ؟

- كنت تستطيع أن تزعم على الأقل انك أصبت فى أفريقيا الشمالية أو فى اى مكان آخر يحلو لك .. لاريب أنك عبرت البحار ؟

- نعم .. وقد اشتركت فى حرب العلمين وغيرها .

- آه .. حسنا .. يكفى أن تتكلم عن العلمين إذن ، ولن يطالبك أحد بأية تفاصيل.. ان الناس تعرف كل شىء دائما .

- هل تظن أن هذا ضرورى ؟

- ضرورى بالنسبة للنساء ، فهن يعبدن أبطال الحرب .

قلت فى مرارة : أعرف ذلك .

هز رأسه فى إدراك سريع وقال :- أظن أن هذا يثير حزنك فى بعض الأحيان .. هناك نساء كثيرات هنا ، وبعضهن يزخرن بعاطفة الأمومة .

ونظر إلى كأسه الفارغ وقال : هل أستطيع أن أتناول كأسا أخرى ؟ اننى سأتناول العشاء فى القصر الكبير الليلة .. أن السيدة العجوز تحاول أن تحتكرنى .

كان من المحتمل أن نكون من أخلص أصدقاء الليدى سنت لو ، ولكنه كان يعلم اننا لسنا كذلك .. ولم يكن جون جابرييل من الأشخاص الذين يقدمون على أى خطأ .

- الليدى سنت لو وحدها أم الثلاثة معا ؟

- ان السيدة البدينة لاتخيفنى اطلاقا فانها من ذلك النوع الذى يمكن أن نسوسه تماما .

وكذلك الحال مع مسز بيجهام .. ولكن الليدى سنت لو من طينة أخرى ، فهى امرأة ذكية ، تراك على حقيقتك ولايمكن خداعها ، وليس معنى هذا اننى أريد أن أخدعها .

وأردف يقول فى شىء من الحيرة :- انك عندما تقع على أناس ارستقراطيين حقا تجد نفسك فى ورطة لاتستطيع التخلص منها .

- اعترف اننى لاأفهمك جيدا .

ابتسم وقال :- الواقع اننى زججت بنفسى فى مكان غير مناسب لى .

- هل تعنى انك لاتفهم شيئا فى السياسة ؟

- كلا ، كلا .. إنما أعنى أننى من طبقة أخرى غير طبقتهم وأنهم يتحرون عن أصلى وفصلى على الرغم منهم .. ولسوء الحظ أنهم لايستطيعون الخيار فى وقتنا هذا ، ويجدون أنفسهم مضطرين إلى الألتجاء إلى أشخاص مثلى .

وأردف يقول فى تفكير :- كان أبى سمكريا ، ولكنه لم يكن سمكريا ممتازا .

وغمز لى بعينه ، فرددت له غمزته ، وبدأ سحرا يؤثر فىّ واستطرد :-

- بحيث اننى أرى من سويداء قلبى اننى يجب أن أكون من العمال .

- ولكنك لاتقرهم على برنامجهم ؟

أجاب فى غير اهتمام :- ليس لى رأى فى هذا الخصوص بالذات .. أن الأمر بالنسبة لى مجرد فرصة .. يجب أن أجد لى عملا ، فقد انتهت الحرب كما تعرف ، ولابد للمرء أن يسعى لكى يكسب قوت يومه .. وقد خطر لى دائما أننى أستطيع أن أشق طريقى فى السياسة .. بكم تراهن أننى سأفوز ؟

- ألهذا السبب وقع اختيارك على حزب المحافظين ؟ .. هل تنشد الفوز ؟

قال :- هل تخرج ؟ .. لاأخالك تظن لحظة واحدة أن الحزب سيفوز ؟

أجبته بأن هذا هو اعتقادى فى الواقع ولكن بأغلبية ضئيلة ، فقال :

- أنت واهم .. أن العمال هم الذين سيفوزون .. وبأغلبية ساحقة .

- إذا كنت تظن هذا حقا ؟ ..

ولم أزد فقد قاطعنى قائلا :- تتساءل لماذا لاأنضم إلى صفوفهم ؟ .. ولكنى لاأريد أن أكون من العمال لهذا السبب بالذات .. لاأريد أن أضيع بين الجمهور .. أن المعارضة هى مكانى الحق ، ولكن ماهو حزب المحافظين ؟ .. أنه عبارة عن مجموعة من الناس المتميزين ، غير أنهم لايتمتعون بالذكاء ، ويشتركون مع رجال أعمال لايفقهون شيئا فى الأعمال .. ليس لهم برنامج خاص ، ويتخبطون فى تصرفاتهم .. ومع مثل هؤلاء القوم يمكن لأى رجل لديه ذرة من العقل أن يتفوق عليهم .. انظر إلى جيدا وسوف ترانى أشق طريقى كالسهم .

- على شرط أن تفوز فى الانتخابات أولا .

- أه ، سوف أفوز .

نظرت إليه فى اهتمام وقلت : هل تظن هذا حقا ؟

ضحك فى خبث وأجاب :- نعم .. هذا إذا أحسنت التصرف .. ولكن لدى نقاط ضعف للأسف (وأفرغ كأسه فى جوفه واستطرد) وأسوأ هذه النقاط هى النساء .

يجب أن اتجنبهن كما يتجنب المرء الطاعون ، ولن يتعذر علىّ ذلك هنا على الرغم من أن هناك امرأة جميلة فى الفندق الذى نزلت به . وأظنك لم تلحظها ؟

وشمل جسدى بنظرة واحدة ثم قال :

- آه .. اننى آسف . كلا . ماكنت لتستطيع ذلك لسوء الحظ .

وكانت هذه أول لمسة اشفاق احتملتها عن طيب خاطر ، فقد كانت طبيعية جدا ، وقلت :

- لاأظنك تطلع كارسليك على كل هذا ؟

- ذلك الغبى ؟ .. لاأخالك مجدا فى قولك ؟

وطالما تساءلت بعد ذلك لماذا أظهر لى جابرييل طبيعته الحقيقية منذ أول لقاء هكذا . واستنتجت أن الذى دفعه إلى ذلك إنما هو احساسه بالوحدة . كان يقوم بدوره على أكمل وجه ، ولكنه لم يكن يجد أية فرصة للأسترخاء أثناء الاستراحات ، ولاريب أنه أدرك أن الرجل الجامد الذى لايستطيع الحركة ينتهى به الأمر دائما إلى أن يكون كاتم أسرار الغير ، ولو أننى كنت أنشد التسلية لأمدنى جون جابرييل بالكثير منها بأن يشدنى إلى كواليس حياته ، ثم أنه كان فوق ذلك صريحا بطبعه .

وسألته فى شىء من الفضول كيف تتصرف الليدى سنت لو معه فأجابنى :

- عليها اللعنة .. انها سيدة كاملة ، وهى تسيطر علىّ بصفتها هذه على كل حال . فى شىء يحدث ألا وهو على وجه .. أنها خبيرة فى مثل هذه الشئون . وإذا أرادت تلك الحيزبون الشمطاء أن تكون وقحة فما من شىء يمنعها عن ذلك . ولكن إذا كانت تريد ذلك فما من شىء يمكن أن يخرجها عن طورها أبدا .

أدهشنى قوله هذا ، فلم أر من سبب لكى تكون الليدى سنت لو وقحة معه .

وخاصة أنه لاشأن لها بالانتخابات ، وكل ماهنالك أنها صورة من صور الماضى ، وقد أبديت له هذه الملاحظة ، فنظر إلىّ نظرة جانبية وقال :

- أنك لاتفهم . أنها تعتبرنى حثالة ، فهى تنظر إليك وتخترقك ببصرها كما لو أنه لاوجود لك على الاطلاق بل أنها تعاملك كما تعامل صبى الجزار أو البدال تماما .

وفهمت عندئذ أن هناك فى ماضى جون جابرييل ذكرى ماتزال حية .. إهانة أو أساءة تعرض لها بصفته ابن سمكرى . وكأنه قرأ مايجول فى ذهنى لأنه أسرع يقول :

- نعم .. انك تفهم ماأعنيه . ان لدى عقده نقص من الناحية الطبقية . اننى أبغض سيدات المجتمع وعجرفتهن ، فانهن يجعلننى أشعر بأننى لن أصل إلى مستواهن ، مهما بذلت ومهما فعلت ، وأننى سأظل دائما فى أسفل سافلين . وهن لسن على خطأ . انهن يرين فى وضوح .. فهكذا أنا ..

أجفلت لهذا القول . كان اعترافه يفيض بكراهية شديدة .. وتساءلت أى حدث فى ماضى جون جابرييل مازال ينهش وعيه الباطن .

وقال :

- على الرغم من أننى أعرف أنه لم يعد لهن شأن ، وان وقتهن راح واندثر ، وانهن يعشن عيشة تكاد تكون عيشة الكفاف لقلة دخلهن ، وانهن يقمن على خدمة أنفسهن، إلا أنه ماتزال لديهن شىء لاأستطيع فهمه ولو أستطيع ، وهو هذا الشعور بالتفوق والسمو . اننى أتساوى معهن ، بل أننى أفوقهن فى بعض النواحى . ومع ذلك فلا أكاد أجد نفسى فى حضرتهن حتى أرى أنى لاأساوى شيئا على الاطلاق .

ثم ضحك فجأة وقال :

- لاتراع .. أننى أخذت أهذى .

ونظر عبر النافذة ثم عاد يقول :

- ذلك القصر العتيق ، وهاته السيدات الثلاث ، وتلك الفتاة الجافة المغرورة التى

تحسب نفسها أميرة من الأميرات .. أميرة .. ها .. ان هى إلا فتاة من لحم ودم كغيرها من الفتيات .. ماذا تحسب نفسها ؟

ودخل كارسليك وتيريزا فى هذه اللحظة ، وبعد قليل استأذن هو وجابرييل فى الانصراف . وقالت تيريزا :

- أشعر بالضيق لانه اضطر إلى الانصراف .. كنت أود أن أتحدث معه .

- ستواتينا الفرصة لرؤيته كثيرا فيما بعد لاريب . نظرت تيريزا إلىّ وقالت :

- أرى أنه يثير اهتمامك . هذه أول مرة أراك تهتم فيها بأحد منذ أن قدمنا هنا .

- أظن أننى أميل إلى السياسة أكثر مما كنت أعتقد .

قالت :

- أوه .. ليس اهتمامك منصبا على السياسة ، وإنما على الرجل نفسه .

اعترفت بأن جابرييل لايفتقر إلى الحيوية وقلت :

- مما يؤسف له أنه دميم .

- انه ليس وسيما طبعا ، ولكنه جذاب .

نظرت إليها مصعوقا فقالت :

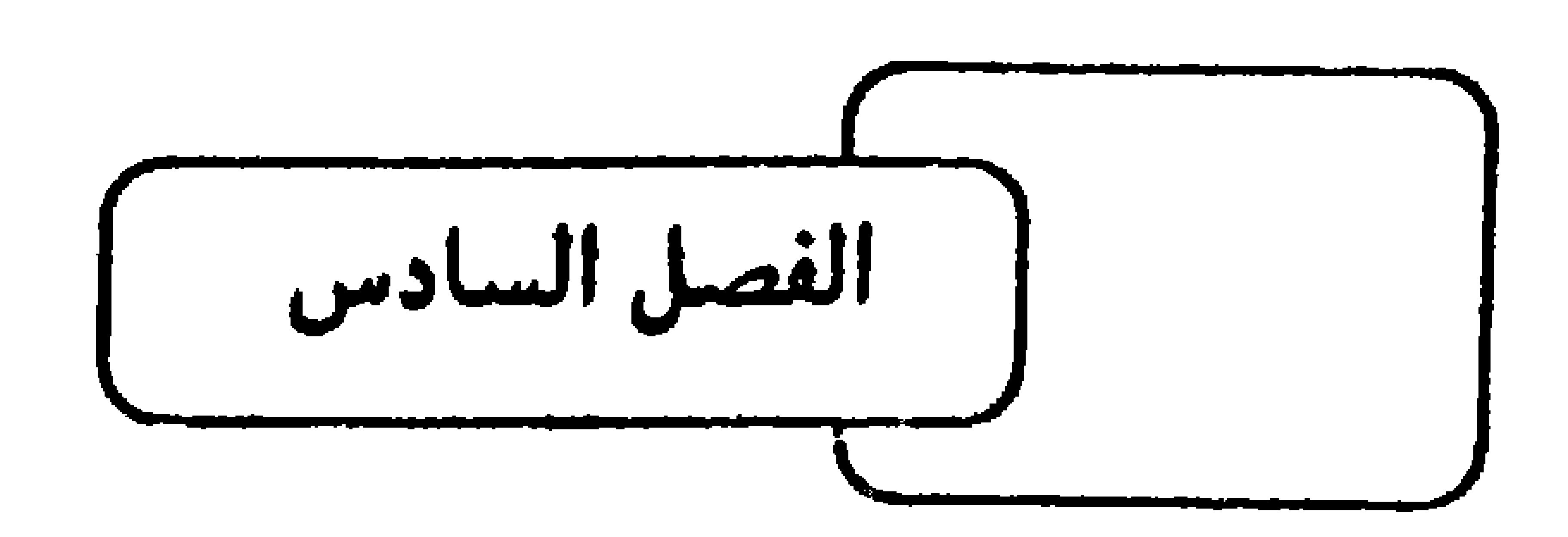
- لاتنظر إلىّ هكذا .. انه جذاب ، واية امرأة ستقول لك ذلك .

- انك تثيرين دهشتى ياتيريزا . لم أكن أظن أبدا أنه من ذلك النوع الذى يستأثر باهتمام النساء .

قالت :

- أنك تسىء فهمى .

* * *



الفصل السادس

وفى اليوم التالى جاءت ايزابيللا برسالة من الليدى سنت لو للكابتن كارسليك ، وكنت مستلقيا فى الشرفة أعرض جسدى لأشعة الشمس . وعندما فرغت من مهمتها عادت ومشت بطول الحاجز ، ثم أقبلت وجلست بجوارى على مقعد من الحجر المنحوت.

ولو انها كانت الليدى تريسليان لرأيت فى عملها هذا لمسة عطف واشفاق ، ولكن ايزابيللا لم يبد عليها انها تعطف علىّ أو تشفق بى أبدا . ولزمت الصمت مدة طويلة ثم قالت أنها تحب الشمس .

- وأنا أيضا ، ولكنك لست سمراء .

- أن أشعة الشمس لاتؤثر فىّ اطلاقا .

كانت بشرتها بيضاء رائعة تحت ضوء الشمس . وقسماتها متناسقة ورأسها عالية فى ترفع وكبرياء عادين وفهمت لماذا تكلم عنها جابرييل ونعتها بأنها أميرة . وقلت أسألها :

- لقد تناول الميجور جابرييل العشاء لديكم أمس ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- هل حضرت اجتماع قاعة دريك ؟

- نعم .

- ولكننى لم أرك .

- كنت جالسة فى الصف الثانى .

- هل أثار أهتمامك ؟

فكرت لحظة ثم أجابت :

- كلا .

- لماذا ذهبت إذن ؟

فكرت مرة أخرى ثم قالت :

- لان هذا يدخل فى نطاق المهام التى يجب أن أقوم بها .

قلت وقد تملكنى الفضول :

- هل تحبين حياتك هذه .. ؟ هل أنت سعيدة .. ؟

- نعم .

ثمة شيء أثار دهشتى فجأة وهو ردودها المبتورة المقتضبة ، فأن أغلب الناس يتبسطون ويسهبون فى الرد .. شخص غيرها كان يقول مثلا : لأننى أحب شاطىء البحر ، أو لأن بيتى هنا ، أو لأن الريف يطيب لى ، أو لأن الحياة مثيرة هنا . ولكن تلك الفتاة كانت تكتفى بالرد قائلة نعم فحسب ، وكانت هذه الكلمة تكتسب فى شفتيها شيئا معينا واضحا ثابتا بالرضاء والقبول للأمر الواقع ، تحولت عيناها إلى القصر ، فى حين ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة .

وعرفت عندئذ بمن تذكرنى .. بعذارى الاكروبول اللاتى كن يعشن منذ ستمائة سنة قبل الميلاد واللاتى ورثت عنهن ابتسامتهن الحلوة القاسية .

وكانت ايزابيللا كارتريس بعيدة بحياتها فى قصر سنت لو مع السيدات الثلاث ، وكانت تجلس بجوارى ، تحت أشعة الشمس تنظر إلى قصرها ، وهى فى منتهى السعادة ، وقد استطعت أن أنهم هذه السعادة الهادئة الآمنة ، ولكن لم يلبث أن تملكنى احساس بالخوف عليها فسألتها :

- هل كنت سعيدة دائما يا ايزابيللا ؟

ولكنني كنت أعرف الرد مسبقا ، فقد قالت بعد أن فهمت سؤالي جيدا :

- نعم .

- وهل كنت سعيدة في المدرسة الداخلية ؟

- نعم .

والغريب أنني لم أستطع أن أتصور ايزابيللا في المدرسة الداخلية ، فقد كانت تختلف كثيرا عن طالبات المدارس الداخلية .

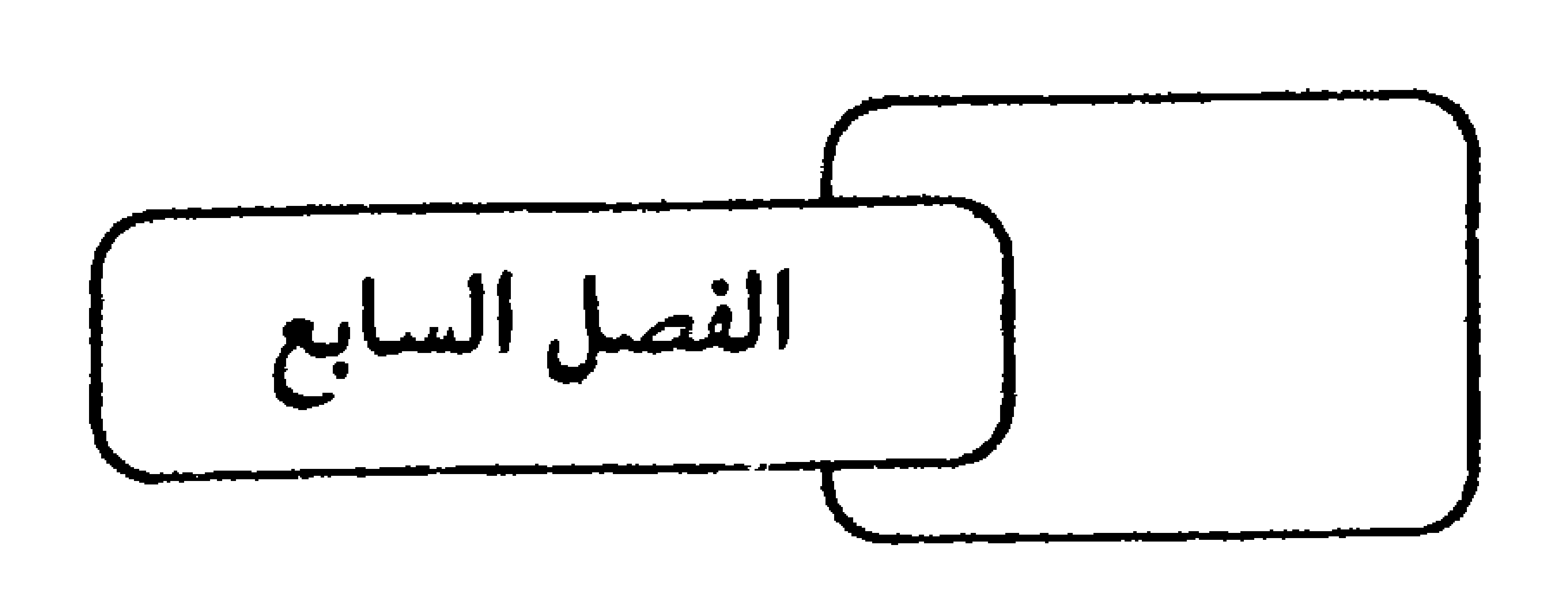
وفي هذه اللحظة جرى سنجاب أبيض فوق الأرض ، ثم جلس وراح يعقعق بضع لحظات قبل أن ينطلق كالسهم فوق قمة شجرة .

بدا لي عندئذ بأن دنيا من السحر قد تحركت وانطبقت على اوليات مختلفة ، فقد رأيت الآن صورة حساسة من الدنيا ، الحياة فيها تجرى خارج كل فكر وكل منطوق .. عالم كل صباح وكل مساء وكل نهار وكل ليل .. عالم الطعام والشراب والدفء والبرد عالم كل صباح وكل مساء وكل نهار وكل ليل ...عالم الحركات والسكنات واليقين .. عالم السنجاب والعشب الذى ينمو من جوف الأرض والشجر الذى يعيش ويتنفس .. في هذا العالم كانت ايزابيللا في مكانها الحق ، والغريب أنني أنا نفسي ، الحطام البشري ، كنت أجد مكاني أنا أيضا .

ولأول مرة منذ أن وقعت تلك الحادثة لي نسيت أن أتمرد . زالت المرارة وزال الاحساس بالحرمان والمرض . ولم أعد هوج نوريس ، ذلك الحطام المهم الذى انتزع من مصيره الرجولي لكي يصبح عاجزا مشبعا بالشمس يحس بنبض الطبيعة السريعة وينعم نفسه بالذات .

على أن هذا الاحساس لم يدم طويلا ، وإنما بقى لحظة خاطفة رأيت فيها ذلك العالم الذى أنتمي إليه ، وارتبت في أنه هو نفس العالم الذى تنتمي ايزابيللا إليه .

***



الفصل السابع

يخيل لى أن الطفلة الصغيرة وقعت فى حوض سنت لو بعد ذلك بيوم أو بيومين .. فقد كان بعض الصبية يلعبون فوق الحافة القصوى للرصيف ، وراحت الطفلة تجرى وهى تصرخ ، وتملكها الحماس ، وتعثرت فجأة وهوت إلى البحر .

وكان الميجور جابرييل يمر صدفة فوق الرصيف فى هذه اللحظة ، فلم يتردد وألقى بنفسه خلف الطفلة . وتجمع نحو ثلاثين شخصا ، وفك أحد الصيادين قاربه وأسرع نحوهما ، ولكن قبل أن يصل إلى مكانهما كان رجل آخر قد ألقى بنفسه فى الماء بدوره، وقد أدرك فجأة أن الميجور لايعرف السباحة .

وانتهى كل شىء على مايرام ، وتم انتشال الميجور والطفلة . وكانت الطفلة مغمى عليها ، ولكنها استردت وعيها بفضل التنفس الصناعى . وأسرعت أمها وهى تكاد تجن ، فألقت بنفسها بين ذراعى جابرييل ، وهى تنتحب معبرة له عن شكرها وامتنانها وطيب جابرييل خاطرها ، وربت على كتفها فى رفق ، ثم أسرع إلى فندقه ليستبدل ثيابه المبتلة بأخرى جافة .

وفيما بعد ، وفى نفس اليوم جاء به الكابتن كارسليك لتناول الشاى . وقال يخاطب تيريزا :

- لم أر أبدا رجلا فى مثل جرأته . لم يتردد لحظة واحدة . وكان من المحتمل أن يغرق بكل سهولة ، وأنها لمعجزة حقا إذ كان لايزال على قيد الحياة .

ولكن جابرييل أبدى تواضعا وتحفظا كبيرين فقال :

- بل كان ذلك غباء كبيرا منى . كان من الأوفق أن استنجد بأحد أو أن استقل زورقا ، ولكن المرء فى مثل هذه الحالات لايسعفه الوقت للتفكير .

وقالت تيريزا :

- ستتمادى ذات يوم أكثر من اللازم ..

قالت هذا بلهجة جعلت جابرييل ينظر إليها فى حدة . وعندما انصرفت بصينية الشاى بعد قليل ، وبعد أن انصرف كارسليك لبعض شأنه قال جابرييل فى تفكير :

- انها ذكية جدا .

- من تعنى ؟

- مدام دوريز ... لا يمكن ان يستغفلها أحد أبدا . ثم أردف قائلا أنه سيكون على حذر منها منذ اليوم ، وأراد أن يعرف اذا كانت أسهمه قد ارتفعت ، واذ سألته ماذا يعنى قال :

- اننى أتحدث عن موقفى . أظن اننى وفقت بتقليلى من شأن المغامرة التى أقدمت عليها ، وبايعازى باننى تصرفت تصرفا أحمق .

وأردف يقول وعلى شفتية ابتسامة : - الاأظنك تشعر بضيق من سؤالى هذا ، فانه ليتعذر على جدا أن أعرف اذا كنت قد تصرفت التصرف الطبيعى ؟

قال لى بعد التروى بأن هذا لن يؤدى الى شئ وأردف :

- ما كنت لاستطيع القدوم هنا وأنا أدعك يدى فى ارتياح وأقول ان الله هو الذى يدبر الأمور .

- أى عزيزى . اننى منذ اليوم الذى أتيت فيه هنا وأنا دائم البحث عما يمكن أن يقع من مثل هذه الأمور ... انك تفهم ما أعنيه طبعا ... الجياد الجامحة والحرائق والطفل الذى يمكن أن أنتزعه من بين عجلات سيارات النقل ، فليس هناك أسهل من هذا لاستدرار الدموع . وقد كنت أنتظر مثل هذه الفرصة بكل ما فى حركة المرور من

ضغط ، ولكن لم يحدث شئ من ذلك أبدا ، ولعل هذا يرجع الى سوء حظى أو الى أن أطفال سنت لو أكثر حذرا من غيرهم .

ولكن لا أظن انك أعطيت هذه الطفلة شلنا لكى تلقى نفسها فى البحر ؟

أخذ جابرييل ملاحظتى مأخذ الجد ، وأجابنى بالنفى ، وقال ان كل ما وقع كان عاديا وأردف :

- ومهما يكن فما كنت لأقدم على مثل هذه الحماقة لكى تذهب الطفلة الى أمها بعد ذلك وتروى لها ما حدث ، ولعلك ترى ماذا ستكون النتيجة عندئذ .

رحت أقهقه وقلت :

- أصدقنى القول .... الا تعرف العوم حقا ؟

- أستطيع أن أطفو فوق سطح البحر بضع لحظات لاأكثر .

- ولكنك كنت تجازف مجازفة خطيرة ان لم تكن قاتلة .

- طبعا . كنت أجازف بحياتى .ولكن يجب أن تعرف لمن تجازف بحياتك وكيف، وكما تعلم " يفوز باللذات كل مجازف " . ولا يمكن أن تربح ورقة البطولة اذا لم تكن جديرا بأقل ذرة من البسالة ، ومهما يكن فقد كان أناس كثيرون حولى ، ولكن لم يكن هناك منهم من يريد أن يبتل ، ولكن لابد أن أفعل شيئا ، ان لم يكن فى سبيل الطفلة، ففى سبيلى أنا بالذات وقد أهتم الرجل الذى ألقى بنفسه فى الماء بعدى بالطفلة فى حين انتشلنى صاحب الزورق وأنا أغرق ، ثم ان التنفس الصناعى كفيل بأن يرد اليك الحياة ، حتى ولو كنت قد أشرفت على الغرق .

وأردف يقول وقد تألقت على وجهه ابتسامة خفيفة : - وكل هذا سخيف طبعا . أعنى ان الناس مغفلون ، وان أعجابهم بى سيزداد أكثر حين يعرفون اننى حاولت انقاذ طفلة من الغرق على الرغم من اننى لا أعرف السباحة ، عما كان يمكن أن يكون لو اننى حاولت انقاذها وأنا أجيد السباحة . سيقول الجميع الآن انه ليس هناك من هو

أشجع منى ، فى حين أن المعقول ان يقول الجميع اننى أغبى الأغبياء .. أما الرجل الذى ألقى بنفسه فى الماء بعدى ، فسيكون حديثهم عنه أقل مع أنه هو المنقذ الحقيقى ومع ذلك فهو يجيد السباحة ، وقد تلفت ثيابه ، ثم اننى رحت أتخبط أنا والطفلة ولم نسهل له الأمور . ولكن الناس لن يروا الحادث من هذه الزاوية وما لم يكن هؤلاء الناس من نوع زوجة أخيك ، ولكننا نحسب لهم كل الحساب .وأردف يقول :

- ثم ان هذا أفضل . ان ما يحب أن نخشاه وقت الانتخابات هم القوم الذين يتقصون كل شئ ويتحرون عن الأسباب .

- ألم تشعر بأى قلق فى اللحظة التى ألقيت نفسك فيها فى الماء .أو أى خوف ؟

- لم يسعفنى الوقت لذلك . كنت مسرورا جدا لأننى وجدت فرصتى أخيرا .

- لا أستطيع ان أفهم أبدا لماذا تعتبر مثل هذه المناورة ضرورية .

تغيرت تعبيرات وجهه وقال فى صرامة وحدة :

- ألم تفهم اننى وجدت فى هذا الحادث عنصرا هاما ... اننى لا أتمتع بأية هيبة ولا بأى اعتبار ، ولست خطيبا مفوها ، وليست لى أية خلفية ، ولا أملك ثروة وليس لى من متاع فى الدنيا غير الشجاعة . وما أظنك تعتقد أنه كان باستطاعتى ترشيح نفسى هنا لو لم أملك الأوسمة التى نلتها عن جدارة .

- ولكن أليس فى هذه الأوسمة بالذات الكفاية .

- انك لا تفهم الطبيعة البشرية يا نوريز . ان مغامرة حمقاء كمغامرة هذا الصباح لها ثقل أهم من وسام الصليب الذى اكتسبته فى ايطاليا الشمالية فلم يرنى أحد من أهالى البلدة وأنا أقوم بالعمل الذى نلته من أجله ، ثم اننى لا أستطيع أن أروى لهم كيف حصلت عليه . أما مغامرة اليوم فستجعلنى فى نظر الجميع بطلا لانهم رأونى وأنا ألقى بنفسى فى البحر خلف الطفلة ، باركها الله ... سأشترى لها اليوم دمية أو لعبة ... وفى هذه الحركة دعاية طيبة أيضا .

قلت :

– سؤال أخير يدفعنى اليه الفضول لا أكثر ... أكنت تلقى بنفسك فى الماء لو لم يكن هناك أى شاهد ؟

– وما الذى كنت أستفيده من ذلك ؟ ... كان من الممكن أن نغرق معا دون أن يلحظ أحد ما حدث .

– بمعنى آخر كنت تتابع طريقك فى هدوء تاركا الطفلة تغرق .

– كلا طبعا . من تحسبنى ؟ ... اننى لست وحشا . انما كنت أسرع الى السلم واستقل قاربا وأجدف كالمجنون حتى المكان الذى رأيتها تقع فيه وأحاول انتشالها . وكنت أستطيع ذلك بقليل من الحظ وأعود بها . وبمعنى آخر كنت أمنحها أحسن فرصة للنجاة فاننى أحب الأطفال .

وسألنى بعد ذلك :

– هل تظن أن الغرفة التجارية ترضى أن تمنحنى كوبونا اضافيا لكى أحصل على ثياب جديدة ؟ ... ان ثيابى تلفت وأخشى أننى لن أستطيع ارتداءها بعد ذلك لأنها انكمشت كثيرا ... ولكن هؤلاء الوزراء بخلاء جدا .

وفارقنى على أثر هذه العبارة المادية .

فكرت كثيرا فى أمر جابرييل هذا ، ولم استطع أن أقرر هل أحبه أم لا ، فان حرصه على انتهاز الفرص حملنى على النفور منه ، ولكننى شعرت بالميل اليه لصراحته، وقد صحت توقعاته فيما يتعلق برد الفعل لدى الرأى العام .

وكانت الليدى تريسليان أول من اتحفتنى برأيها الخاص فقد جاءتنى ببعض الكتب وقالت لى بأنفاس متقطعة :

– طالما قلت ان الميجور جابرييل هذا رجل ظريف خفيف الروح . وقد أثبتت الأحداث ذلك . فما رأيك ؟

قلت :

- وكيف ذلك ؟

- انه رجل جسور لا يعرف الخطر ، وقد ألقى بنفسه فى البحر مع أنه لا يعرف السباحة .

- ما كان ذلك لينفع فى شئ . أعنى أنه لم يكن يستطيع انقاذ الطفلة بمفرده .

- طبعا . ولكنه لم يضع الوقت فى التفكير . ان ما يعجبنى فيه هو هذا الاندفاع النبيل والاقدام فى المواقف الحرجة ، دون ان يحسب أى حساب للعواقب .

كان فى مقدورى أن أقول لها أن المغامرة كلها قامت اساسا على حسابه للعواقب ، ولكنها سبقتنى فقالت وقد اصطبغ وجهها كما لو كانت لا تزال فتاة فى مقتبل العمر :

- ان الرجال البواسل يروقون لى .

وقالت مسز كارسليك ، وهى مخلوقة ماكرة خبيثة تميل الى اظهار عواطفها ، ولم أكن أستطيع احتمالها :

- ما كنت أتوقع أبدا مثل هذا الإقدام ، وعلى الرغم من اننى سمعت أنه أبدى شجاعة كبيرة أثناء الحرب . قيل لى أنه لم يعرف ما هو الخوف أبدا ، وكان رجاله يعبدونه عبادة .

ولكن هذا العمل الذى أقدم عليه يتجاوز كل الحدود . سيأتى رئيسه الكولونل يوم الخميس المقبل ، وسأعلمه على أن يقول خطابا فى صالحه . سيغضب الميجور جابرييل طبعا اذا عرف نواياى هذه ، فهو رجل متواضع جدا .

- انه أفلح فى ان يعطيك هذا الانطباع حقا .

ولكنها لم تلحظ ما فى قولى هذا من غموض ، واستطردت :

- من رأيى أن قدر هؤلاء الشبان البواسل لا يجب أن يبقى مكتوما . يجب أن يعرف الجميع الأعمال الباهرة التى يقومون بها ، ولكن الرجال مترددون ومتحفظون .

وأرى من واجب النساء ان ينشرن أمجادهم . ان وسبراهام عضو البرلمان الحالى لم يبرح مكتبه طوال فترة الحرب .

ولعل الكابتن كارسليك كان يوافق زوجته على آرائها ، ولكننى لم أكن أميل الى تلك المرأة ، ففى فورة حماستها كانت عيناها السوداوان الصغيرتان تحتفظان بنظرتهما الخبيثة المقدرة للعواقب .

وجاءت مسز بيجهام بعد ذلك ، وأفصحت لى عن آرائها الخاصة عن حادثة الميناء فقالت :

– لابد ان جابرييل من أصل نبيل .

– هل تعتقدين ذلك ؟ ... ان أباه سمكرى . ازدردت مسز بيجهام الأهانة من غير ان تطرف وقالت :

– كنت أشك فى هذا قليلا . ولكن اذا بحثنا بين أجداده فأننى واثقة أننا سنجد شخصا كريما جدا .

واستطردت بعد لحظة :

– لابد ان تتكرر زياراته للقصر . سأتحدث مع أدلايد فى ذلك ، فانها باردة فى معاملاتها أحيانا ، وبرودها يجمد الناس دائما ، ولم أشعر أبدا أن الميجور أحس بالارتياح فى قصرنا . مهما يكن من أمر فاننى متفاهمة معه جيدا .

– يبدو لى أنه اكتسب شعبية كبيرة فى البلد ؟ .

– نعم .. انه يحسن التصرف ، وقد أصبنا فى اختياره . كان الحزب بحاجة الى دم جديد ... بحاجة قصوى اليه .

وبعد سكتة قصيرة :

من الجائز أن يكون " رزرائيلى " جديد .

– هل تعتقدين أنه سيذهب بعيدا ؟

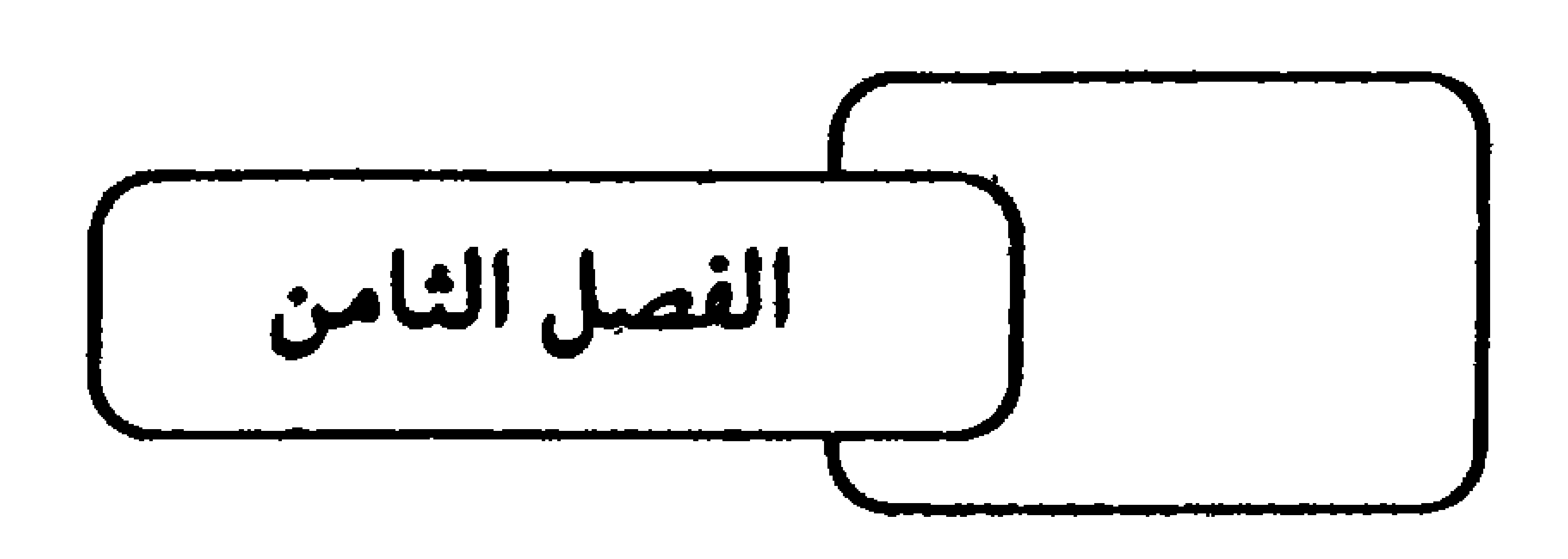
- هذا جائز ، بما يتمتع به من حيوية ونشاط .

وعرفت رأى الليدى سنت لو فيما بعد . وقد نقلته لى تيريزا بعد عودتها من القصر ، فقد صاحت وهى تردد البصر حولها فى قاعة القصر :

- هل فعل هذا ؟

وفهمت عندئذ لماذا وصفها جون جابرييل بالساحرة العجوز .

***



الفصل الثامن

ظل الجو جميلا صافيا وكنت أقضى أغلب أوقاتى فى عربتى ، وفى الشرفة ، تحت أشعة الشمس . وكانت هناك أحواض زهور تحيط بالشرفة ، وفى نهايتها شجرة ضخمة وكنت أستطيع أن أرى ، وأنا فى مكانى ، فيما عبر البحار شرفات قصر سنت لو كما كنت أستطيع أن أرى كذلك ايزابيللا وهى تجتاز المراعى فى طريقها الى بيتنا .

وكانت قد أعتادت المجئ هكذا كل يوم تقريبا . وكانت تأتى أحيانا وبرفقتها كلابها وأحيانا من غيرها . وكانت تبتسم عندما تقترب منى وتحيينى ، ثم تجلس بجوار عربتى ، فوق المقعد الحجرى المنحوت .

وكانت صداقتنا هذه عجيبة حقا . ولكن يجب أن يتقبل المرء الصداقة كيفما تأتى. لم يكن مبعثها الاشفاق نحو المريض العاجز أو العطف عليه . كان شيئا أفضل من ذلك بكثير فى نظرى . كان ذلك لانها تحبنى ، ولأنها كانت تحبنى حقا كانت تأتى وتجلس فى الحديقة بجوارى . كانت تفعل ذلك بحركة طبيعية مجردة من كل زيف أو تصنع .

وعندما كنا نتحدث ، كنا نتحدث عن الأشياء التى نراها حولنا .. شكل سحابة أو ضوء القمر أو حركات وسكنات عصفور .

وقد كشف لنا عصفور عن ناحية أخرى من طبيعة ايزابيللا . كان عصفورا ميتا تحطمت رأسه على لوح زجاج إحدى نوافذ الصالون ، ووقع على الأرض فى أسفل النافذة ، وقد انتصبت قائمتاه المتخشبتان فى الهواء وأطبق عينيه .

وكانت ايزابيللا أول من اكتشفته ، وقالت بصوت يتهدج من الخوف :

- انظر .. عصفور ميت .

نظرت إليها وقد هالنى صوتها . وكانت متوترة الشفتين ترتعد كالجواد مذعورة فقلت لها :

- ناولينى اياه .

- لاأريد أن أمسسه .

سألتها :

- ألا تحبين العصافير ؟ (وكنت قد لاحظت هذا النفور عند كثيرين غيرها) .

- لاأستطيع أن ألمس شيئا ميتا .

نظرت إليها مرتاعا فقالت :

- أننى أخاف الموت .. أخاف منه كل الخوف . لاأستطيع احتمال مجرد فكرة الموت وأظن أن مرجع ذلك أننى أفكر فى أننى سأموت ذات يوم .

- بل سيحدث لنا جميعا ذات يوم .

وبينما كنت أقول ذلك كنت أفكر في شيء أخفيه تحت متناول يدى بالذات .

وقالت :

- أو لا يهمك هذا .. ؟ ألا تشعر بأى خوف وأنت تعرف أنه شيء محتوم ينتظرك وتقترب أنت منه بدون انقطاع ، وأنك ذات يوم (وضربت بيديها الطويلتين الرقيقتين على صدرها) .. ذات يوم ستحدث .

- يالك من فتاة غريبة الاطوار ياايزابيللا . ماكنت أتوقع ذلك منك أبدا .

قالت فى مرارة :

- من حسن حظى أننى فتاة ولست فتى ، أليس كذلك ؟ كان لابد لى أن أذهب إلى الميدان ، وكنت سأجر عليكم العار .. كنت سأسارع بالفرار ، وأقدم على عمل وعادت تقول فى هدوء وفى تفكير :

- نعم . انه لفظيع أن أكون جبانة إلى هذا الحد .

وضحكت دون اقتناع كبير وقلت :

- ماكنت لتكونين جبانة فى اللحظة الحاسمة ، فان أكثر الناس يخافون من الخوف نفسه .

- هل شعرت بالخوف ؟

- ياالهى .. نعم ..

- ولكن هل كنت تحتمله ساعة الخطر ؟

أجبرت ذهنى على العودة إلى الوراء .. إلى لحظة معينة ، وأنا أنتظر فى الظلام صدور الأمر بالهجوم وذلك الغثيان فى معدتى .

وقلت فى اخلاص :

- كلا . لاأستطيع القول بأننى كنت أحتمله . ولكننى اهتديت إلى طريقة للتغلب عليه ، على الأقل . كما يتغلب عليه غيرى .. أحاول أن أقنع نفسى بأن الرصاصة التى ستنطلق لن تصيبنى ، وأنها قد تصيب جارى .

- هل تظن أن الميجور جابرييل كان يفكر هكذا ؟

وكنت مخلصا نحو جابرييل فقلت :

- يخامرنى احساس بأن جابرييل من هؤلاء القوم النادرين المحظوظين الذين لايعرفون الخوف .

قالت :

- نعم هذا ماخطر لى .

وسألتها إذا كان الموت يخيفها دائما ، وإذا كان قد حدث شىء ماتسبب لها فى هذا الخوف ، فهوت رأسها وقالت :

- لاأظن .. ولكن قتل أبى قبل أن أولد ، ولعل هذا هو السبب .

قلت :

- هذا جائز .. ويحتمل أنه يبرر كل شيء .

قطبت ايزابيللا حاجبيها ، وبدا كأنها تنظر إلى الخلف وقالت :

- عندما كنت فى الخامسة من عمرى تقريبا مات عصفور كناريا كنت احتفظ به ، كان فى صحة جيدة فى اليوم السابق ، ولكننى رأيته فى ذلك اليوم فى قاع القفص ، كانت قائمتاه الصغيرتان مرتفعتين فى الهواء كعصفور اليوم . وأمسكته فى يدى وارتجفت) وكان باردا (واختنق صوتها) لم .. لم يكن حقيقة .. كان قد أصبح ميتا .. لم يستطع أن يرى أو أن يسمع أو أن يحس .. لم يعد موجودا .

وأردفت تقول بلهجة حزينة مؤثرة :

- ألا يبدو ذلك فظيعا .. ان نضطر أن نموت ذات يوم .

ولاأدرى ماذا كان يجب أن أقول ، ولكن أفلتت شفتاى بما يجول فى خاطرى حقا أننى قلت :

- أقول لنفسى فى بعض الأحيان أنه الشيء الوحيد الذى يمكن أن نرجوه .

نظرت إلىّ مستفهمة وقالت غير فاهمة :

- ماذا تعنى ؟

- هل تسألينني ؟ .. انظرى إلىّ ياايزابيللا .. ماقيمة الحياة بالنسبة لى أنا ؟ .. أننى عاجز عن الحركة لاأستطيع أن أغتسل ، أو أن ألبس ثيابى بمفردى . ماأنا إلا هيكل محطم بائس لافائدة منه ، يمضون بى إلى الشمس .. لاأستطيع أن يفعل شيئا أو أن يتمنى شيئا أو أن يرجو شيئا .. لو أننى كنت كرسيا محطما أو منضدة لم يعد لها نفع لألقوا بى فى المخزن ولكن لأننى بشر فهم يعاملوننى كبشر ، ويضعون فوقى غطاء لأخفاء ماهو أسوأ ، ويمضون بى إلى الخارج لكى أستطيع أن أتنفس الهواء بطريقة أفضل .

اتسعت عينا ايزابيللا وهى تصغى إلىّ ، وقد امتلأتا دهشة وتساؤلا ، وبدا كأنهما ينظران إلىّ مباشرة لأول مرة ، ويركزان اهتمامهما فىّ ، ولكنهما على الرغم من ذلك لم يريا ولم يفهما شيئا فيما عدا واقعا ماديا .

- ولكنك تحت الشمس على كل حال .. على قيد الحياة .. كان يمكن أن تلقى مصرعك ..

- ليت ذلك قد وقع .

نظرت إلىّ غير فاهمة ، كما لو كنت أتحدث معها بلغة أجنبية ، وسألتنى فى شىء من الحياء :

- هل تتألم كثيرا ؟ .. طوال الوقت .. بسبب هذا ؟

- يحدث أننى أتألم كثيرا فى بعض الأحيان ، ولكن ليس هذا هو السبب ياايزابيللا . ألا تفهميننى أنه لم يعد لدى أى سبب يحملنى على التشبث بالحياة ؟

- ولكن قد أبدو لك غبية .. هل لابد من سبب لكى يتشبث الانسان بالحياة ؟ .. ألا يمكن أن يعيش من غير سبب .. هكذا بكل بساطة ؟

كان سؤالا بريئا قطع أنفاسى .. وفيما أنا أتلفت ، أو بوجه أصح ، بينما كنت أحاول أن أدير عربتى أتيت بحركة خرقاء ، فوقعت القنينة الصغيرة التى تحمل بطاقة عليها كلمة " اسبيرين " من المكان الذى أخفيها فيه . وانفتح الغطاء حين وقعت وتناثرت الأقراص التى فيها فوق العشب .

وكتمت صيحة كادت تفلت من بين شفتى ، وقلت أتوسل فى هستيرية :

- لاأريد أن أفقدها .. اجمعيها واعيديها إلىّ .

وانحنت ايزابيللا وراحت تجمع الأقراص فى عناية كبيرة . وحولت رأسى فرأيت تيريزا ، وكانت قادمة إلينا من النافذة الكبيرة فقلت وأنا أشهق :

- هاهى تيريزا .

وماكانت اشد دهشتى عندئذ وأنا أرى ايزابيللا تفك الايشارب الذى تلفه حول

عنقها بحركة سريعة ، وتسقطه فوق العشب ، بحيث اختفت الأقراص تحته ، وتقول فى نفس الوقت بلهجة طبيعية كما لو كانت تستمر فى حديث عادى :

- ولعلك تفهم ان كل شىء سيختلف فى اليوم الذى يعود فيه روبيرت إلى القصر..

وكان يبدو حقا أننا لم ننقطع عن الحديث . ودنت تيريزا منا وقالت :

- مارأيكما فى مشروب بارد منعش ؟

وأبديت موافقتى على الفور . وفيما كانت تيريزا تستدير لكى تعود إلى البيت أتت بحركة لكى تنحنى وتلتقط الايشارب ولكن ايزابيللا قالت فى هدوء :

- أوه ، دعيه مكانه يامسز نوريس .. ان هذه الالوان جميلة فوق العشب .

ابتسمت تيريزا وعادت إلى البيت ، وتركتنى مشدوها أمام ايزابيللا ، وقلت :

- لماذا فعلت ذلك أيتها الطفلة العزيزة ؟

نظرت إلىّ فى حياء وقالت :

- خطر لى أنك لاتريدها أن تراها .

أجبت فى صوت أجش :

- أصبت .

وكنت قد اتخذت قرارا فى بداية نقاهتى وقد تبدى لى شقائى وعجزى التام ، ورأيت المستقبل قاتما بالنسبة لى ، وعملت على ان تكون تحت يدى وسيلة للخلاص بأى ثمن .

ولم أستطع أى شىء طوال الفترة التى راحوا يعالجوننى فيها بمورفين على هيئة حقن ولكن جاءت فترة استبدلوا فيها حقن المورفين بأقراص من السلفونال والجردينال . وكان النوم يجانبنى ، وأظل مسهدا أغلب الأوقات ، ورأى الاطباء ان استعين على النوم بتلك الأقراص ، فأمروا بأعطائى قرصين كل ليلة . وكنت أغالب نفسى أكثر الأوقات ، وأتظاهر بأننى تناولت هذه الأقراص وأضعها جانبا من وقت لآخر ، وبهذا

تجمع لى منها عدد لابأس به ، احتفظت به حتى إذا واتتنى لحظة من لحظات التشاؤم التى لاأستطيع منها فكاكا تناولتها للخلاص مما أنا فيه .

ومرت بى لحظات فظيعة رأيت فيها خطتي هذه تبوء بالفشل ،فقد وقعت الأقراص، وخشيت أن تراها تيريزا فتفطن الى ما يجول فى خاطرى فتصادرها ، ولا يسعنى أن أفعل شيئا . ولكن سرعة بديهة ايزابيللا وفرت على هذه الكارثة واعادت الأقراص الى القنينة وناولتها لى ، فأعدتها مكانها وأنا أتنهد فى ارتياح وقلت فى انفعال :

- أشكرك يا ايزابيللا .

لم تبد أية دهشة أو أى قلق . واكتفت بأن لحظت ما اعترانى من اضطراب ، وخفت لنجدتى ، والتمست لها عذرا بينى وبين نفسى لاننى ظننت انها ساذجة ، بيد أنها كانت بعيدة عن السذاجة . ولكن ما خطر لها ؟ ... هل صدقت أن الأقراص من أقراص أسبرين حقا ، نظرت اليها . لم أستطع أن استشف شيئا من ملامحها . وبدا لى أن من العسير جدا أن أفهمها ، ولكن لم يلبث أن أستيقظ فىّ فضول عجيب . عندما تذكرت اسما نطقت به فسألتها .

- من هو ريوبيرت ؟

- هو ابن عمى .

- أتعنين اللورد سنت لو ؟

- نعم . قد يعود قريبا ... انه قضى فترة الحرب كلها فى بورما .

واستطردت بعد صمت قصير :

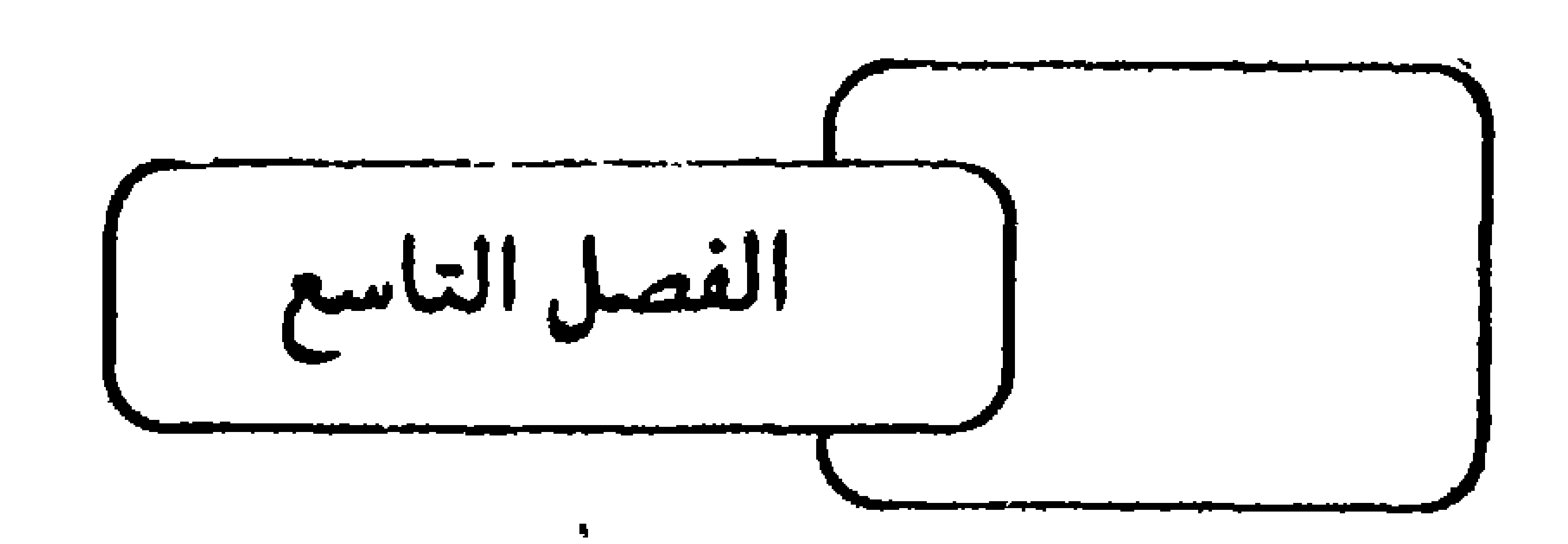
- من المحتمل أن يقيم هنا ، فان القصر ملكه ، وقد استأجرناه منه .

- ولكن لماذا ؟ ... لماذا تحدثت عنه هكذا فجأة ؟

- لكى أقول شيئا ... لكى يبدو اننى استطرد فى الحديث .

وأردفت تقول بعد لحظة تفكير :

- أظن اننى نطقت باسمه لاننى دائمة التفكير فيه .



الفصل التاسع

حتى ذلك اليوم لم يكن اللورد سنت لو بالنسبة لى الا مجرد اسم وكيان .. صاحب القصر الغائب .. ولكنه سيصل الآن ويغدو حقيقة . وبدأت ألقى على نفسى شتى الأسئلة فيما يتعلق به .

وجاءتني الليدى تريسلبان فى أصيل ذلك اليوم بكتاب خطر لها انه قد يستأثر باهتمامى ، وتحدثنا قليلا عن الانتخابات وعن جابرييل ، ومما يبديه من ذكاء فى الرد على أسئلة مستجوبيه ، ثم تشعب بنا الحديث ، وتكلمت عن اللورد سنت لو ، فقالت انها تود لو أن يعجل عودته فسألتها .

- وهل يستطيع العودة ؟

- نعم ، فقد أصيب فى بورما وسرحه الجيش .

وسألتها ان كان فى نيته الاستقرار فى القصر فقالت :

- لا أدرى . انه لم يذكر لنا نواياه . ولكننى أود لو أن يفعل ... انه شاب وسيم ظريف نحبه ، وكان يشعر دائما بالميل نحو ايزابيللا .

لم تكن قد تجاوزت الحادية عشرة من عمرها عندئذ واعتادت ان تتبعه كظله من الصباح الى المساء . كانت تعبده ، وكان يبعث اليها بتهانيه فى أعياد ميلادها .

وفى اليوم التالى قلت أخاطب ايزابيللا عندما جاءت وجلست بجوارى على المقعد الحجرى .

- حدثينى عن روبرت .

- ليس لدى ما أحدثك به عنه .

- ولكنك قلت لى أنك دائمة التفكير فيه .

قالت بعد أن تأملت كلماتى لحظة واستوعبتها :

- ليس الأمر كما تقول ، ولست دائمة التفكير فيه ، ولكنه فى فكرى دائما . وأظن اننى سأتزوجه ذات يوم .

والتفتت نحوى وقد أزعجها صمتى وقالت :

- قد يبدو لك قولى هذا سخيفا ، فانا لم أر ربوبيرت منذ أن كنت فى الحادية عشرة من عمرى وهو فى السادسة عشرة ، وقد قال لى عندئذ انه سيعود ذات يوم لكى يتزوجنى ، وقد صدقته دائما . ومازلت أصدقه .

وجاءت مسز بيجهام كارتريس فى هذه اللحظة ، وفى يدها لفافة صغيرة القتها بجوارى ، وهى ترجونى ان أعطيها للكابتن كارسليك فقلت :

- انه فى مكتبه .

ولكنها أسرعت تقول :

- اننى أعرف ، غير إنى لا أريد أن أدخل .. لا أميل الى لقاء زوجته اليوم بالذات .

وأنا شخصيا لم أكن أميل أبدا الى لقاء مسز كارسليك ، ولكننى فهمت من مسلك مسز بيجهام أن شيئا ما قد حدث .ولحظت ايزابيللا ذلك هى الأخرى فسألتها :

- ما الخبر يا عمتى مود ؟

أجابتها مسز بيجهام فى صوت متهدج .

- لقد صدمت احدى السيارات لوسيندا ،

ولوسيندا هى كلبة مسز كارتريس ، وهذه الأخيرة تعبدها عبادة . واستطردت تقول وهى تنظر الى فى برود حتى لا ابدى أى اشفاق :

- هناك على الرصيف .. كان أحد السياح يسوق سيارته بسرعة جنونية ، ولم

يفكر حتى فى الوقوف . هلمى بنا يا إيزابيللا . يجب أن نعود .

وسألتها ايزابيللا : - وأين هى ؟

- اننى ذهبت بها الى بارت ، وقد ساعدنى الميجور وكان كريما جدا .

ذلك أنه اتفق أن كان جابرييل مارا بينما كانت لوسيندا تتألم ، ومسز بيجهام جاثية بجوارها ، فجثا هو الآخر ، وتحسس جسد الكلبة بأصابعه الماهرة وقال :

- ان قائمتيها الخلفيتين لا تستجيبان .. هى اصابة داخلية .. يجب أن نذهب بها الى الطبيب البيطرى .

- ان طبيبنا هو الدكتور جونسون ، وهو طبيب بارع ولكنه فى بولوتينى ، وهى تبعد عنا كثيرا .

- ومن هو أحسن طبيب بيطرى فى سنت لو ؟

- جيمس بارت . انه طبيب ممتاز جدا ، ولكنه رجل فظ .. لا أثق فيه أبدا فهو يدمن الشراب ولكنه يقيم على مقربة . يجب أن نحمل لوسيندا اليه .حذار فقد تعضك..

هز جابريل رأسه وقال : - أنها لن تعضنى .

ثم تحول الى الكلبة وقال فى رفق : - لا تخافى أيتها المسكينة .. لا تخافى .

وحملها بين يديه فى رفق ، وكان بيت الدكتور بارت على مقربة ، وهو بيت صغير فوق بابه لافتة صغيرة من النحاس . وفتحت الباب امرأة شابة على قسط وافر من الجمال ، وفى الثانية والعشرين من عمرها ، وعرفت مسز بارت بيجهام كارتريس على الفور وقالت :

- أوه يا سيدتى .. أننى آسفة ، فان زوجى خرج هو ومساعده .

- متى سيعود مستر بارت ؟

- سيعود ما بين لحظة وأخرى . ان موعد العيادة من التاسعة الى العاشرة ، ومن

الثانية الى الثالثة .. ولكننى واثقة انه سيقوم بما يلزم من أجلك . ما الذى حدث لكلبتك .. ؟ هل وقع لها حادث ؟

– صدمتها سيارة الآن فورا .

صاحت ميللى بارت : – هذا أمر يثير الحنق .. ان الناس اليوم يسوقون كالمجانين . فلنذهب الى غرفة العمليات

وكانت تتكلم فى صوت رقيق مصطنع بعض الشئ ووقفت مسز بيجهام بجوار لوسيندا تداعبها ، وقد توترت ملامح وجهها من الحزن ، ولم تستطع أن تولى أى اهتمام لحديث ميللى بارت التى راحت تتكلم كيفما اتفق دون أن تدرى ماذا يجب أن تقول .

ولم تلبث المرأة الشابة أن عرضت أن تتكلم فى التليفون مع مزرعة جرانج فى محاولة للاتصال بزوجها . وكان التليفون فى الردهة فتتبعها جابرييل ، وتركا مسز بيجهام وحدها مع كلبتها ، وقد راحت تئن وتتألم .

وأدارت مسز بارت الرقم ، وعرفت الصوت فى آخر الخط وقالت : – نعم ، أنا مسز بارت يا مسز هوريدن . هل مستر بارت موجود معك ؟ نعم ، اذا سمحت . شكرا لك .

وساد صمت قصير . وكان جابرييل ينظر الى المرأة الشابة فرآها تضطرم فجأة وقد تقوست كتفاها ، وقالت فى صوت مضطرب :

– أسألك الصفو يا جيم .. كلا ، طبعا .

لم يسمع جابرييل حديث بارت ، ولكنه سمع حدة صوته ، وكان صوتا صارما بغيضا . وازداد خضوع ميللى بارت وهى تقول :

– ان مسز بيجهام كارتريس موجودة .. وقع لكلبتها حادث .

– اما كان باستطاعتك أن تذكرى ذلك على الفور أيتها الغبية ؟

وسادت لحظة ارتباك . ورثى جابرييل لمسز بارت الجميلة الرقيقة التى تفزعها قسوة زوجها . وقال فى صراحة :

- انك كريمة اذ تبين كل هذا التفاهم يا مسز بارت .

وابتسم لها فقالت : - أوه .. هذا أمر طبيعى يا ميجور جابرييل . انت الميجور جابرييل طبعا ، أليس كذلك ؟

وبدت شديدة الانفعال لوجوده فى بيتها وأردفت : أننى قرأت خطابك فى المعهد الليلة الماضية ، وأنى لأرجو أن تفوز . بل اننى واثقة من أنك ستفوز فان القوم قد سئموا مستر والبراهام ، انه ليس من هذه المنطقة .

- وأنا أيضا لست من هنا .

- نعم . ولكن أنت شئ آخر .

ونظرت اليه وقد فغرت شفتيها ، وراح جابرييل يتكلم . لم تكن به أية رغبة فى العودة الى غرفة العمليات بجوار تلك المرأة المسنة المجنونة التى لم تعد تتمنى غير شئ واحد وهو البقاء مع كلبتها . وراح يرد على أسئلة ميللى بارت ، واستطاع أن يبعث الضحك الى شفتيها ، فكشفت بذلك عن أسنانها الجميلة ، وعن الغمازة الحلوة التى فى ركن فمها . كانت تكاد تطير من الفرح عندما فتح الباب فى حركة عنيفة ودخل رجل قصير بدين . ودهش جابرييل أكبر الدهشة حين رأى ميللى ترتجف وتتكوم حول نفسها وتقول فى انفعال :

- أوه ، هل أتيت يا جيم ؟

وقالت مقدمة : - الميجور جابرييل .

ألقى جيمس بارت بتحية وجيزة ، فى حين استطردت زوجته : مسز بيجهام لم تجلس هنا .. ؟ انك لا تدركين الشعور العام .

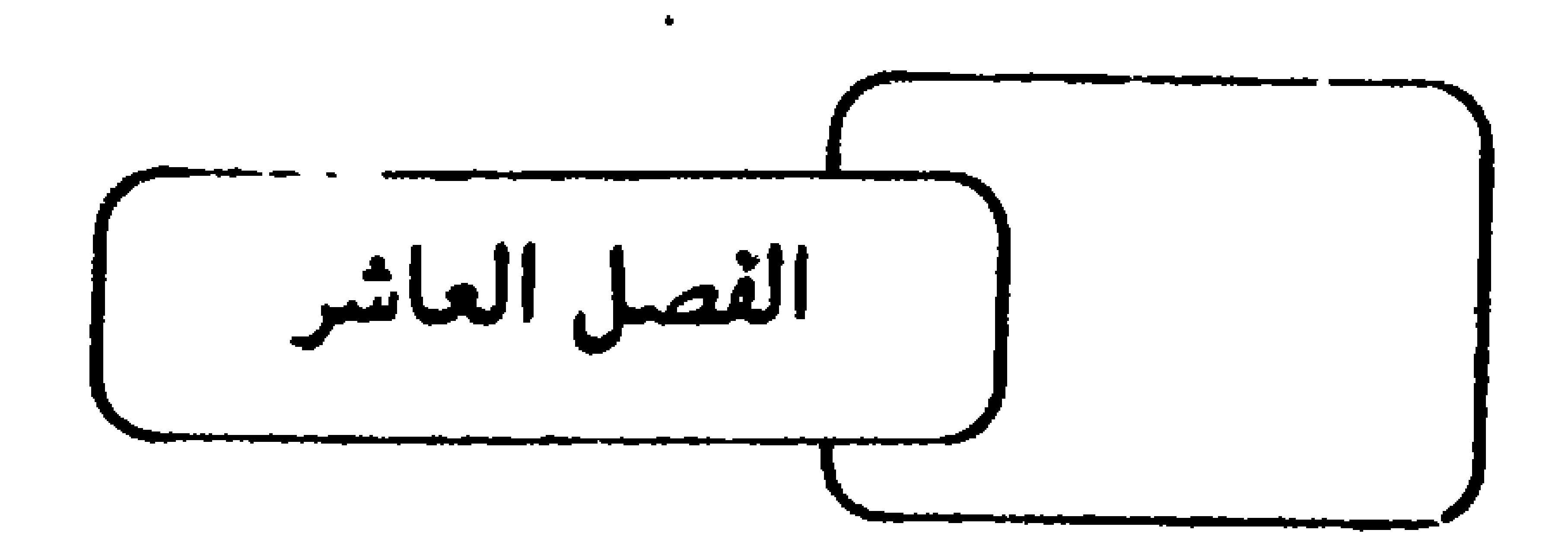
- سأمضى اليها .

- لا داعي لذلك الآن .

ودفعها عن طريقه بكتفه ، ومضى الى غرفة العمليات وطرفت عينا ميللى بارت محاولة اخفاء دموعها ، وسألت الميجور اذا كان يريد كوبا من الشاى .

وقبل الميجور الكوب لأنه رثى لميللى بارت ولأنه اعتبر زوجها وحشا ضاريا ، وهكذا بدأت القصة .

***



الفصل العاشر

بعد ذلك بيوم أو يومين جاءت تيريزا الى غرفتى ومعها مسز بارت وقالت :

- أخو زوجى ، هوج نوريز .. مسز بارت جاءت تقدم لنا معونتها .

كان لكلمة " لنا " هذه معناها .. كانت تعنى حزب المحافظين . ونظرت الى تيريزا مستفهما ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة . وكانت مسز بارت قد غمرتنى بشفقتها النسائية التى تبدت فى عينيها السوداوين الجميلتين . وانهارت قواى دون أن أستطيع أى دفاع أمام تدفق عواطفها . وكانت تيريزا قد خرجت وتركتنا وحدنا .

وقالت مسز بارت : - من رأيى أننا يجب أن نبذل المستحيل من أجل هذا الانتخاب ، وأنا من ناحيتى لا أستطيع أن أفعل الكثير ، فأنا لست ذكية جدا ، وليس في مقدوري كما قلت لمسز نوريز أن أذهب الى الناس وأتحدث معهم ، ولكننى أستطيع أن أقوم بأي عمل كتابى . وقد تكلم الميجور فى تلك الليلة فى المعهد بطريقة رائعة .. انه لرجل حقا .. رجل كان جنديا حقا واشترك فى القتال . وليس معنى هذا أن مستر ولبراهام رجل غير كفء ولكن من رأيى أن الاشتراكيين مجانين الى حد ما ، ومستر ولبراهام ليس أكثر من مدرس ابتدائي يفتقر صوته الى الاقناع ويعطى انطباعا بأنه لا يستطيع شيئا .

وافقتها على رأيها ، وقلت لها أن جابرييل رجل قدير حقا ، فقالت وقد اضطرم وجهها لفرط حماستها :

- سمعت أنه أبدى شجاعة كبيرة أثناء القتال ، وانه كان فى مقدوره أن يحصل على ما يريد من الأوسمة . وقد أقبل برفقة مسز بيجهام يوم أن صدمت السيارة كلبتها

وكانت هذه لمسة كريمة منه . ثم انه كان متأثرا جدا .

وعادت تقول بعد لحظة : - وقد تملكنى الخجل ازاء كسلى فيما يتعلق بالانتخابات وكنت أنوى أن أدلى بصوتى لحزب المحافظين طبعا ولا شئ أكثر من ذلك ولكننى بعد أن رأيت ما يقوم به الميجور جابرييل رأيت أن أخدم الحزب بدورى ، وأن أبذل ما أستطيع ، فليس هناك ما يشغلنى ، وزوجى يقضى جل وقته فى الخارج فيما عدا أوقات العيادة ، ثم أننى لم أنجب أطفالا .

وغشيت عينيها سحابة عابرة .ورثيت لتلك المرأة فقد كانت تزخر بعاطفة الأمومة، ولكنها لم تنجب أولادا تحنو عليهم . ونظرت الى وسألتنى قائلة :

- انك أصبت فى العلمين ، أليس كذلك ؟

- أبدا .. وانما صدمتنى سيارة فى طريق هارو .

بدت عليها الدهشة وقالت : - ولكن الميجور جابرييل يقول ..

- لا يجب أن تصدقى كل ما ينطق به الميجور جابرييل .

وفتح الباب فى هذه اللحظة ، ودخل الكابتن كارسليك وبرفقته جون جابرييل . وما أن وقعت عينا هذا الأخير على ميللى حتى انبسطت أساريره ومضى اليها قائلا :

- مسز بارت .. هذه فرصة طيبة .

أحست ميللى بالسعادة وبالخوف فى وقت واحد ، وقالت : - أوه .. ولكننى أخشى أننى قد لا أستطيع عمل الكثير .. ومع ذلك فأننى أريد أن أفيد ..

- بل انك ستقدمين لنا أكبر العون .

واحتفظ بيدها فى يده ، وابتسم بكل ما فى وجهه من دمامة . ورأيت عندئذ مدى ما يتمتع به ذلك الرجل من سحر وجاذبية . وضحكت ميللى واصطبغ وجهها وقالت :

- سأبذل جهدى . من الأهمية طبعا أن نثبت مدى اخلاصنا لمستر تشرشل .

وددت لو أن أقول لها أن من الأهمية بالنسبة لها أن تثبت مدى اخلاصها لجون جابرييل نفسه . وأسرع هذا الأخير يقول :

- انك تتكلمين من ذهب . ان مصير الحزب يتوقف الآن على النساء .

وخرج الكابتن كارسليك ، واصطحب معه مسز بارت لكى يعهد اليها ببعض الأعمال . وقال جابرييل بعد انصرافهما :

- انها امرأة ظريفة .

- أظن ذلك ، وانها لتقبل الأرض تحت قدميك .

قطب حاجبيه وقال : - ما هذا اقول يا نوريز . أننى أحب مسز بارت كثيرا ، وأرثى لها من سويداء قلبى ، وأشعر بأنها غير سعيدة فى حياتها .

- هذا جائز .

- ان زوجها وحش من الشراب ، ولا يدهشنى اذا كان يسئ معاملتها . وقد لاحظت أمس وجود الكدمات على معصمها ، وأظن أنه يضربها . وانه ليتملكنى الغضب ازاء هذه الأمور .

- أعتقد على كل حال انك من الحكمة بحيث لا تعقد أمورك بالاهتمام بمسز بارت الى هذا الحد . ويكفى أن توالى اهتمامك لتلك المرأة الجميلة التى قلت لى أنها تقيم فى نفس الفندق الذى تقيم أنت فيه .

كان رد الفعل سريعا جدا فقد أجاب على الفور :- ولكن ما الذى توعز اليه .. ؟ ان مسز بارت امرأة شريفة .. امرأة شريفة جدا .

لم أنطق . واكتفيت بأن ابتسمت ابتسامة لها معناها ، فصاح يقول محتدا :

- أقول لك أنها امرأة شريفة .. لا يمكن أن تقدم على أى انحراف .

- الواقع أن هذا رأيى ، ولكنه لا يمنع أنها معجبة جدا بك .

- أوه ، انما ذلك بسبب الأوسمة وانقاذ الطفلة من الغرق وما ينسبونه الى من أخبار أخرى .

- ومن الذى يرويها .. ؟ كنت أنوى أن أسألك ذلك .

- أعترف بأنها أفادتنى كثيرا . ان أسهم ولبراهام انخفضت كثيرا .

عدت أقول فى اصرار : - من الذى يرويها .. ؟ أهو كارسليك .. ؟

هز رأسه وقال : - هل تعتقد ذلك .. ؟ أنه أبله لا أستطيع الركون اليه . أننى مضطر بأن اهتم بدعايتى بنفسى ..

وقلت : - لا أظنك من الجرأة بحيث تقول أنه كان بمقدورك أن تحصل على ما تريد من الأوسمة .

- ليس تماما . ولكننى استخدم النساء عندما أراهن على شئ من الغباء . أتركهن يلاحقننى بالأسئلة ، فأعطيهن ما أريد من التفاصيل ، وأتظاهر بأننى أتكلم على مضض ثم أتصنع الغباء ، وأتوسل اليهن ألا يكون ما قلت لهن لأحد ، ولكنهن يطلعن صديقاتهن على كل شئ على الفور .

- ألا تشعر بأى خجل يا جابرييل ؟

- انما أعد دعايتى الانتخابية قبل كل شئ يجب أن أهتم بمستقبلى ، ومثل هذه الأشياء لها أهميتها فى هذه الظروف .

- اننى أتذكر شيئا آخر الآن . لماذا قلت لمسز بارت أننى أصبت فى العلمين ؟

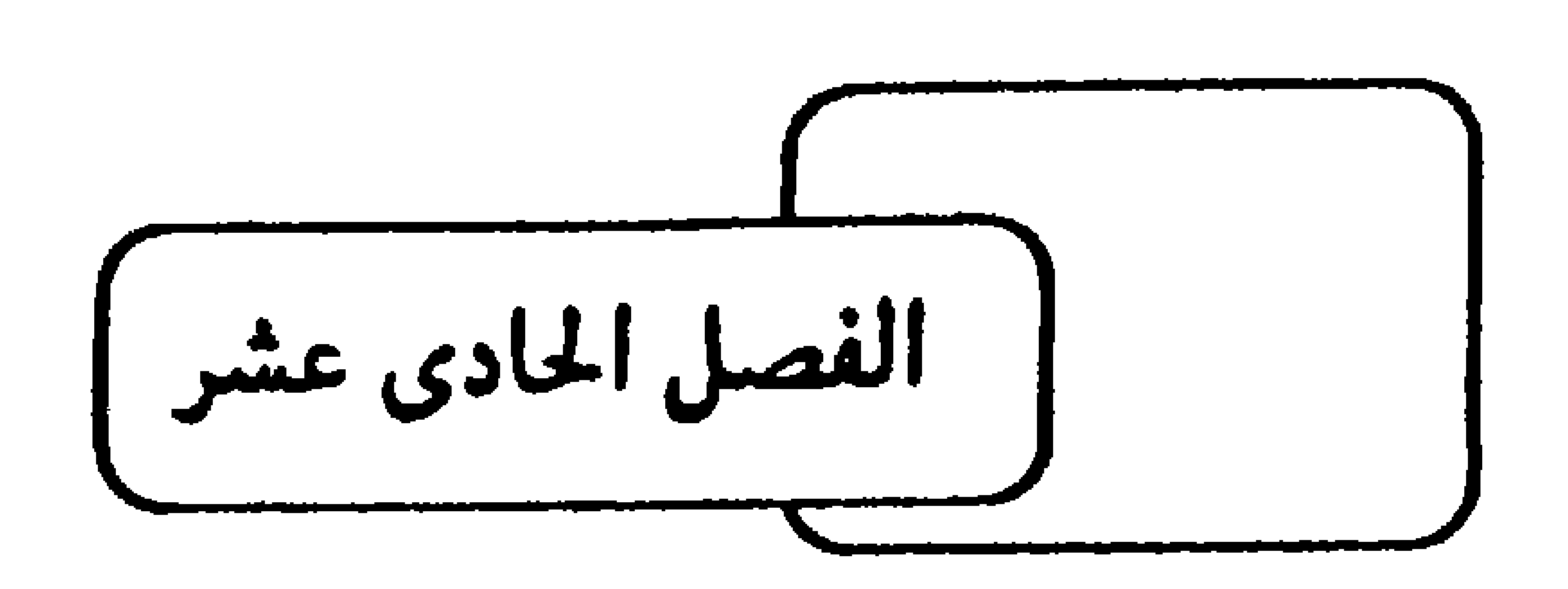
تنهد جابرييل وقال : - أراهن أنك حرمتها من أوهامها . وما كان يجب أن تفعل هذا يا صاح . يجب أن تقطف العنقود عندما ينضج . ان الأبطال لهم المقام الأول فى هذا الوقت ، وستنخفض أسهمهم فيما بعد . وما عليك الا أن تنتهز الفرصة .

- بادعاء كاذب .

- ولماذا تريد أن تقول الحقيقة لامرأة ما بأى ثمن ؟ أننى لا أذكر لهن الحقيقة أبدا..

- هناك فرق بين أن تقول الحقيقة وبين أن تكذب بكل فجور .

- اننى لا أطلب منك أن تكذب . أنا الذى أتكفل بالكذب ، وما عليك الا أن تقول :- أبدا .. ولكن هذا خطأ .. ما كان يجب أن يقول جابرييل هذا أبدا .. ودع الباقى للنساء .



الفصل الحادى عشر

وفى صباح اليوم التالى تحدثت مسز كارسليك بضع لحظات معى . ولم أكن أميل اليها ، فقد كانت امرأة ضئيلة سمراء سليطة اللسان ، ولا أظن أننى سمعتها مرة واحدة طوال اقامتى فى بولنورث تتكلم بالخير عن أى أحد .

وتكلمت فى ذلك اليوم عن ميللى بارت فقالت : - انها امرأة ظريفة تريد أن تخدم بأية طريقة ، ولكنها غبية جدا وجاهلة ولا تعرف شيئا فى السياسة . وأظنها ليست سعيدة فى حياتها الزوجية .

- أوه ، هذا أمر محزن .

- ان ذلك الرجل بارت .. أعنى زوجها ينحدر الى الهاوية بطريقة فظيعة ، فلا يراه أحد الا وهو فى حالة يرثى لها من السكر . واننى لأتساءل لماذا يقدمون له الشراب . وقد سمعت أنه خشن الطباع ان الجيران الذين يقولون ذلك ،ثم انها تخافه كل الخوف

- ولماذا لا تهجره .

أسرعت مسز كارسليك تقول محنقة : - ماذا تقول يا كابتن نوريز .. ؟ أنها لن تجرؤ على مثل هذا العمل أبدا . ثم أين تذهب .. ؟ ليس لها أهل ، وقد خطر لى مرارا أنه لو أقبل شاب ظريف صدفة .لا أظن أنها ذات مبادئ قوية . ثم ان جمالها مبتذل .

- أظنك تحبين ريوبيرت كثيرا ؟

- انك مخطئ .. واذا أردت الحق فأنا لا أعرفها جيدا ، فان زوجة البيطرى تختلف عن زوجة الطبيب .

وبعد أن أوضحت مسز كارسليك هذا الفارق الاجتماعى الكبير سألتنى فى اهتمام

أن كنت بحاجة الى شئ ، فأجبتها بالنفى وشكرتها .

وتحولت عيناى الى النافذة ، فنظرت الى حيث أنظر وقالت : - آه .. هذه ايزابيللا كارتريس .

ونظرنا معا الى الفتاة وهى تقترب من البيت وتجتاز الحاجز وتصعد درجات الشرفة . وقالت مسز كارسليك :

- أنها جميلة حقا . ولكنها متحفظة بعض الشئ . وأشعر أحيانا بأن هذا التحفظ عند بعض الناس ان هو الا صورة من الرياء والنفاق .

أحنقنى قولها هذا ، ولكننى لم أستطع الاعتراض لأنها أسرعت بالانصراف .

وعندما دخلت ايزابيللا رأيتها فى حالة من الاضطراب . وما كان لأحد غيرى أن يلحظ ذلك لأننى أصبحت أعرفها جيدا . وقالت فجأة وبدون أية مقدمات :

- ان ربوبيرت قادم .. أنه قادم حقا .. وقد يأتى من يوم لآخر .. سيأتى بالطائرة طبعا .

ثم جلست وابتسمت ، وضمت يديها الطويلتين بعضهما الى بعض وقلت أسألها :

- هذه العودة شديدة الأهمية بالنسبة لك ، أليس كذلك ؟

قالت : - نعم .. أوه ، نعم .

وأردفت : - أننى انتظرته طويلا .

- أظنك تحبين ربوبيرت كثيرا ؟

- ليس هناك من يحبه فى العالم بقدر ما أحبه .

وأردفت تقول : - هذا ما أعتقده على الأقل .

- ألست واثقة ؟

سألتنى بعينين تنطقان باليأس : - وهل يمكن لأحد أن يثق بأى شئ ؟

لم يكن هذا تعبيرا عن عواطفها ، وانما كان مجرد سؤال ألقته على لأنها كانت

تعتقد أننى ربما أستطيع أن أقدم لها الجواب الذى تبحث عنه ، ربما كان باستطاعتها أن تشك الى أى حد آلمنى سؤالها هذا . وقلت فى غلظة :

- كلا .. لا يمكن لأحد أن يثق بأي شئ . هل مر وقت طويل لم تلتقيا فيه ؟

- ثمانى سنوات .

- أنت فتاة خيالية يا ايزابيللا .

نظرت الى مستفهمة وقالت : الا اننى أعتقد أنه سيتزوجنى عند عودته ؟ ولكن ليس فى هذا أى خيال أنه شئ طبيعى و منطقى .

وتحركت أصابعها ورسمت خطوطا متعرجة وقالت : - أن حياته تسير فى خط ، وحياتى تسير فى خط آخر ، ولابد لهذين الخطين أن يلتقيا . ولا أظن أننى سأغادر سنت لو أبدا ، فقد ولدت فيها وعشت فيها حتى اليوم ، وأود أن أعيش فيها طول عمرى ، وأفترض أننى ذات يوم ، سأموت فيها .

وارتجفت شيئا وهى تقول ذلك فى نفس اللحظة التى مرت فيها سحابة فوق الشمس .

ومرة أخرى دهشت لخوفها الشديد من الموت وقلت : - لا أظن انك ستموتين وشيكا يا ايزابيللا ، فأنت قوية وفى صحة جيدة .

- نعم . أننى قوية جدا . أننى لم أمرض أبدا ، ومن الجائز أن أعيش حتى أبلغ التسعين ، وربما المائة ، فهذا يحدث لكثير من الناس .

وحاولت أن أستعرض فى ذهنى ايزابيللا وهى فى التسعين من العمر ، ولكن تعذر على ذلك . ومع ذلك فقد تصورت بكل سهولة الليدى سنت لو وهى تبلغ المائة من عمرها ، ولكن الليدى سنت لو بطبيعتها قوية ومكافحة . وكانت تتعارك مع الحياة وتحس بقدرتها على التوجيه ، واثارة الأحداث عند الضرورة . كانت امرأة مناضلة ، أما ايزابيللا فكانت سلبية .

وفتح جابرييل الباب ودخل ، وقال يخاطبنى : - اسمع يا نوريز .

ولكنه أمسك فجأة عندما وقع بصره على ايزابيللا وقال : أوه .. صباح الخير يا آنسة .. وبدت لى حركاته خرقاء يشوبها ارتباك ، كما لو كان قد أحس بشبح الليدى سنت لو يحلق فوقه . وقلت له فى مرح :

- اننا نتحدث عن الموت والحياة ، وقد تنبأت للآنسة كارتريس بأنها ستعمر تسعين سنة .

قال جابرييل : - لا أرى فيم يسرها هذا ، فليس فيه أى سحر .

قالت ايزابيللا : - بل يسرنى جدا .

- لماذا ؟

قالت ايزابيللا : - لأننى أخاف أن أموت .

ضحك جابرييل وقال : - اذا أخذنا هذا فى الاعتبار فان أحدا لا يتمنى أن يموت ، وليس ذلك لأن الناس تخاف الموت ، ولكن لأن الموت نفسه حدث قذر .

قالت ايزابيللا : أنى لا أستطيع احتمال فكرة الموت ان الألم سيان عندى فأننى أستطيع احتماله .

قال جابرييل : - هل تظنين ذلك ؟

وأثار ازدراؤه ايزابيللا فاضطرم وجهها وقالت : - أقول لك أننى أستطيع احتمال الألم .

ونظر كل منهما الى الآخر متحديا . كانت نظرته هو متشككة ، أما نظرتها هى فكانت تنطق بالتحدى السافر .

وأتى جابرييل عندئذ بعمل عجيب .. كنت قد وضعت سيجارتى المشتعلة بجانبى ، فانحنى وأخذها وأدنى طرفها الملتهب من ذراع ايزابيللا .

ولم تطرف ولم تسحب ذراعها ، وأظن أننى أطلقت صرخة احتجاج ولكن لم يعبأ

بى أى منهما . وضغط بطرف السيجارة الملتهب فوق الجلد .

ولم أشعر بفظاعة عجزى وعدم قدرتى الا فى تلك اللحظة . شعرت بالغضب والحنق يستوليان على لعدم استطاعتى الاقدام على أى شئ . ورأيت وجه ايزابيللا يشحب فى بطء لفرط الألم . وضغطت على شفتيها ولكنها لم تتحرك .. وحدجت بعينيها فى عين جابرييل بكل هدوء .

وصحت : - أنت مجنون يا جابرييل .. فلتذهب الى الشيطان .. هل تدرك ماذا فعلت ؟

لم يبال بى وكأننى لم أكن موجودا بالمرة ، وفجأة ألقى بالسيجارة فى الموقد وقال يخاطب ايزابيللا .

- اننى أقدم لك كل عذرى .. انك جريئة وقوية الاحتمال ..

وخرج دون أن ينطق بكلمة أخرى .

وكنت فى حالة من الغضب بحيث احتبست الكلمات فى حلقى وقلت فى مشقة :

- يا له من وحش .. ما الذى جرى له .. انه يستحق الجلد ..

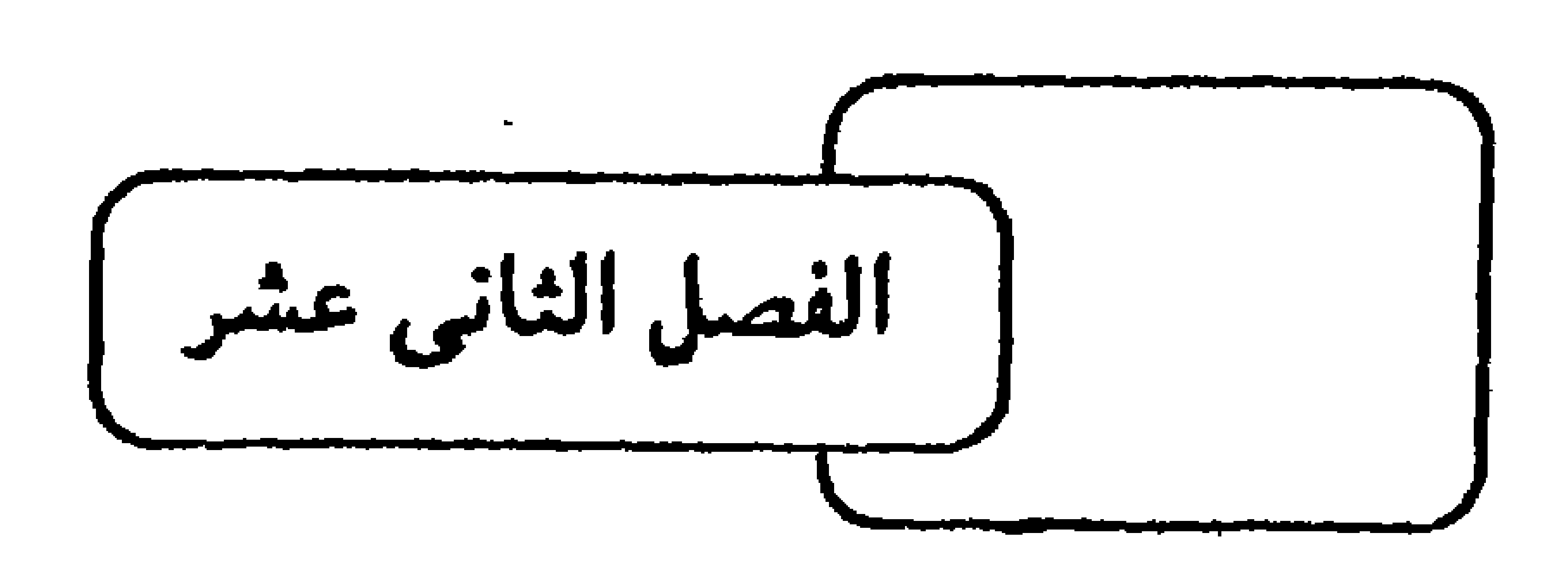
أما ايزابيللا فأخذت تلف منديلها فى بطء حول ذراعها المحترق ، وعيناها مثبتتان على الباب ، وكانت تقوم بعملها هذا بحركة آلية ، كما لو كانت تفكر فى شئ آخر ، ثم ارتدت من عالم أحلامها البعيد وسألتنى فى شئ من الدهشة :

- ماذا بك ؟

حاولت بقدر ما أستطيع أن أعبر لها عن اشمئزازى عن ذلك العمل الذى أقدم عليه جابرييل ولكنها قالت :

- لا أرى داعيا لكل هذا الغضب . لقد أراد الميجور أن يعرف أن كنت أحتمل الألم ، وقد كان له ما أراد .

***



الفصل الثانى عشر

وقع عقب ذلك حادث مثير ، وأعنى به مباراة فى لعبة الهوسيت اقامتها جمعية نسائية بالمدينة ، وخصص ريعها لصالح الحرب .

وقد أقيمت المباراة فى المقر الرسمي للجمعية الزراعية التعاونية ، وهى عبارة عن مبنى تاريخى قديم ملاصق لبيتنا بالذات يعرف باسم الجرانج .

ومر بنا يومان فى نشاط دائم مستمر .. وراح أعضاء اللجنة المنفذون يروحون ويغدون بحرية فى البيت أما أنا فقد بقيت فى غرفتى بعيدا عن هذا النشاط ، وكانت تيريزا تأتى الى من وقت لآخر بزائر ترى أنه قد يطربنى ويستأثر باهتمامى .

وكانت تيريزا تعرف ما أكنه من مودة نحو ميللى بارت فكانت تسمح لها بالقدوم الى غرفتى ، وكنا نتقاسم أعمالا كثيرة مختلفة كترقيم تذاكر الدخول أو الاعداد لترتيبات الحفلة نفسها .

وفى احدى هذه المرات روت لى ميللى قصة حياتها وبدأت ذلك بامتداحها للميجور جابرييل . وتبينت من حديثها لى أنها أصبحت تعبد هذا الرجل عبادة .

قالت : – ان ما يعجبنى فيه يا كابتن نوريز هى طيبته ، فهو فى شدة انشغاله وبينما الجميع يلحون عليه ويطالبونه بتنفيذ أعمال على جانب كبير من الأهمية يجد الوسيلة دائما لكى يتذكر أنك موجود ، وله طريقة ظريفة فى التحدث اليك . أننى لم التق فى حياتى كلها بشخص مثله .

– اننى أصدقك .

– وعلى الرغم من بطولته فى الحرب فهو غير متحفظ وغير مترفع . وهو ليس

ظريفا معى فحسب ولكنه ظريف مع الجميع ، ويعرف أن فى هذا البيت أو ذاك ابنا قتل أو يشترك فى حرب الباسيفيك أو موجودا فى منطقة خطرة ، وينطق دائما بالكلمة التى تحبها لاضحاكك ولرفع روحك المعنوية . وانني اتساءل أين يجد كل هذه الكلمات . وددت لو أنى كنت أفهم فى السياسة أكثر مما أفهم . أننى عاجزة عن عمل دعاية فعالة للحصول على أصوات الناخبين . بل اننى لا أستطيع الرد على الأسئلة التى يوجهونها الى .

- الا أهمية لهذا . ان السياسة خدعة ، وليس فيها أية أخلاقيات .

نظرت الى مذعورة فقلت موضحا : - لا يجب أبدا أن نحمل الناخبين على الادلاء بأصواتهم على غير ما يعتقدون .

- هذا صحيح . وأنى أفهم ما تعنيه ، ولكن من حقنا أن نفكر أن حزب المحافظين هو الوحيد الجدير بانهاء الحرب نهاية مجيدة والحصول على سلام حقيقى . أليس هذا رأيك ؟

- آه يا مسز بارت .. أنك تنتمين الى حزب المحافظين حقا وأرجو أن ترددى هذا القول أثناء الدعاية الانتخابية .

اضطرب وجهها وقالت : - كلا لست جديرة بالقاء الخطب السياسية . وكل ما أستطيع قوله هو أن الميجور جابرييل هو الشجاعة بعينها والاخلاص مجسدا ، واننا يجب أن نعتمد على رجال مثله فى المستقبل .

قلت فى نفسى ان هذا هو التصرف الذى يريده الميجور جابرييل بالذات ، ونظرت الى وجهها المضطرم وعينيها المتألقتين ، وتساءلت لمجرد لحظة اذا لم يكن سبب ذلك شئ آخر غير عبارة البطولة المجردة .

وكأنها قرأت ما يجول فى خاطرى ، لأن اللون غاص من وجهها فجأة وقالت فى خضوع :

– ان جيم يقول انني غبية تماما .

– حقا .. ؟ ولماذا .. ؟

– يقول ان حمقاء مثلي لا تستطيع أن تفهم شيئا في السياسة ، ويسألني هل أستطيع حقا أن أقدم أية خدمة ، زاعما أنني كلما تكلمت مع شخص ما أحس هذا الشخص على الفور برغبته في الادلاء بصوته لغريم الميجور جابرييل فهل تظن أنه على حق .

قلت في قوة : – كلا .

انبسطت أساريرها وقالت : – اعلم أنني قد أكون غبية في بعض الأحيان ، ولكن ذلك لا يحدث الا حين يزعجني جيم . وهو يحلو له أن يزعجني دائما .

وسكتت وراحت شفتاها ترتعشان ، ثم نثرت الأوراق التي في يدها فجأة ، وراحت تبكي قائلة :

– انني تعيسة جدا .. جدا .. وأرى الآن أنه ما كان ينبغي أن أتزوج جيم .

قلت في حياء : – ولكن لعل الأمر ليس باعثا الى اليأس كما تتصورين .

– كان مرحا وجريئا ، وكان يقول لي أشياء غريبة . كان هو الذي يعالج جيادنا حين تمرض ، فقد كان لأبي مدرسة لتعليم ركوب الخيل . وكان جيم فارسا ممتازا ، ولم يكن يشرب كثيرا في ذلك الوقت ، أو على الأقل اذا كان يشرب فأنني لم الحظ ذلك ومع ذلك فقد نبهني الجميع ولكنني لم أصدقهم لم أكن أستطيع أن أصدقهم . وكنت أقول لنفسي أنه سيتغير بعد الزواج ، وأنا واثقة أنه لم يتناول الشراب طوال فترة خطوبتنا . وقيل لي أيضا أنه قاس ، ولكنني لم أصدق ذلك ، فقد كان رقيقا معي . ومع ذلك فقد رأيته يضرب جوادا ذات يوم .. ضربا مبرحا ..

وكبحت قشعريرة سريعة وأطبقت عينيها واستطردت : ومرت بي لحظات أحسست فيها أنني تغيرت من ناحيته ، وقلت لنفسي اذا كان هذا طبعه فلن أتزوجه . كان الأمر

فظيعا بالنسبة لى أنا أيضا ، فقد خشيت أن أفسخ خطوبتى له خوفا من ألسنة الناس ثم مر هذا الشعور وأوضح لى جيم الأمر ، وفهمت أنه يحدث للناس أن يتملكهم الغضب من وقت لآخر . ونظرت الى الأمر نظرة أخرى ، وقلت لنفسى أننى اذا استطعت اسعاد جيم فلن يجد أية رغبة بعد ذلك للشراب وأنه لن يفقد حلمه نتيجة لذلك . ولهذا السبب بالذات أردت أن أتزوجه لاسعاده .

قلت : - ان اسعاد الرجل ليس الغرض من الزواج أبدا .

اتسعت عيناها وقالت : - انك اذا أحببت أحدا فلا يمكن أن تكون لك أية رغبة أخرى .

- ان هذه الرغبة بالذات ليست الا صورة خادعة للاثانية ، وهى التى تتسبب فى فشل الحياة الزوجية فى أغلب الحالات .

قالت محتجة : - ولكن هذا فظيع .

- ان الحب معناه فرض عبودية لا يطيقها الحبيب .

- انك تقول أشياء مستحيلة يا كابتن فوريز .

- لا تهتمى بذلك . اننى أعترف أن نظرتى للامور ليست سليمة ، وانها تستند الى تجربة شاقة .

- أوه .. هل كنت تعيسا أنت أيضا .. ؟ هل .

تظاهرت بأننى لا أرى الشفقة الوليدة فى نظرتها ، وأعدت دفة الحديث الى جيمس بارت . وأعتقدت بينى وبين نفسى أن ميللى بارت تنتمى الى تلك الطبقة من النساء الرقيقات المفرطات فى الحساسية اللاتى لا يجب أن يتزوجن من رجل كبارت . فطبقا لما سمعت عنه كان يحب أن تقاومه الرجال والنساء ، ولو أنه تزوج بامرأة ايرلندية لعرفت كيف تسوسه وتفرض عليه ارادتها . كان سلطانه على الحياء والمخلوقات الضعيفة خطرا عليه ، والخوف الشديد الذى يوحيه الى زوجته والدموع التى تزرفها

والآهات التي تصدر منها تثير فيه ساديّة مستترة ، والشئ الذى يدعو الى الرثاء هو أنها كانت أسعد زوجة مع أى رجل غيره ، فقد كان فى مقدورها أن تصغى وتداهن وتتملق . كان من طبعها أن تغذى فى الرجل رضاءه الذاتى وراحة البال .

وخطر لى فجأة أنه لا يمكن أن تكون زوجة ممتازة لجون جابرييل . لعلها لم تكن تستطيع مساعدته فى أطماعه ، ولكن كان فى استطاعتها أن تخفف المرارة الكامنة فى نفسه وعقدة النقص التى يعانى منها . أما جيمس بارت فكان يشعر نحوها بعدم مبالاة وبالغيرة فى نفس الوقت . وهذه حالة كثيرة الشيوع ، فقد كان يهزأ بها لأنه يراها تفتقر الى الارادة ولأنها غبية ، ولكنه كان يعانى كثيرا من المودة التى يبديها نحوها الرجال .

– انك لن تصدق ذلك يا كابتن نوريز . ولكنه سب الميجور جابرييل لالشئ الا أنه قدم لى فنجانا من القهوة فى مشرب القط الأصغر . كانت لفتة كريمة من الميجور وقدبقينا لحظة فثرثر على الرغم من مشاغله الكثيرة . وقد أطربه أن أحدثه عن أبى وعن الجيران وعن الحياة فى سنت لو قبل قدومه . انه ظريف جدا حقا . ولكن جيم شتمه بعد ذلك ، وتملكه الغضب ، ولوى ذراعى واضطررت أن أحتمى فى غرفتى ، وأن أغلق الباب خلفى . أننى أشعر نحو جيم بخوف شديد فى بعض الأحيان .أوه يا كابتن نوريز .. أننى تعيسة .. وددت لو أن أموت .

– لا تقولى هذا يا مسز بارت ، انك لا تعرفين ما تقولين .

– بل أعرف . لم يعد للحياة معنى بالنسبة لى . ليس هناك ما أرجوه ، والأمور تسير من سيئ الى أسوأ ، وجيم يفقد عملاءه الواحد بعد الآخر بسبب الشراب ، ثم أنه أصبح أكثر شرا . ويزداد بى الخوف من وقت لآخر . أوه ، أننى خائفة جدا .

هدأتها بقدر ما استطعت وأنا لا أشك لحظة واحدة فى أنها تتألم بمرارة كبيرة .

وقلت لتيريزا أن ميللى بارت تعيش عيشة محزنه ، ولكن لم يبد عليها أى تأثير

فقلت معاتبا :

- يبدو أن حالتها لا تثير اهتمامك .

أجابت : - كلا .. ان النساء التعيسات يتشابهن ، بحيث يغدو شقاؤهن مملا .

- كيف تتكلمين هكذا يا تيريزا .. ؟ ألا قلب لك ؟

- ان الشفقة نقطة الضعف في دائما .

- يبدو لى أن هذه المرأة المسكينة قد بدأت تشعر بالحب نحو جابرييل .

- هذا أمر لاشك فيه .

- ألا ترثين لها على الرغم من ذلك ؟

- ليس لهذا السبب على كل حال ، فأن يحب المرء جابرييل ليس أمرا بغيضا الى هذا الحد .

- لا تقولى لى انك تعشقينه أنت الأخرى يا تيريزا .

أجابت : - كلا لحسن الحظ .

انتهزت الفرصة وقلت لها أنها غير منطقية ، لأنها أكدت منذ لحظة أن الوقوع فى حب جابرييل أمر محبب فقالت :

- نعم .. ولكنه ليس كذلك بالنسبة لى ، لأننى لا أميل اطلاقا الى الانفعالات العنيفة . أننى أستطيع أن أسيطر على مشاعرى وأفكارى الى حد ما . وان عدم سيطرتى عليها لإهانة لكبريائى ومذلة لى .

- لا أخالك تعتقدين على كل حال أن هناك خطرا حقيقيا فى مغامرة غرامية بين جون جابرييل ومسز بارت .

- كان هناك كلام على كل حال . وقد أثار ذلك قلق كارسليك ، وتزعم مسز كارسليك أنهما يتشاجران كثيرا بدون مبرر .

- يجب أن يتوخى جابرييل الحرص والحذر اذن .

قالت تيريزا : - ليس هذا فى طبعه لسوء الحظ .

- هل تظنين أنه يحب هذه المرأة حقا ؟

تأملت تيريزا الأمر لحظة ثم قالت : - انه يرثى لها على كل حال .. وهو رجل سريع التأثر ..

- ولكنك لا تظنين أنه قد يحرضها على أن تهجر زوجها . لو حدث هذا فانها تكون كارثة .

- لماذا ؟

- سيكون فى ذلك أنهيار كل شئ يا تيريزا .

- أعرف ذلك .

- ألا ترين فى ذلك أية كارثة ؟

قالت تيريزا بلهجة غريبة : - عن ؟ .. لجون جابرييل أو لحزب المحافظين ؟

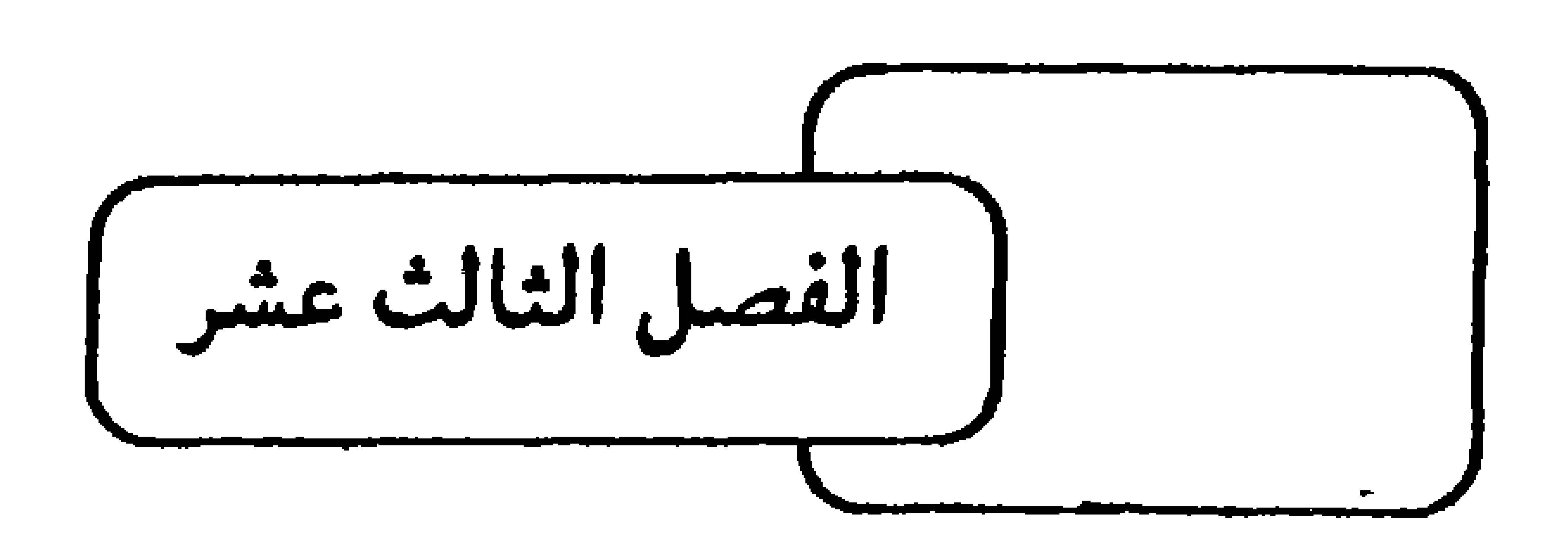
- اننى أفكر فى جابرييل . ولكن الأمر سيكون كارثة للحزب أيضا .

قالت تيريزا : - أننى لا أفهم كثيرا فى السياسة لكي أناقشك فى هذا الموضوع ، ولكن لا يهمنى أبدا أن يفوز مرشح حزب العمال . أننى انما أتساءل اذا كان غراما من هذا النوع نكبة لجابرييل أم لا . ربما تسبب هذا الغرام فى سعادته .

صحت : - ولكنه يريد أن يفوز بكل طريقة .

قالت تيريزا : - ان الفوز والسعادة شيئان مختلفان تماما . ولكن يحدث أن يتلاقيا أحيانا .

***



الفصل الثالث عشر

فى صباح يوم المباراه أقبل الكابتن كارسليك وحدثنى عن مخاوفه قائلا :

- لا أقول أن كلامهم يستند على شئ من الحقيقة ، بل اننى على استعداد لان أقسم انه ليس بينهما أى شئ ، فاننى أعرف ميللى بارت منذ طفولتها ، وهى الشرف بعينه ، وقد نشأت على أشرف المبادئ ولكنه يعرف ما جبل عليه الناس .

وكنت أعرف على كل حال ما جبلت عليه زوجته هو بالذات ، محل الرأى العام .

واستطرد يقول وهو يسير فى الغرفة جيئة وذهابا :

- وجابرييل فتى طيب ، وكان ظريفا معها ولكنه كان متهورا ، فلا يجب أن يقدم المرء على أية حماقة أثناء الانتخابات .

- أو لعبات أخرى ليس هذا بالوقت الذى يبدى فيه المشاعر الرقيقة .

- تماما .. تماما ... ان جابرييل رقيق المشاعر جدا ، وخاصة فى الأماكن العامة... ما معنى ان يتناول فنجانا من القهوة معها فى مشرب القط الأصغر ؟ وخصوصا فى ذلك الوقت الذى تخرج فيه الشمطاوات و الثرثارات من بيوتهن .... ثم انه رافقها أمس بعض الوقت وهو يحمل عنها سلة مؤونتها .

- هذا عمل لا بأس به من الناحية الدعائية ، وسوف يفيده فى الانتخابات .

ولكن كارسليك تجاهل حجتى وقال :

- ورافقها الى بيتها بعد ذلك فى سيارته . وقد أعطى للناس بعمله هذا انطباعا بأنهما كانا يتنزهان معا .

- اننا الآن فى سنة ١٩٤٥ ، ولسنا فى سنة ١٨٤٥ .

قال كارسليك :

- ولكن الأمور لم تتغير كثيرا فى هذه البلدة . كان يجب على جابرييل ان يبدى اهتماما لكن .

وبعد نصف ساعة دخل جابرييل بدوره وهو يكاد ينفجر من الغيظ ، فقد زوده كارسليك ببعض نصائحه بلباقة ، ولكن كانت لنصائحه رد فعل آخر .

وصاح يقول :

- ان كارسليك هذا ثرثار بغيض . هل تعرف ماذا جرؤ وقال لى ؟

قلت :

- نعم ... نعم .

وأردفت أقول ان هذه الفترة من اليوم هى الفترة التى استريح فيها وان الزيارات ممنوعة فقال :

- ما هذا الهذر ؟ ... انك لست بحاجة الى الراحة لانك لا تفعل غير هذا . كل ما عليك الان هو أن تصغى الى . اننى اذا لم اتكلم مع أحد فسوف أنفجر حتما . هل لك أن تقول لى لماذا لا أستطيع أن أقدم فنجانا من القهوة فى مكان عام لامرأة حزينة دون أن يرمينى الناس بالفسق والفجور ؟ ... لماذا يجب أن اهتم برأى أناس لا يفكرون الا فى الرذيلة ؟

- هل تريد ان تفوز فى الانتخابات ؟ ... نعم ، أم لا .

- سأفوز .

- يؤكد كارسليك انك لن تفوز اذا تصرفت تصرفا غير لائق فى مكان عام مع مسز بارت ؟

- ان الناس خنازير .

- هذا صحيح .

- والسياسة ليست أفضل من الناس .

- هذا صحيح أيضا .

- لا تتكلم هكذا يا نوريز . انك تثير حنقى اليوم بالذات . واذا كنت تعتقد أن هناك شيئا بينى وبين مسز بارت فأنك مخطئ تماما . اننى أرثى لها ، وهذا كل شئ لم أقل لها ما يمكن أن أؤاخذ عليه .. تبّالى .. عندما أفكر فى الطريقة التى أتصرف بها هنا فيما يتعلق بالنساء على الرغم من شدة شغفى بهن .

كان يحس بالاهانة حقا ، واستطرد يقول :

- ان هذه الصغيرة تعيسة جدا . لا يمكن ان يخطر ببالك كيف تتألم وتتحمل . ثم انها لبقة ومخلصة ولا تشكو . وجديرة بأن تلقى اللوم على نفسها . لو أستطيع أن أمسك بخناق ذلك الوغد بارت ... أن أمه نفسها لن تستطيع أن تعرفه بعد ان أفرغ منه .

صحت فى جزع حقيقى :

- هل جننت يا جابرييل ؟ ... انك اذا تعاركت مع بارت فى مكان عام فلن تكون أمامك أية فرصة للفوز .

ضحك وقال :- من يدرى ؟ .... لعل من الأفضل أن أجرب ... اسمع يا نوريز .

ولكنه أمسك فجأة . ونظرت لكى أرى لماذا سكت ، فرأيت ايزابيللا ، فقد مرت أمام النافذة فى هذه اللحظة وحيت كلا منا ، وقالت أن تيريزا دعتها لكى تشارك فى تزيين الجرانع ، وقال جابرييل :

- أرجو أن تشرفينا بوجودك يا آنسة .

كان صوته خليطا من الوقاحة والمذلة ، لم يكن يناسبه اطلاقا . كان يبدو ان ايزابيللا تؤثر فيه تأثير مفجعا ، وأجابت " نعم " . ثم أردفت " أننا نحضر هذه

الحفلات دائما " .

ثم مضت للقاء تيريزا . وانفجر جابرييل يقول :

- ما أطيبها حقا .. لقد تنازلت وهبطت من عليائها الى مستوانا المبتذل . يا لهذا التسامح .. انه لفضل كبير منها . لو أردت رأيى يا نوريز فان ميللى بارت تساوى وحدها عشرات من مثيلات ايزابيللا كارتريس . ولكن من هى ايزابيللا كارتريس على كل حال . ؟ انها فقيرة معدمة تعيش فى قصر يتداعى فوق رأسها . ومع ذلك تتعجرف وتتعاظم . لا نفع منها اطلاقا فيما عدا انها تبقى بلا عمل وتبتهل الى الله أن يعود وريث العرض الثمين لكى يتزوجها . ولم تره أبدا ولا يهمها أمره ، ومع ذلك فانها تتنازل وتقول " نعم " . كل ما يهمها هو أن تصبح الليدى سنت لو .. فيم ينفعها هذا اللقب اليوم ؟ ان الألقاب زالت الآن وأصبح لا قيمة لها .

صحت :

- جابرييل . انك أخطأت فى اختيار الحزب بكل تأكيد . ان حزب العمال بحاجة الى أمثالك ، فلماذا لا تبدل رأيك .

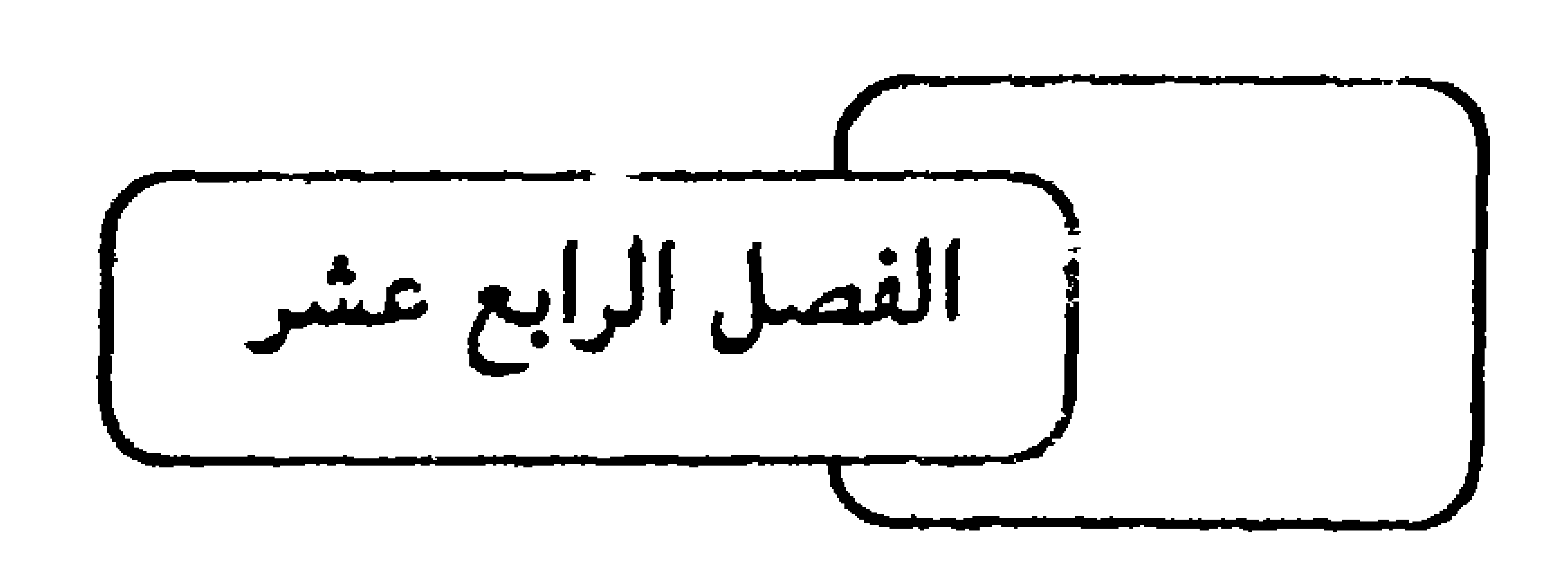
واستطرد جابرييل يقول وهو يكاد يختنق :

- ان ميللى بارت فى نظر هذه الفتاة ليست الا زوجة طبيب بيطرى ... امرأة تتنازل وتتكرم بمرافقتها فى الاجتماعات الانتخابية ، ولكنها تؤثر أن تموت دون ان تدعوها لتناول قدح من الشاى فى القصر ... حسنا . اننى أفضل ميللى بارت عن عشر فتيات وقحات كايزابيللا .

أطبقت عينى وقلت :

- ألا يمكنك أن تنصرف يا جابرييل ؟ ... مهما يكن فى حديثك من سحر فاننى مازلت مريضا جدا وبحاجة الى الراحة . انك أتعبتنى كثيرا .

* * *



الفصل الرابع عشر

حرص كل من لديه ما يقال عن جون جابرييل وميللى بارت على أن يخبرنى به كل بدوره . وأصبحت غرفتى أثناء الأعداد للحفلة مكانا يلتقى فيه الجميع ، فكان الزوار يلجأون اليها لاحتساء قدح من الشاى أو لتناول كأس من الشيرى . وكان فى مقدور تيريزا ان تعترض طريقهم طبعا ولكنها لم تفعل ، وقد كان ذلك مدعاة لسرورى ، لأننى استطعت بذلك أن أجمع حلقة من الشائعات والأقاويل التى نسجها الحسد والغيرة .

لم يكن بين ميللى وجون أى شئ ، وكنت واثقا من ذلك . لم يكن يشعر من نحوها بأكثر من شفقة عطوفة ، ومن ناحيتها لم تكن تشعر من نحوه بغير اعجاب صبيانى .

ومع ذلك فقد انتهى بى الأمر الى أن اقتنع ، على مضض منى ، بأن الموقف الحالى يحتمل كل الاحتمالات التى يمكن ان تنتج من الشائعات والأقاويل ، فعلى الرغم من أن ميللى بارت بريئة فقد كانت مغرمة بالميجور ، سواء كانت تعلم ذلك أو لا تعلم . وكان جابرييل منقادا لشهواته ، وكان من المحتمل أن يتحول عطفه فى أية لحظة الى شهوة .

والواقع أنه لولا ضرورات الانتخابات لظهرت عواطفهما المتبادلة فقد كنت أشك فى أن جابرييل من هؤلاء الرجال الذين يلهمون الحب ويطالبون بالاعجاب كذلك ، رسم الحقد الأسود الذى يجرى فى عروقه ما كانت لتخف حدته الا اذا أتيح له ان يكلأ وان يحب ، وميللى بارت بالذات من ذلك النوع من النساء اللاتى ينشدن الحب والأمان .

وقد خطر لى ان الأمر على هذه الصورة يعتبر خيانة زوجية ، وهى خيانة وان كانت لم تتم فعلا ، الا أنها فى نظر الجميع خيانة قائمة على الحب والشفقة والطيبة والامتنان ، وسوف يرفض أغلب الناخبين منحه الظروف المخففة ويدلون بأصواتهم لويلبراهام ، لأنهم يعرفون انه عف الخلق ، وسينزلق جابرييل عندئذ على طبقة خفيفة جدا من الجليد .

وعادت الليدى تويسليان وقالت وهى تلهث كعادتها :

- لا يجب أن أتكلم عن مثل هذه الأشياء ، ولكننى أتساءل ان كنت تعرف بهذه القصة التى بين مسز بارت ... ومرشحنا .

ورفعت الى عينين مذعورتين فقلت :

- يخيل لى أننى سمعت كلمتين أو ثلاثا عنها .

قالت وقد تغيرت ملامحها :

- يا الهى ... هذا ما كنت أخشاه . ان مسز بارت امرأة ظريفة كما تعرف ... ليست من ذلك النوع من النساء اللاتى ... أعنى ان ذلك ظلم جائر ... ولو أن هناك ما يلامان عليه لتوخيا الحذر ولأخفيا أمرهما حتى لا يعرف أحد شيئا .

ودخلت مسز بيجهام كارتريس فى هذه اللحظة وقالت :

- هذا اهمال اجرامى ... لا يمكن أن نثق ببارت بعد ذلك أبدا ، فأنه أصبح يفرط فى الشراب كثيرا ... بل أكثر من ذى قبل ، ومهنته هى التى تضار من ذلك . كنت أعرف أنه غير قدير فى معالجة الكلاب ، ولكنه كان يتدبر أمره مع البقر والجياد ، وكان فى هذا المجال يوضع ثقة المزارعين ، ولكن ها هى ذى بقرة بولينتى قد ماتت أثناء الوضع بسببه ، وفرس ينتلى ماتت هى الأخرى انه سينهار تماما اذا لم يكبح أهواءه .

قالت الليدى تريسليان :

- كنت أحدث الكابتن نوريز عن مسز بارت ، وقد طلبت منه ان ...

قالت مسز بيجهام فى حدة :

- كل هذا هزر ، ولكن مثل هذه الأشياء تبقى وسيقول الناس ان بارت يفرط فى الشراب لهذا السبب يا للغباء انه كان يفرط فى الشراب ويضرب زوجته قبل أن يضع الميجور جابرييل قدمه فى البلد ... ومع ذلك فلابد من التدخل ، ولابد من أن يتحدث بعضهم مع الميجور .

قلت :

- لقد تحدث كارسليك معه .

- ان كارسليك ليس لبقا ، وأظن ان الميجور قد تملكه الغضب .

- هذا صحيح .

قالت مسز بيجهام :

- ان جابرييل أحمق ... حمق عاطفى ، وهذا من سوء حظه . يجب التحدث معها هى ... ونصحها بأن تختفى عن طريقه الى ما بعد الانتخابات ... لاريب أنها لا تدرى بما يقال عنها .

ثم تحولت الى زوجة أخيها وقالت :

- لماذا لا تتحدثين أنت معها يا أجنس ؟

اصطبغ وجه الليدى تريسليان وقالت :

- أنا ... أوه يا مور ... اننى لا أحسن مثل ...

- لا يجب أن تتكفل مسز كارسليك بذلك على كل حال ... ان هذه المرأة هى الوباء بعينه .

- ولكنها لن تتسبب الا فى تقويض فرص حزبها بالذات .

- تدهشيننى يا اجنس لو أننى كشفت لك عن خفايا الحياة فى احدى الحاميات .

اذا أرادت امرأة ان تزور حماقة فانها تقولها حتى ولو قوضت فرص الترقية أمام زوجها واذا أرادت رأيى فانه لا يدهشنى اذا عرفت انها كانت تتوق الى مغازلة الميجور .

– مور ؟

– اسألى الكابتن نوريز ، انه لا يتحرك من هنا ويرى ويسمع كل ما يدور .

ونظرت السيدتان الى فى شئ من الأمل فقلت :

– لا أظن طبعا ..

ولكننى لم ألبث أن غيرت ما كنت أنوى قوله . وقلت مخاطبا مسز بيجهام كارتريس :

– أظن أنك على حق .

وتبدى لى فى تلك اللحظة المعنى الكامن فى ملاحظات أبدتها مسز كارسليك ولم تتمها ، وكذلك المعنى المستتر فى نظراتها ، وقد استغربت عندئذ انها لم تحاول ايقاف الفضيحة وانه لا يستبعد انها بذلت المستحيل للمبالغة فيها .

وقالت مسز بيجهام كارتريس فجأة :

اذا كان لابد لأحد أن يتحدث مع ميللى بارت فلا أرى خيرا من الكابتن فوريز :

– صحت محتجا :

– آه ... كلا .

– انها تثق بك ، ثم ان كل شئ مباح للمرضى .

ونهضت مسز بيجهام كارتريس وهى تقول :

ان مسز بارت تقوم بتزيين الجوانح سأرسلها اليك وسأقول لها انك تريد أن تقدم لها قدحا من الشاى .

وأسرعت خارجة ، ولم تلبث أن عادت ومعها مسز بارت وقالت :

– هذا هو الشاى . صبى لنفسك قدحا واجلسى مع الكابتن فوريز فهو يريد أن

يتحدث اليك . هلمى بنا يا أجنس فانا بحاجة اليك لترتيب الجوائز .

وخرجت المرأتان فى وقار . وكانت ميللى قد صبت الشاى فجاءت وجلست الى جوارى ، وقالت مشدوهة بعض الشئ .

- ماذا هناك ؟

- انت امرأة فاضلة يا ميللى ، ولكن هل خطر لك انه لا يمكن ان نقول هذا القول عن نساء كثيرات ؟

- ان الناس يتناقلون قصصا بغيضة عنك وعن الميجور جابرييل .

- عنى وعن الميجور جابرييل ؟

ونظرت الى فى ذهول ، ثم اصطبغ وجهها كله ، وقالت :

- هل تعنى ان جيم ليس الوحيد ، وان هناك غيره يفكرون الآن .

بدأت أقول وأنا غاضب من نفسى :

- يجب أن يبدى المرشح حذرا كبيرا أثناء الانتخابات .. وان يتجنب ظواهر الخطيئة نفسها . هل تفهميننى ؟ ... ان حماقة كتناول فنجان من القهوة فى مشرب القط الأصفر ، أو تبادل الحديث معا فى الشارع أو السماح بحمل مشترواتك ، تكفى لاطلاق السنة السوء .

نظرت الى بعينيها الساحرتين المتسعتين المذعورتين وقالت :

- ولكنك تعرف انه ليس هناك أى سوء فعلا ، وانه لم ينطق أبدا بكلمة ... انه كان طيبا معى وهذا كل شئ ... أقسم لك ان هذا هو كل شئ .

- أعرف ذلك . ولكن المرشح يجب أن يتجنب كل طيبة وترف .

وأردفت أقول فى حرارة :

- وهذه هى مقتضيات مثاليتنا السياسية .

قالت ميللى :

- لا أريد أن أتسبب له فى أى ضرر ، ولا حتى فى سبيل كنوز الدنيا كلها .

- اننى واثق من هذا .

سألتنى فى قلق :- ما العمل اذن ؟ ... ماذا أستطيع أن أفعل لاصلاح الأمور .

- أنصحك بأن تبتعدى عنه فحسب حتى تنتهى الانتخابات . حاولى الا تظهرى معه فى أى مكان اذا كان ذلك مستطاعا .

أسرعت تقول :

أعدك بذلك ، وأشكرك اذ نبهتنى يا كابتن نوريز . ما كنت أظن شيئا كهذا أبدا . لقد كان رائعا معى .

ونهضت ، وكان يمكن أن يقف الأمر عند هذا الحد لو لم يقع اختيار جون جابرييل على هذه اللحظة بالذات لكى يدخل ، وقال :

- آه . علام تتآمران معا ؟ ... اننى قادم من اجتماع وقد تكلمت حتى بح صوتى . ألا تقدم لى كأسا من الشيرى ؟يجب أن أذهب بعد ذلك للقاء بعض الامهات ، ولا أريد أن تفوح منى رائحة الخمر .

قالت ميللى :- يجب أن أنصرف الآن . الى اللقاء يا كابتن نوريز .. الى اللقاء يا ميجور جابرييل .

قال جابرييل :- أنتظرينى لحظة سأرافقك الى بيتك .

- كلا ، كلا . أرجوك . اننى على عجل من أمرى .

- لا داعى لأن أشرب الشيرى اذن .

- أرجوك .

وكانت مضطربة الوجه بادية الانزعاج :

- من الأوفق الا تأتى ... اننى أفضل العودة وحدى .

وخرجت وهى تكاد تجرى . وتحول جابرييل الى فجأة وقال :

- هل قيل لها شئ ؟ ... من الذى تكلم ؟ ... أهو أنت ؟

- نعم . أنا .

- ما الذى يدعوك الى التدخل فى شئونى ؟

- اننى لا أعبأ بشئونك اطلاقا انما هى شئون الحزب .

- اذا أردت الحق بها .

- لماذا تدس أنفك فى الأمر اذن ؟

- مادمت تسأل فذلك لاننى أشعر بود كبير نحو ميللى بارت ، واذا هى تصورت فيما بعد أن فشلك فى الانتخابات يرجع اليها أو الى صداقتك لها فسترجع على نفسها باللائمة ، ولن تغفر لنفسها ذلك أبدا .

- ان صداقتى لها لن تمنعنى عن الفوز .

- هذا جائز ... ولكننى أخشى الا تقدر السوء الذى قد تسببه الفضيحة .

هز جابرييل رأسه وقال :

- من الذى طلب منك أن تتحدث اليها .

- مس بيجهام كارتريس والليدى تريسليان .

- هاتان الحيزبونتان ... والليدى سنت لو هى الأخرى طبعا .

- كلا . انها لم تتدخل فى الأمر .

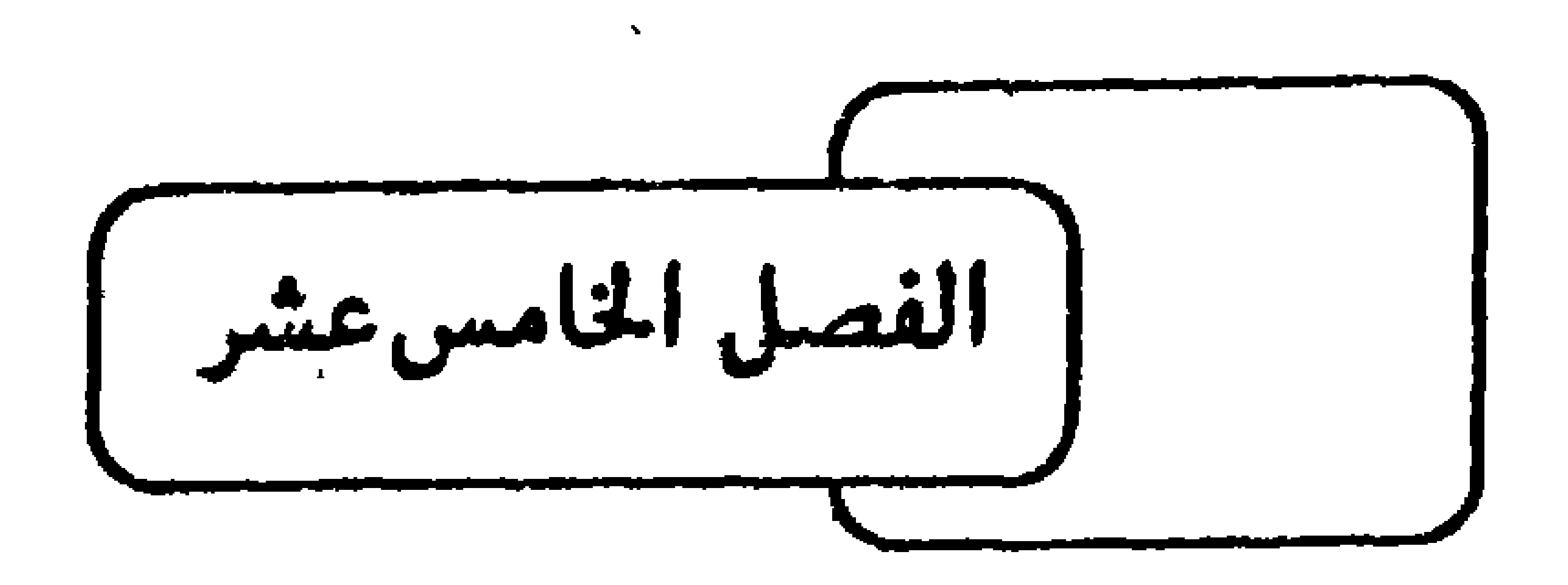
- لو أنها تدخلت لأمسكت بميللى وأخذتها معى لقضاء عطلة الأسبوع غير عابئ بأى شئ .

- انها لتكون فكرة رائعة ... ومع ذلك فقد كنت أعتقد انك تريد أن تفوز .

راح يضحك وقد وجد بشاشته فجأة وقال :

- لا تخشن شيئا . سأفوز فوزا ساحقا .

* * *



الفصل الخامس عشر

كانت تلك الليلة من أجمل ليالى الصيف كله ..وهرع الأهالى جميعا الى الجرانج.. وبعد أن انتهت مباراة الهويست تبعتها حفلة راقصة .

وكانت تيريزا قد دفعت عربتى الى مكان أستطيع منه أن أرى كل شئ .. وكان الجميع مرحين ، وكان جابرييل فى أحسن حالاته .. واختلط بالجمهور ، وراح يروى القصص ، ويثرثر فى كل مكان ، ويلقى بالنكات ، وبدأ هادئا وسعيدا جدا .. وكان ظريفا مع السيدات ، وانتقلت العدوى منه الى غيره من الرجال وسار كل شئ على ما يرام .

وكانت الليدى سنت لو من بين الحاضرين ، فجلست مهابة جليلة .. وكان الجميع يرون فى وجودها بينهم شرفا كبيرا لهم ، وقد اكتشفت فى تلك الليلة انها مرهوبة الجانب ومحبوبة من الجميع فى نفس الوقت .

بيد انها لم تقض وقتا طويلا فى الحفلة ، فقد انصرفت هى وأختها وزوجة أخيها فى وقت مبكر ، وتركن ايزابيللا لمساعدة تيريزا ومسز كارسليك وغيرهما من سيدات الجمعية .

وقضيت نحو عشرين دقيقة وأنا أتابع الحفلة ، ثم رفع روبير عربتى الى البيت من جديد .. ومضى بى الى الشرفة ، فقد كانت الليلة جميلة دافئة والقمر يلقى بأشعته على الكون ... وقلت له :

– دعنى هنا .

- حسنا .. هل تريد غطاء أو شيئا ما ؟

- كلا .. أن الجو جميل .

أومأ بوبير برأسه ودار على عقبيه وعاد الى الجرانج .

وبقيت مكاني أدخن في هدوء ، وطنين الموسيقى وأصوات الناس تأتيني من الجرانج ، ورحت أفكر في نفسي وفي جنيفر وفي السعادة التي حرمنا منها ، ولم ألبث أن رأيت شبحا أبيض يتسلل من الجرانج ، وبدا عليه التردد لحظة ، ثم أقبل نحوي ، وعرفت بالغريزة انها ايزابيللا .

وجاءت فجلست بجواري على المقعد الحجري ، وبقينا لحظة ونحن لا ننطق .. كنت سعيداً سعادة يقودها الكلام ، ولم أشأ حتى أن أفكر .

ولم تأت الفتاة بأية حركة الا عندما ذهبت نسمة وعبثت بشعرها ، فرفعت يدها الى جبينها ، وأزالت بذلك سحر الموقف .. وتحولت اليها ورأيتها عندئذ تنظر الى ضوء القمر فقلت :

- هذه ليلة تصلح لعودة ريوبيرت .

قالت بعد تردد يسير : - نعم .. كان يجب أن يأتي الليلة .. يجب أن يعجل بالمجئ .. يجب أن يفعل .

كان يشوب صوتها رنة من اليأس .. ولم أدر فيم كانت تفكر ، ولكنني أحسست بجزع .. وقلت أنصحها :

- لا ترهقي نفسك بالتفكير في عودته .. ان الأشياء التي نتمناها تأتي دائما على عكس ما نشتهي .

عادت تقول : - يجب أن يأتي ريوبيرت .

وازدادت رنة القلق في صوتها ، وكنت على وشك أن أسألها عن السبب عندما أقبل جون جابرييل وقال يخاطبني :

- أرسلتنى مسز نوريز لكى أسألك إن كنت تريد شيئا .

- كلا .. شكرا .

وبدا أنه لم يلحظ وجود ايزابيللا وقال : - يا لها من ليلة . ليلة من تلك الليالى التى كان يهفو اليها كازانوفا .

وخيم الصمت ، ولم نعد نسمع غير صوت الموسيقى الآتية من الجرانج .. وتحول الى ايزابيللا فجأة وقال :

- هل تتفضلين فتسمحين لى بهذه الرقصة يا آنسة .

نهضت ايزابيللا ، وأجابت فى لهجة مهذبة : - طبعا .. بكل سرور .

وابتعدا وهما متوتران دون أن ينطقا بكلمة أخرى ،

وعدت أفكر فى جينفر واستعدت صورتها فى ذهنى أين هى الآن .. ؟ وماذا تفعل ؟ هل هى سعيدة ؟ أم حزينة ؟ .. هل وجدت شخصا آخر غيرى ؟ .. وددت لو أن يكون ذلك .. وددته من سويداء قلبى .

ومر الوقت مسرعا وأنا غارق فى أفكارى ، وفجأة سمعت وقع أقدام تصعد الشرفة.. وأقبل جون جابرييل ، وكان يترنح قليلا .. وتساءلت هل هو سكران .. وتوقف أمام عربتى .. وأثارت هيئته دهشتى .. وعندما تكلم كان صوته غليظا خشنا وكلماته مرتبكة .. وكان كل ما فيه يدل على أنه ثمل ، ولكن لم يكن الشراب هو السبب .. وضحك ضحكة سكير وقال :

- هذه الفتاة .. هذه الفتاة .. قلت لك دائما أنها ليست خيرا من غيرها .. رأسها فى مستوى النجوم ؟ هذا جائز .. ولكن قدميها فوق الأرض كالجميع .

قلت فى حدة : - عمن تتكلم .. ؟ هل أنت سكران ؟

ضحك ثانية وقال : - كلا .. لست سكرانا ، ولم أتناول أى شراب ، ولكن هناك أشياء تسكر أكثر من الشراب نفسه .. هذه الفتاة الوقحة .. انها رفيعة المقام لكى

تختلط بعامة الشعب حسنا .. اننى علمتها كيف تنظر الينا عن كثب اننى دحرجتها من قاعدتها وأظهرتها على حقيقتها .. كنت قد قلت لك انها ليست قديسة ، خصوصا ولها مثل هذا الفم ، وأرجوك أن تصدق انها كغيرها من البشر .. مثلى ،مثلك .. وما عليك الا ان تضعهن بين ذراعيك فتذوب برودتهن .. انهن كلهن سواء .

صحت محنقا : - يا الهى ..ماذا فعلت ثانية : لو انك جرؤت وأهنت هذه الفتاة .

- فتاة ؟ .. هى ؟ .. أتظن ذلك ؟ .. انها امرأة يا صاحبى .. امرأة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى امرأة تعرف ما الذى تفعله تماما ، وتتصرف كامرأة تماما .

وراح يضحك فى جنون .. وظلت صدى ضحكته تلاحقنى لسنوات كثيرة .. ضحكة ثاملة بغيضة على السمع .. واحسست فى تلك اللحظة بحقد طاغ نحو جابرييل لم يخب أبدا .

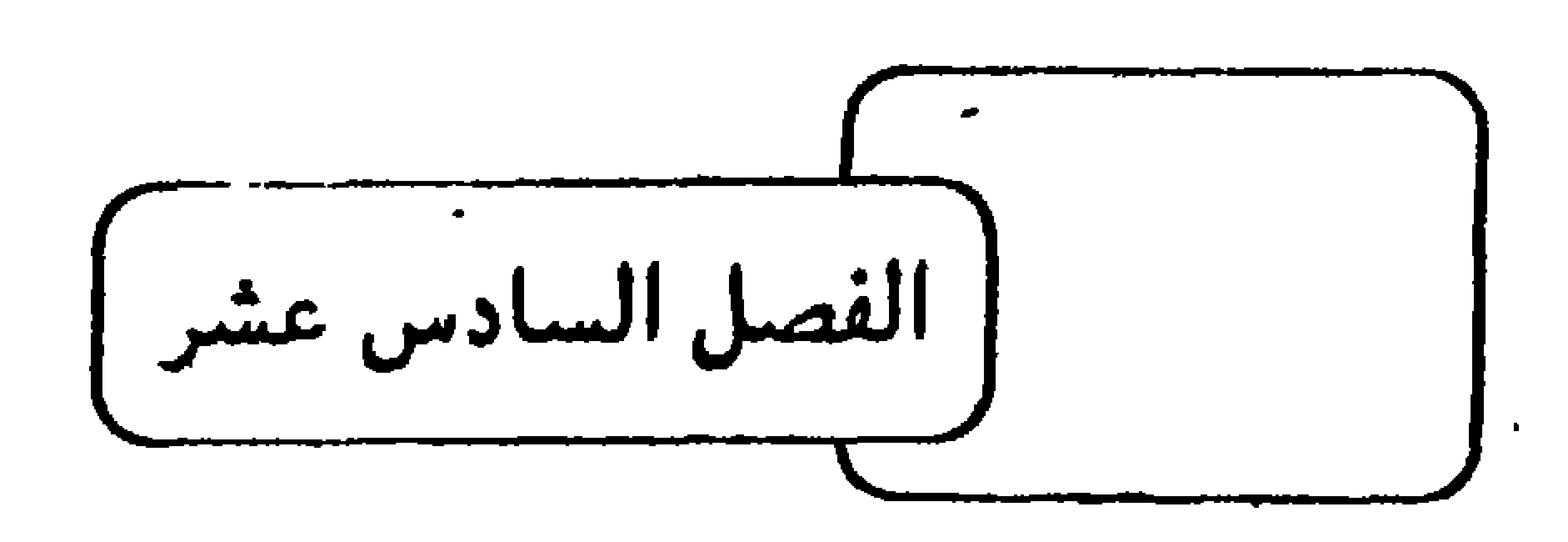
وفى نفس الوقت أدركت مدى عجزى وجمودى .. وما زاد فى اذلالى وايلامى أنه ألقى الى نظرة سريعة تنطق بالازدراء ، ثم مضى الى الجرانج وهو يترنح . وبينما كنت أمضغ مرارتى سمعت وقع خطوات خفيفة تصعد الى الشرفة .. وأقبلت ايزابيللا هذه المرة ، وجلست بجوارى على المقعد الحجرى ..

كانت حركاتها هادئة وثابته كالعهد بها دائما .. وجلست بجوارى فى صمت كما فعلت فى بداية السهرة .. ومع ذلك فقد لحظت فيها تغييرا .. وكان يبدو كما لو انها بحاجة الى من يدخل الاطمئنان الى قلبها ، فقد استيقظ فيها شئ فجأة وراح يهز كيانها ، وعرفت كذلك أنها كانت تتخبط فى نوع من القلق : ولكننى كنت أجهل ، بل لم يكن فى استطاعتى أن أخمن ما الذى يقلقها .. ولعلها هى نفسها لم تكن تعرف ذلك .

وتمتمت أقول فى كلمات متقطعة : ايزابيللا .. عزيزتى .. هل حدث شئ خطير ؟ ولم أكن أدرى اطلاقا ما الذى أعنيهبسؤالىهذا :.وأجابتنى بعد لحظة : لا أدرى .

وبعد قليل دست يدها فى يدى .. وكانت حركة جميلة تدل على مبلغ ثقتها بى .. حركة لم أنسها أبدا .. ولم نتبادل أية كلمة .. وبقينا هكذا نحو ساعة ، ثم بدأ الناس يخرجون وينتفضون وهم يهنئون بعضهم البعض بنجاح الحفلة ، وعادت ايزابيللا الى القصر فى سيارة احدى السيدات .

* * *



الفصل السادس عشر

حسبت ان جابرييل سوف يتجنبنى فى الأيام التالية . ولكنني لم أكن أعرفه حق المعرفة لأنه أقبل الى غرفتى فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى وقال :

- كنت أرجو أن أجدك بمفردك .. أشعر اننى تصرفت كالمجنون فى الليلة الماضية .

- قل ما شئت ، ولكنك بالنسبة لى وغد قذر يا جابرييل .

- ماذا قالت لك ؟

- لا شئ .

- هل كانت مضطربة ؟ .. أو غاضبة ؟ .. عليها اللعنة .. لابد أنها قالت شيئا ما ، فقد بقيت معك ساعة كاملة .

- انها لم تنطق بكلمة .

عجبا .. أننى لأنزل عما تبقى من عمرى لكى .. ولكنه أمسك عن الكلام فجأة ، ثم عاد يقول بعد لحظة : - أرجو الا تتوهم اننى أغويتها ، لأن شيئا من هذا لم يقع .. انما لم يخرج الأمر عن مجرد مغازلة .. وساعد ضوء القمر .. خاصة وهى فتاة .. كان يمكن أن يحدث هذا لأية فتاة غيرها .

لزمت الصمت ... ورد جابرييل على صمتى كما لو كنت قد تكلمت فقال :

- أنت على حق .. ليس هناك ما يدعو الى الفخر والمباهاة .. ولكن الغلطة غلطتها هى .. انها أصابتنى بالجنون بمجرد أن عرفتها .. بترفعها وتعاليها بحيث لم أستطع لمسها .. لهذا السبب بالذات غازلتها أمس ، ولم يكن هذا جميلا أبدا .. بل

كان أمرا مقززا .. ولكنها استجابت على الفور يا نوريز ، وصدقنى انها من لحم ودم .. مثلها مثل أية مومس تلتقطها مساء السبت ، وأظن أنها تكرهنى الآن .. لم يغمض لى جفن طوال الليل .

وكان يمشى جيئة وذهابا فى أرجاء الغرفة فى خطى غاضبة ثم سألنى من جديد :

- هل أنت واثق انها لم تقل لك شيئا ؟

أجبت فى برود : - كم مرة يجب أن أقول لك ذلك .

أخذ رأسه بين يديه فى حركة كان يجب أن تكون مضحكة ، ولكنها بدت لى محزنة بشكل عجيب وقال :

- لا أعرف أبدا فى أى شئ تفكر .. أننى لا أعرف عنها شيئا .. لقد ظلت جالسة بعيدة عنى تبتسم كما لو كانت ملكة فى عليائها ، بحيث اضطررت ان أجذبها الى .. كان لابد من ذلك لأننى لم أعد أستطيع هل تسمعنى ؟ .. لم أعد أستطيع الاحتمال .. ولو اننى استطعت أن اذلها وأهينها وان استمتع بعارها وأجرها معى الى الجحيم .

صحت به : - كفى .. كفى يا جابرييل .. هل تجردت من الأدب الى هذا الحد ؟

- بل الى أقصى حد ، وما كنت أنت نفسك لتكون على شئ منه لو أنك مررت بما مررت أنا به . وددت لو أنها لم تولد أبدا .

- لم أكن أظن ..

- أوه ، كلا .. ما كان فى مقدورك أن تظن أبدا ، فانك لا ترى الى أبعد من طرف أنفك .. انك اسوأ أنانى التقيت به فى حياتى ، ولا تحفل الا بنفسك وبمتاعبك الصغيرة .. ولو استمر الأمر على هذا فسلام على البرلمان وعلى كل شئ .

- أن البلد لتكون الرابحة عندئذ .

قال جابرييل فى لهجة محزنة : - الواقع اننى زججت بنفسى فى ورطة كبيرة .

لم أجب ، فقد تشبعت بحذلقته السابقة بحيث أحسست بشئ من الأرتياح وأنا أراه

على هذه الحال .

واحنقه صمتى ، وقد سرنى ذلك أيضا .. فقد أردت ذلك .. وقال :

-أننى أتساءل يا نوريز اذا كنت تدرك مدى تظاهرك بالفضيلة والعفة .. ماذا تظن أننى يجب أن أفعل ؟ .. هل أعتذر لها ؟ .. هل أقول لها اننى فقدت رأسى أو شيئا من هذا القبيل ؟

- لا شأن لى بهذا .. ان تجاربك الكبيرة فى حقل النساء يجب أن تنقذك من ورطتك .

- ولكن لم يسبق لى أية تجربة من فتاة .. مثلها .. لم يسبق لى هذا قبل الآن على الأقل .. هل تظن أننى جرحت شعورها .. ؟ أو أثرت اشمئزازها وانها تعتبرنى خنزيرا قذرا ؟

ومن جديد أحسست بسرور كبير وأنا أقول له أننى لا أدرى شعور ايزابيللا نحوه أو رأيها فيه .. وأردفت وأنا أنظر من النافذة .

- ولكن من السهل معرفة ذلك فها هى ذى آتية .

اضطرم وجهه وألقى نظرة مذعورة حوله .. ثم مضى فرقف أمام المدفأة فى هيئة غاضبة ، وقد باعد ما بين ساقيه ، وارتسمت على ملامحه نظرة غيرت سحنته تماما ، وسرنى أن أجد فيه شيئا من الابتذال والمهانة والبؤس وبدأ القول :

- لو أنها نظرت الى كما لو كنت حثالة أتت بها القطة من الحديقة .

ولم تنظر ايزيبللا اليه كما قال .. وانما بدأت بتحيتى ، ثم حيته هو بدوره ، وتصرفت مع كل منا بنفس الطريقة ..كانت هادئة ورزينة كعادتها ، وكانت قادمة برسالة لتيريزا ، وعندما عرفت أن هذه الأخيرة عند آل كارسليك أسرعت بمغادرة الغرفة وهى ترمينا بنظرة ظريفة .

وما أن أغلقت الباب خلفها حتى راح جابرييل يسب ويرميها بأقذع النعوت ..

وحاولت أن أوقفه ولكنني لم أفلح فقد صاح :

- اسكت يا نوريز .. ليس هذا من شأنك .. أقسم لك انني سأنال هذه الأميرة البغي حتى ولو فقدت الحياة .

ثم خرج من الغرفة كالمجنون ، وصفق الباب خلفه ، في عنف بحيث أرج البيت كله..

وأردت أن أتحدث مع ايزابيللا بعد مغادرتها لآل كارسليك ، فدققت الجرس وأمرت الخادم أن ينطلق بي الى الشرفة ... ولم يطل انتظاري فقد جاءت ايزابيللا ، وعبرت الشرفة في طريقها الى وجلست على المقعد الحجرى كعادتها ، وعقدت يديها الطويلتين فوق حجرها .

وما كنت لاسألها أى شئ في الوقت العادى ، ولكن فضولي كان قد استبد بي في ذلك اليوم .. وأردت أن أرى أية أفكار تدور في هذه الرأس النبيلة ، فقد رأيت في أية حالة كان جابرييل عليها .. ولكن لم تكن لدى أية فكرة عن الانطباع الذى تركه في ذهن ايزابيللا بعد أحداث الليلة السابقة .. هل كانت متأثرة ؟ .. كان لابد أن أتحدث معها في عبارات وجيزة مختصرة ، لان كل تلميح كانت نتيجته أن يحمل الى ملامحها تعبيرا بالفراغ .

سألتها أقول : - هل كل شئ على ما يرام يا ايزابيللا .

نظرت الى في هدوء واستغراب فقلت : - كان جابرييل شديد الاضطراب ، وأظن أنه كان يريد أن يعتذر لك عما حدث بالأمس .

قالت : ولماذا يعتذر ؟

- لأنه (وترددت) . .. لأنه يشعر بأنه اساء التصرف .

فكرت لحظة ثم قالت : - حقا ؟

ولم يبد عليها أى ضيق أو ارتباك .. ودفعنى الفضول الى الاستمرار في

استجوابها على الرغم من ان هذه المسألة لم تكن تعنينى فقلت :

- ألا ترين انه اساء التصرف ؟

قالت : - لا أدرى .. لا أدرى حقا .

وأردفت تقول فى شبه اعتذار : - لم أجد من الوقت ما يكفى لكى أفكر فى ذلك بعد .

- ألم يجرح شعورك ويخيفك أو يضايقك ؟

وازداد فضولى ، وبدأ أنها راحت تدير سؤالى وتقلبه فى ذهنها وأجابتنى أخيرا :

- كلا .. لا أظن .. لماذا ؟ .. أكان ينبغي أن أتضايق ؟

وهكذا قلبت الوضع بسؤالها هذا ، لأننى لم أجد ما أرد به عليها .. كيف يجب أن تتصرف فتاة عادية حين تجد نفسها لأول مرة فى حياتها .. لا أمام الحب ولا الحنان أمام شهوة جنسية مفاجئة لرجل ؟

كنت أشعر دائما ، أو لعلنى كنت أريد أن أشعر أن هناك شيئا عذريا ينبعث من ايزابيللا ، فهل ترانى أخطأت .. ؟ لقد تكلم جابرييل عن شفتيها مرتين فرحت انظر اليها .. كانت الشفة السفلى مكتنزة ذات حمرة جميلة عادية وكانت تكسبها سمة شهوانية مشبوبة .

هل أيقظ جابرييل فيها شيئا .. ؟ وكيف استجابت له ؟ .. بدافع اللذة أم بدافع الغريزة ؟ .. وهل ساهم تحفظها الماضى فى هذه الطفرة ؟

وألقت ايزابيللا عندئذ سؤالا .. سألتنى بكل بساطة اذا كنت أشعر بميل نحو الميجور .

ولو اننى كنت فى وقت عادى لترددت قبل أن أبدى رأيى بدون شك ، ولكننى لم أتردد مطلقا فى تلك اللحظة وأجبت بكل وضوح :

- كلا .

قالت فى تفكير : - أن مسز كارسليك لا تميل اليه هى الأخرى .

وساءنى أن أرى مسز كارسليك تشاركنى احساسى .. وقلت أسألها :

- وأنت يا ايزابيللا ؟ .. هل تميلين اليه ؟

لزمت الصمت مدة طويلة . ثم انطلقت الكلمات من شفتيها أخيرا ، وأدركت انها تنطلق من أعماق حيرتها فقالت :

- أننى لا أعرفه ولا أدرى عنه شيئا ، وأنه لأمر فظيع أن تستطيع حتى التحدث مع أحد .

واعترف أنه تعذر على أن أدرك رأيها هى بالذات ، لأننى عندما كنت أشعر بميل نحو امرأة كانت الرغبة فى الفهم المشترك هى الطعم دائما ، وشعرت بوجود ميل بيننا وأحيانا ما يكون هذا الميل خاطئا ، والسرور بوجود توافق بين هذه الميول أيا كان نوعها

وكان جابرييل ، على حد قول تيريزا رجلا يروق للنساء ، ولعل ايزابيللا أحست هى نفسها بالميل اليه ، ولكنه كان بالنسبة لها حتى هذه اللحظة رجلا غريبا أجنبيا ، أفلا يمكن أن تكون قد انجذبت اليه عن حب لا عن رغبة ؟

لم يكن كل هذا الا مجرد تخمين ، ولكن ايزابيللا لم تكن تستسلم للتخمين ، وكان هذا مبعث حنق جابرييل . ومرت بى لحظة رثيت له أثناءها ، ثم عادت ايزابيللا فتكلمت وسألتنى بلهجة الجد هل أعرف لماذا تذبل الزهور الحمراء سريعا فى الماء .

وأخذنا نتحدث فى ذلك الأمر وسألتها أخيرا عن نوع الزهور التى تحبها فقالت :

- الحمراء والقرنفل والبنفسج .

بدأ لى اختيارها هذا عجيبا .. لماذا ذكرت هذه الزهور بالذات ؟ .. وأجابتنى بأنها لا تعرف .. فقلت :

- أنت كسوله يا ايزابيللا وتعرفين ذلك جيدا ولكنك لا تريدين أن تتكبدى مشقة

التفكير .

- هل تعتقد ذلك ؟ .. حسنا .. سأحاول .

واعتدلت فى جلستها بجوارى وركزت أفكارها وقالت أخيرا :

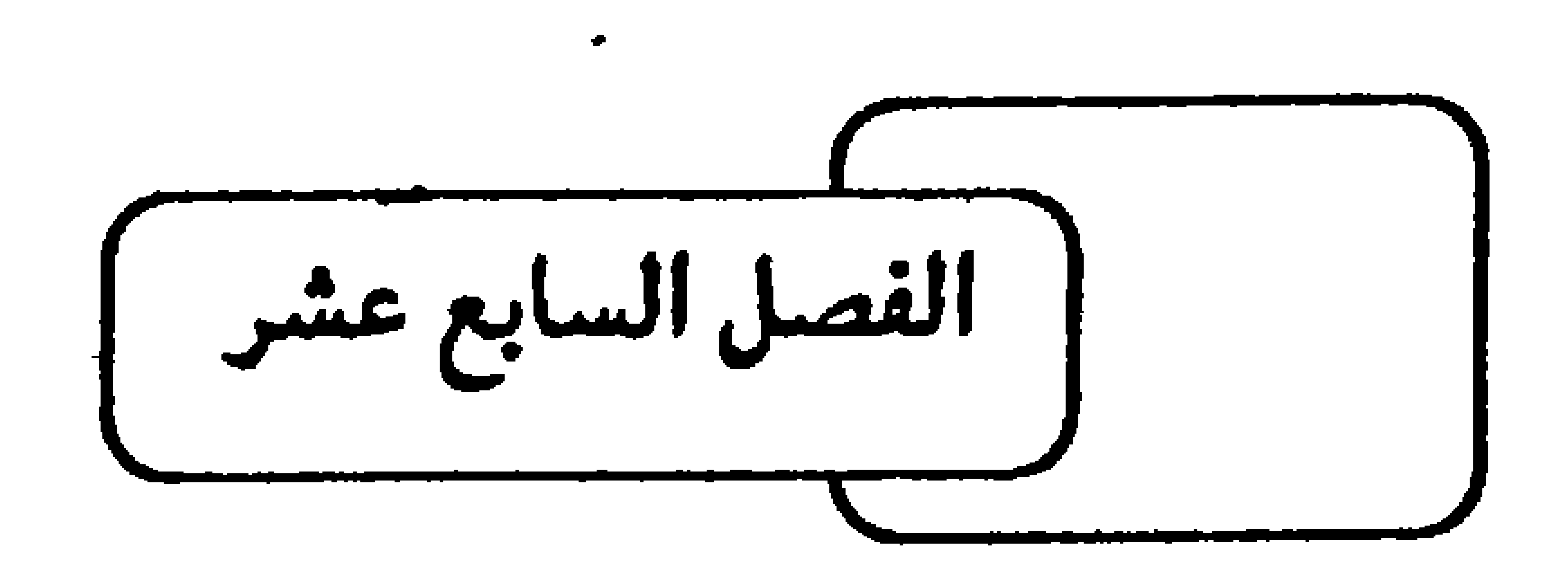
- ذلك لأنها تعطينى احساسا بأنها ناعمة الملمس ولأنها ذات أريج جميل .. ان الوردة وهى على شجرتها تكون فى أوج جمالها وبهجتها فهى تشعر بأنها معلقة فى الهواء وبأنها تريد أن يراها الناس لذاتها .. وعندما توضع وحدها فى كوب ماء فانها بوضعها هذا تكون أجمل ولكن جمالها لا يبقى طويلا ، لأنها سرعان ما تذبل وتموت . وليس هناك أية وصفة لا طالة حياتها وانى لأود الا تموت أبدا .

لم تتحدث ايزابيللا معى مثل هذا الحديث الطويل أبدا .. كانت تؤم الحديث عن الزهور أكثر من حديثها عن جون جابرييل .

كانت لحظة لن أنساها أبدا كما سبق القول .. بلغت فيها صداقتنا الذروة .

ومن المكان الذى كنت أجلس فيه كنت أستطيع أن أرى الأرض الممتدة بيننا وبين قصر سنت لو .. وفى هذا الطريق كان هناك رجل يتقدم نحونا .. كان يرتدى ثيابا عسكرية وعلى رأسه بيريه .. وعرفت فى شئ من الحزن ان اللورد سنت لو قد عاد .

***



الفصل السابع عشر

يتوهم المرء فى بعض الأحيان أن أحداثا معينة قد وقعت له مرارا قبل ذلك بطريقة مرهقة .. وقد خامرنى هذا الاحساس وأنا أرى اللورد سنت لو وهو يتقدم نحونا .. وخيل لى أننى وجدت نفسى مرارا وتكرارا جالسا مكانى جامدا عاجزا عن الحركة ، وأنا أنظر إلى اللورد وهو يجتاز المراعى .. حدث هذا أكثر من مرة وسوف يحدث ثانية وسيظل يحدث حتى الأزل .

وقلت فى قرارة نفسى :- ايزابيللا .. هذا وداعنا .

ومرة أخرى تغير الجو السحرى بأوهامه وأكاذيبه .. مرة أخرى أوشك أن اقرأ السطور الأخيرة لقصة طالما قرأتها قبل ذلك .

تنهدت وأنا أنظر إلى ايزابيللا .. لم يرق إليها الشك فى أن القدر يقترب منها ، وراحت تتأمل يديها الطويلتين الضيقتين البيضاويتين ، ولعلها كانت لاتزال تفكر فى الزهور الحمراء والقرنفل والبنفسج .

قلت فى حرص : ايزابيللا .. ان بعضهم قادم .

رفعت عينيها فى بطء وفى غير اهتمام وادارت رأسها .. وتوتر جسدها ، ثم عرتها رعشة خفيفة وقالت :

- ريوبيرت .. ريوبيرت .

وقد كان فى الإمكان أن يكون القادم شخصا آخر غير ريوبيرت ، إذ كيف كانت تتبع التأكد وهو فى مثل هذه المسافة الكبيرة .. ولكنه كان ريوبيرت فعلا .

وعبر السياج بعد تردد يسير ، ثم صعد الدرجات المؤدية إلى الشرفة وهو يأتى

بحركة كما لو كان لكى يعتذر ، إذ ان قصر بولنورث كان ملكا لأناس لايعرفهم .. ولكن قيل له فى القصر أنه سيجد ابنة عمه عندنا .

ونهضت ايزابيلا فى اللحظة التى ظهر فيها فى الشرفة ، وتقدمت نحوه خطوتين ، فى حين أسرع هو إليها .

وتلاقيا فى هدوء وكل منهما ينطق باسم الآخر ، ووقفا وقد تشابكت أيديهما ، وأحنى هو رأسه كما لو كان يضفى عليها حميته .

كان مسلكهما سليما لاغبار عليه . ولو أنه كان منظرا سينمائيا لكان منظرا ممتازا لايحتاج إلى إعادة التصوير ، ولو انهما على خشبة المسرح لما استطاع أى مشاهد فوق الخمسين ان يتأملهما إلا ويشعر بغصة فى حلقه وبالدموع فى عينيه ويتمنى لو أن يعود شابا من جديد ، فقد كان منظرا غراميا مائة فى المئة .. وتحقق الحلم الذى ظل يراود كلا منهما سنوات طويلة ، فقد كان ريوبيرت يعلل النفس بالعودة إلى سنت لو لكى يتزوج ايزابيلا ، وانهما سيعيشان بعد ذلك سعيدين فى قصر سنت لو .. سعيدين إلى الأبد .

وقد وجد كل منهما مكافأته على إيمانه وثقته ، ورأى حلمه يوشك أن يتحقق . ومضت الدقيقة الذهبية واستدارت ايزابيلا إلىّ متألقة الوجه ، وقالت تخاطب ريوبيرت :

– هذا هو الكابتن نوريز .

ثم خاطبتنى قائلة : وهذا هو ريوبيرت .

تقدم لو نحوى ، وضغط يدى ، واستطعت أن أراه عندئذ بكل حرية .. ومازلت واثقا حتى الآن بأننى لم أر من يفوقه وسامة ودماثة .. كان متناسق القسمات ، عريض الكتفين ، نحيل الخصر ، مستقيم الساقين ، عذب الحديث ، وينطق وجهه بالذكاء وصدق الإرادة وقوة الشكيمة .

اعتذر لقدومه إلى بولنورث هكذا فجأة دون سابق إنذار ، وقال أنه ماأن هبط المطار حتى استقل سيارة أجرة ، وأسرع إلى سنت لو ، حيث قالت له الليدى تريسليان أين يجد ايزابيللا .

وكان ينظر إلى ايزابيللا وهو ينطق بكلماته هذه ، ثم غمز لها بعينه فى رقة وقال :

- انك ازددت جمالا منذ أيام الدراسة ، فما زلت اتخيلك وأنت طفلة صغيرة يملأ النمش وجهك وترسلين ضفيرتيك خلف ظهرك .

قالت فى تفكير : لاريب أننى كنت بشعة جدا .

وأبدى اللورد سنت لو رغبته فى اللقاء بأخى وزوجته وهو يقول .. أنه شديد الإعجاب بلوحات روبير .

وقالت له ايزابيللا ان تيريزا موجودة عند مستر ومسز كارسليك ، وأنها ستمضى لإخبارها بقدومه ، وسألته ان كان يريد أن يرى مستر كارسليك وزوجته أيضا .

ولكن ريوبيرت لم يشأ أن يلتقى بهما محتجا بأنه لايعرفهما ، وأنه لايذكر أنه رآهما وهو طفل فقالت ايزابيللا :

- أظن أنه لابد لك أن تراهما على كل حال ، فهما يتلهفان لرؤيتك ، بل أن الجميع متلهفون لرؤيتك .

لم يخف اللورد الشاب تخوفه قائلا أنه قدم فى أجازة لمدة شهر واحد ، فسألته ايزابيللا .

-وهل لابد لك من العودة الى الميدان ؟

- نعم .

- ولكن الا تعود للاقامة هنا بصفة مستديمة بعد أن تنتهى الحرب مع اليابان ؟

- هذا رهن بالظروف وبمجرى الأحداث .

وسادت بينهما لحظة صمت . كما لو أن كلا منهما قد خطر له نفس الخاطر ، وكما

لو أن انسجاما وتفاهما مشتركا جمعا بينهما .

ثم مضت ايزابيللا لكى تأتى بتيريزا ، وجلس روبيرت بجوارى ، وراح يتحدث الى فتكلمت عن الحياة العسكرية . ومنذ ان انتقلت للاقامة فى بولنورث وأنا أعيش فى جو نسائى محض . ومن ناحية أخرى كانت مدينة سنت لو من تلك الجزر الصغيرة التى يجعلها موقعا بعيداً عن أخطار الحرب ، ولم نكن نعرف من أخطار الحرب الا ما نسمعه من هذا أو من ذاك ، ولم يكن يأتيها من الجنود الا قلة ، وكانوا جميعا من أبنائها كانوا يأتون لقضاء أجازة قصيرة ثم يعودون .

وقد وجدت نفسى غارقا فى خجج من السياسة والأوساط السياسية فى الأماكن التى تشبه سنت لو على الأقل كلها نسائية . وهى وحدها دنيا من الاحتمالات والمناورات والمظاهر والمؤثرات والحجج التى تكون فى مجموعها قدرا كبيرا من الروتين المنزلى الذى هو فى حد ذاته أساس حياة المرأة .. دنيا صغيرة لا يظهر فيها العالم الخارجى بكل حدته وعنفه الا كما تظهر القماشة الخلفية على خشبة المسرح وأما هذه القماشة الخلفية لحرب عالمية مازالت رمحاها تدور .. كنا نمارس معاركنا الحزبية . وكان هذا هو الحال فى كل أنحاء انجلترا تحت شعارات الديمقراطية والدولية والتأميم وغيرها .

ولكن الانتخابات الحالية كانت تتذبذب كما هى العادة نتيجة لدوافع خاصة لها أكثر من أهمية الشعارات المذكورة .

أى حزب يمكن أن يضمن لى منزلا آمنا .. ؟ وأى حزب يعيد الى ابنى وزوجى من ميدان الحرب ؟ ... وما هو الحزب الذى يدبر لأولادى مطافا بعد أن تنتهى الحرب . وما هو الحزب الذى يضمن لى ألا تقوم أية حرب فى المستقبل وتضمن السلام لأولادى ، ومن الذى يساعدنى فى فتح محلى وفى اعادة بناء بيتى ؟ من الذى يزودنى بطعام أكثر وثياب ومناشف وصابون ؟

ان تشرشل بطل ، وقد كسب الحرب ، ووقانا من الغزو الالمانى . وسأصوت له .

ووليا‌هام مدرس والتدريس لابد منه للاولاد . وسيعمل الأحرار على اعادة البناء ، وهم يقولون ذلك . وتشرشل لن يعيد أولادنا سريعا مثلهم ، واذا هم أمموا المناجم فسوف نجد فحما أكثر .

وأنا أحب الميجور جابرييل فهو رجل محنك ، والحياة تثير اهتمامه ، وقد جرح فى الحرب مرتين ، واشترك فى كل الميادين ، ولم يبحث عن الأمان خلف وظيفة صغيرة وهو يعرف آراءنا عن الجنود الذين يحاربون هناك ... انه هو الرجل الذى يلزمنا الآن أكثر من ذلك المدرس .

وما هى السياسة اذا لم تكن مجموعة من الأكواخ فى السوق العالمى ، كل منها يعرض بعض الدجل لشفاء كل الأمراض كما يقولون ، والجمهور يزدرد كلامهم المنمق بكل شراهة ونهم .

تلك هى الدنيا التى كنت أعيش فيها منذ عودتى الى الحياة . ولم أكن أعرفها قبل ذلك ولم تكن لتخطر على بالى . عالجتها قبل كل شئ فى شئ من الازدراء وصورتها فى ذهنى كصورة من الخداع ، ولكننى بدأت أفهم الآن على أى أساس تقوم وبدأت أفهم حقيقتها المشبوبة وأملها الكبير فى البقاء .. دنيا نسائية لا يعرفها الرجل ، فالرجل مازال هو القناص الأزلى ... حر خشن جائع فى أغلب الأوقات يشق طريقه وهو يجر خلفه المرأة والولد لا حاجة به الى السياسة فى هذه الدنيا ، دائما هو بحاجة الى نظرة يقظة ورد فعل سريع وترتيب يضمن الصيد .

ولكن العالم المتحضر يعتمد على الأرض التى تنمو وتنتج فيبنى البيوت ويملؤها بممتلكاته . والبقاء فى هذه الدنيا الأمومية الخصبة معقد جدا ولابد له من آلاف الفرص سواء فى النجاح أو الفشل . والنساء لا تهمها النجوم وانما يهمها أربعة جدران متينة تقيها البرد والقدر فوق النار والأولاد يرقدون فى أمان .

كنت أود لو أستطيع الفرار من هذا الجو النسائي ، ولم يكن أخي روبير ليستطيع مساعدتي لانه فنان ، والفنان مشغول دائما بالخلق والابداع . أما جابرييل فقد كان رجلا وجوده يمزق الأقمشة الدقيقة التي تنسجها الدسائس ، ولسوء الحظ لم يكن أي منا يتعاطف مع الآخر .

ولكنني وجدت نفسي في مكان الحق مع ربوبيرت ... العلمين وسيسل والقاهرة وروما .. كان في مقدورنا أن نتبادل نفس الأحاديث ، وان نجد روابط مشتركة . كان في مقدوري ان أعود الى الوراء وأصبح رجلا عاديا في وقت الحرب ، فرحا ، مسرورا لا يهمني موت محتمل .

نعم ، كانت صحبة ربوبيرت سنت لو تروق لي كثيرا . ولم يكن هناك أي شك في أنه ضابط ممتاز يتمتع بشخصية جذابة جدا بدا لي متوقد الذكاء هادئ الطباع ، وان كان به ميل بسيط الى الدعابة كان يكسبه رقة فوق رقته . صفوة القول ، كان من هؤلاء الرجال الذين يعرفون كيف يتصرفون في الملمات .

ولم تلبث تيريزا ان انضمت الينا ، وجاء رويد معها . وأطلعته تيريزا على الدوامة السياسة التي تعيش فيها . وأعترف لها ربوبيرت بأنه لا يحب السياسة . وأقبل كارسليك وزوجته بدورهما ومعهما جابرييل . وتظارفت مسز كارسليك . وتكلم زوجها وأبدى ارتياحه بلقاء اللورد سنت لو ، وقدم اليه الميجور جابرييل .

وتبادل ربوبيرت وجابرييل التحية ، وتمنى ربوبيرت لهذا الأخير النجاح . وكان الأثنان يقفان جنبا الى جنب بعكس الضوء ، ورأيت عندئذ التناقض العجيب بينهما . فقد كان ربوبيرت وسيما في حين كان جابرييل قصيرا ودميما وكان ربوبيرت ذا شخصية جبارة ومعتدا بنفسه يدل كل ما فيه على الاستقامة والأمانة ، لا يحجم أي تاجر مهما كان متشككا في اعطائه كل ما يريد وهو واثق انه سيحصل على حقه غير منقوص . أما جابرييل فقد كان على النقيض من ذلك ... كان يبدو منفعلا وراح

يتأرجح على قدميه فى ارتباك ظاهر ، وبدا صورة للرجل المسكين المبتذل الذى لا يستطيع الانسان أن يأمن جانبه .

وكان روبير واقفا بجوارى فلفت نظره فى صوت خافت الى الرجلين فأدرك ما أعنيه، ونظر الى كل منهما فى اهتمام . وكان جابرييل لا يزال يتأرجح على قدميه ، وكان لابد له من أن يرفع رأسه لكى يخاطب ريوبيرت ،وكان الفعل ذلك على مضض ظاهر .

وكان هناك شخص آخر يراقب الرجلين .. وأعنى به ايزابيللا ، فقد راحت عيناها تتنقلان بين الرجلين ، واستقرتا على ريوبيرت أخيرا ، وأنفرجت شفتاها ، وطوحت برأسها الى الخلف فى أنفة واباء ، وقد اضطرم وجهها وعيناها ببريق راق لى كثيرا .

***



الفصل الثامن عشر

لم يضع ريوبيرت وايزابيللا الوقت فى اتخاذ قرار ، بل أظن أنهما اتخذا هذا القرار فى نفس اللحظة التى التقيا فيها فى الشرفة بجوارى .

وأظن أن كلا منهما أحس بارتياح كبير وهو يرى الحلم الذى ظل يراوده طوال هذه المدة قد تغلب على محنة العودة ، وقد اعترف لى ريوبيرت بعد ذلك بأيام أنه قد تعلق بهذا الحلم كثيرا .

وكنا قد أصبحنا ، أنا وهو ، صديقين حميمين . وكان سعيدا بصحبتى له ، خاصة وأنه بدأ يمل الجو النسائى الذى يطبق على قصر سنت لو لان السيدات الثلاث غمرنه بحنانهن وعطفهن الى حد كبير . وقد ضايقه ذلك وآثر أن يأتى من وقت لآخر لكى يتجاذب معى أطراف الحديث وقال لى ذات يوم :

- اننى تصرفت مع ايزابيللا تصرفا أحمق ، وأنه لمن العجيب أن يقرر المرء الزواج بطفلة ، ثم يتشبث بهذا القرار طول الوقت .

قلت له اننى أعرف حالات كثيرة من هذا النوع ، فقال فى تفكير :

- الواقع اننى أظن أن بينى وبين ايزابيللا .. أعنى اننى كنت أعتبرها جزءا منى... جزءا منيعا كان لابد لى من الحصول عليه ذات يوم لكى أشعر باننى رجل كامل ... والحق انها قصة عجيبة ... ولكن ايزابيللا بالذات غريبة الأطوار .

وألقى حوله نظرة وهو يدخن ثم استطرد يقول :

- اننى أحب هذا المكان ... وقد أحببته دائما ومع ذلك فانه ليسرنى أن شببت فى نيوزيلند وان بقيت فيها إلى ان التحقت بجامعة أتيون . ولكننى كنت أعرف دائما .

أننى سأعود هنا ، وأننى سأتزوج ايزابيللا ، ونعيش هنا معا حتى آخر العمر .

وضغط على أسنانه .. وهو يقول فى قوة :

- وسنتزوج هنا ، على الرغم من الضرائب ونفقات الصيانة والمصاريف الأخرى ، وعلى الرغم من التهديد بتأميم الأراضى ... لان هنا بيتنا ... بيتى أنا وايزابيللا .

وفى اليوم الخامس لعودة اللورد سنت لو أعلنت الخطبة رسميا ، وجاءتنا الليدى تريسليان وقالت أن الخبر سيظهر فى صحيفة التايمز فى صباح اليوم التالى ، وأردفت تقول انها سعيدة جدا .

وكانت أسارير وجهها المتورد ترتجف من الوجد والنشوة . وقد انتقلت سعادتها الينا ، وكشفت لنا عن كل ما افتقدته هى فى حياتها . وكانت مسز بيجهام سعيدة هى الأخرى ، ولكن تصرف الليدى سنت لو أثار اهتمامى أنا بالذات ولم أفهم له معنى فى بادئ الأمر ، الا اننى لم البث أن أدركت كل شئ ، فقد كانت تتصرف كما لو كانت قد أحرزت نصرا كبيرا ضد غريم خفى . وبزواج اللورد سنت لو وايزابيللا يحق لها ولمسز بيجهام والليدى تريسليان البقاء فى القصر بصفة رسمية حتى آخر أيامهن ، وأعترفت لى قائلة :

- أصبح كل شئ الآن على ما يرام .

ثم ندت عنها زفرة طويلة تنم عن الارتياح كما لو كانت تريد أن تقول " أستطيع الآن ان أرقد فى سلام " . وعرفت بذلك انها كانت ترتجف وتخاف وان خوفها أصبح الآن فى طيات الماضى .

ويجب أن اعترف اننى مثلها فى ذلك . كنت أرى فرص زواج روبيرت بابنة عمه ضئيلة جدا . وكان يحتمل جدا ان يختار له زوجة أخرى أثناء فترة الحرب ، فان الحروب تشجع الزيجات غير المتوقعة . وحين نمعن الرؤية والتفكير نرى أن زواج ايزابيللا كان يمكن الا يتم أبدا .

وقد أردت أن أعرف رأى جون جابرييل ، لانني لاحظت أنه لا يحب اللورد سنت لو، فقد كان الجميع يلتفون حول ريوبيرت ولا يعيرونه هو أقل اهتمام اذا ما جمع بينهما مجلس ما . كانت المدينة كلها تلتف حول الوارث الشرعى ويفخرون بعراقة اللقب ويتذكرون والد اللورد الشاب . وقال جابرييل ردا على سؤالى :

- انهم أغبياء ... كان اللقب سيأتيهم بما يحتاجون اليه من غذاء وكساء .

وسألته :- ولكن ما رأيك أنت بالذات ؟

ضحك وقال :- ان ايزابيللا تريد أن تتزوج اللقب لا الرجل ، ولها الحق فأنا نفسى أحب الألقاب ، وشد ما تمنيت لو أننى ولدت فوجدت نفسى اللورد سنت لو .

- انك تثير دهشتى .

قال فى صوت حالم :

هناك أشياء لا يمكن أن يحصل عليها المرء الا عن طريق الميلاد ، واننى لا أتنازل عن الكثير لكى تكون لى ساقان كساقيه .

تذكرت الملاحظة التى أبدتها الليدى تريسليان بخصوص ساقيه عندما رأته لأول مرة ، وأدركت عندئذ مدى حدة ذهن جابرييل ، وسألته ان كان يخشى ان يسلبه اللورد بعض ميزاته فقال :

- ثم اننى لا أحفل به لأنه ليس غريبا سياسيا . وانما وجوده معنا يساهم فى الدعاية لحزب المحافظين .

وأردف يقول :- ثم انه لا يستطيع أن يرشح نفسه لأنه من زمرة النبلاء ، واذا خطر له أن يفعل فلابد أن ينضم الى صفوف العمال .

- لن يفعل هذا طبعا لأنه صاحب أطيان وأملاك .

- وان تأميم الأراضى لا يطيب له طبعا . ولكن الأمور منقلبة الآن رأسا على عقب، فان المزارعين أو العنصر القوى لطبقة العمال من المحافظين والشباب المثقف

من ذوى الشهادات تراهم من العمال خاصة اذا كانوا من الأثرياء وأظن ان ذلك لأنهم لم يمارسوا عملا بأصابعهم العشرة ، ولانهم لا يعرفون شيئا عما يحتاجه العامل .

– هل أستطيع أن أعرف ما الذى يحتاجه العامل .

– انه بحاجة الى أن تزدهر البلاد لكى يزدهر هو نفسه ، وهو يحسب ان للمحافظين صلاحية أكثر لضمان هذا الازدهار وذلك لخبرتهم بالمال ، وهذا يبدو أمرا معقولا ، ويحتمل أن يكون اللورد سنت لو من الأحرار ولكن ليس هناك الآن من يريد شيئا من حزب الأحرار ، ولا داعى لأن تفتح فمك لكى تحتج ، وما عليك الا أن تنتظر نتيجة الانتخابات ، وسوف ترى ان عدد الاحرار سينخفض بحيث لا تستطيع أن تراهم الا بعدسة مكبرة ليس هناك من يهتم اليوم بآرائهم أو مبادئهم ، بل أظن أنه يجب أن أقول لك بوجه أصح أن ما من أحد .

– أنت تعتقد اذن ان اللورد سنت لو من المعتدلين ؟

– نعم . انه بين بين . انه يتشبث بالماضى ويتطلع الى المستقبل .

– أرى أنك لا تحبه .

– وهو ؟ ... أتراه يحبنى ؟ وألقيت هذا السؤال على نفسى ، ولم يسعنى الا أن أقول :

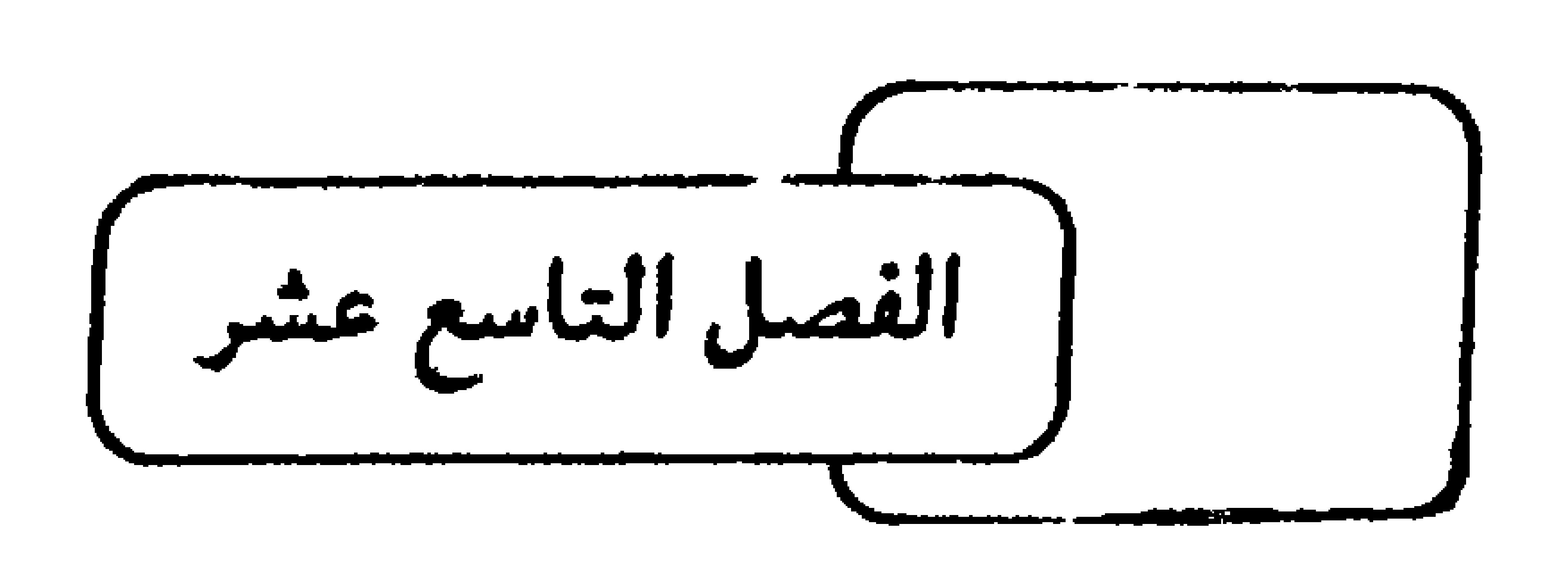
– كلا . ان اللورد سنت لو لا يحب جابرييل .

وقال جابرييل :

– ومع ذلك فلابد له أن يحتملنى لأننى سأكون نائب قريته . سوف أمثلها فى البرلمان ، وسيضطر أن يدعونى لتناول العشاء من وقت لآخر ، وان يجلس بجوارى فى الحفلات .

– لا تكن متأكدا من النجاح هكذا يا جابرييل فان الانتخابات لم تتم بعد .

* * *



الفصل التاسع عشر

كان جابرييل شديد الثقة من نتيجة الانتخابات وكان يقول انه لا يرى كيف يمكن أن تأتي النتيجة في غير صالحه .

ولكنه لم يحسب أي حساب لفتاة تا مى بوبى ناراكوت تعمل ساقية بحانة المهربين بقرية جريتوثيل . ولم يكن هو نفسه قد رأى هذه الفتاة من قبل ، وكان يجهل كل شئ عنها . ومع ذلك فهى التى تسببت فى دفع الأحداث وعرضت فرص جابرييل فى النجاح للفشل .

كانت بوبى عشيقة جيمس بارت ، وكان هذا الأخير يتحول الى وحش ضارى عندما يفرط فى الشراب . وقد هاجت الفتاة أخيرا ، وقالت له انها لا تريد أن تراه بعد اليوم، وصممت على رأيها .

وهذا هو السبب فى أنه عاد الى بيته ذات ليلة ثم توحش وهو يتأجج من الغيظ ؟

وازداد غضبه وهو يرمى ما ارتسم على وجه ميللى من خوف ، ففقد زمام نفسه ، وصب جام غضبه على ميللى المسكينة ، وفقدت هذه الأخيرة عقلها أمام هذا المجنون الغاضب ، وما كان لأحد أن يلومها على ذلك .

حسبت أن بارت يريد أن يخنقها ، فانتزعت نفسها من بين يديه واندفعت هاربة من البيت ، وراحت تجرى فى الشارع كالمجنونة . ولم يكن لديها أية فكرة عن المكان الذى تريد أن تمضى اليه ، ولا الى من تلجأ . ولم يخطر لها أن تلجأ الى البوليس . ولم يكن لها جيران ، وكانت أقرب المحلات اليها قد أغلقت أبوابها .

وقادتها غريزتها نحو الرجل الذى تحبه والذى كان رفيقا بها . ولم يكن فى

مقدورها أن تفكر ولا أن تستوعب الفضيحة التى ستتسبب فيها .. كانت تجرى نحو جابرييل كما يجرى الحيوان نحو جحره .

واندفعت داخل فندق رويال مشعثة الشعر مبهورة الأنفاس ، يطاردها بارت وهو يصيح ويصرخ مهددا .

وكان جون جابرييل واقفا ببهو الفندق ، ولا أظن أنه كان فى مقدوره أن يتصرف بغير ما تصرف . كان يميل الى تلك المرأة . كانت قد استحوذت على فكره وكان زوجها سكيرا وشديد الخطر فى نفس الوقت . وعندما اندفع جيمس بارت بدوره وهو يصرخ ويسب يطلب ميللى ويتهم جابرييل باختطافها ، وقال له جابرييل ان يذهب الى الشيطان ، وانه لا يستحق زوجة مثلها ، وانه يصمم على حمايتها منه .

وهجم جيمس بارت على جابرييل كالحيوان المسعور ، ولكن جابرييل طرحه أرضا بلكمة واحدة من يده ، ثم حجز غرفة لميللى ، وطلب منها أن تمضى اليها ، وأن تغلق بابها عليه ، قائلا انه لا يجب أن تفكر فى العودة الى بيتها فى الوقت الحالى ، وانه سيحاول اصلاح الأمور فى صباح اليوم التالى .

ولكن لم يطلع صباح اليوم التالى حتى كان النبأ قد انتشر فى انحاء المدينة كلها . وجرت الشائعات بان جيمس بارت اكتشف ان هناك علاقة بين زوجته وبين الميجور جابرييل ... وأصبح الأمر يقينا حين عرف الجميع أن مسز بارت والميجور قضيا الليل فى نفس الفندق .

ولك أن تتصور تأثير هذه القنبلة قبل الانتخابات بيومين .

وراح كارسليك يشد شعره ، ويقول وهو يمشى فى غرفته جيئة وذهابا :

- ها هو ذا قد سقط .. أننا فشلنا .. فشلنا تماما . سوف يفوز ولبراهام بكل تأكيد . يالها من كارثة ... طالما كرهت هذا الرجل ... انه متوحش ، وكنت أعلم انه سيجلب نحسه علينا .

وراحت مسز كارسليك تقول فى هدوء : - هذا درس يعلمنا انه يجب الا نختار الا (جنتلمانا) .

وقال أخى روبير :

- ومع ذلك فقد تصرف جابرييل تصرف الجنتلمان .

وأقبل جابرييل بعد قليل ، ولم يحفل بما يدور ، واكتفى بأن قال :

- لا داعى لكل هذا الانفعال يا كارسليك ... وأولى بك أن تنصحنى بما يجب ان أفعل .

ولما سأله كارسليك أين توجد ميللى بارت فى الوقت الحالى ، أجاب بانها لا تزال فى الفندق ، وانه لا يرى أين يمكن أن تكون فى غير هذا المكان ، وأردف يقول ان الوقت قد فات لكى يفكر فى ان تنتقل الى مكان آخر ، وتحول الى تيريزا ، وكان يعتبرها الرأس المفكر للحزب ، وقال :

- ألم يفت الوقت لمثل هذا العمل ؟

أجابته :

- هو كذلك .

- قال :

- لقد حدث ذلك ليلا ، والناس لا يهتمون فى العادة الا بما يحدث فى الليل ، أما ما يحدث بالنهار فلا يحفلون به .

صاح كارسليك مصدوما :

- ميجور جابرييل .

قال جابرييل :

- ان لك لخيالا قذرا . اننى لم أقض الليلة معها اذا كان هذا ما تشير اليه ، وانما عنيت ان الأمر سيبدو كذلك لأهالى سنت لو ، كما لو كنا قضينا الليلة تحت سقف

واحد .

وكان هذا هو حديث الجميع فعلا ... هذا مضافا اليه القصة التي راح بارت يرويها عن زوجته وعن جابرييل . وقال كارسليك :

- ليتها تختفي ، وتمضي الى أي مكان ... قد تستطيع عندئذ أن ..

وبدا كأنه يفكر في الأمر لحظة ولكنه لم يلبث أن هز رأسه وقال :

- كلا . سوف يثير هذا العمل الشكوك أكثر .

قال جابرييل :

- هناك شئ آخر يجب أن نفكر فيه ... وأعني به هي نفسها .

- ماذا تعني ؟

- يبدو انك لا تشاطرها وجهة نظرها في المسألة .

- قال كارسليك في شئ من الترفع :

- لا يمكن أن نناقش هذه المسألة حقا . ان ما يهمنا هو انه لابد لنا ان نجد لك مخرجا من هذه الورطة .

قال جابرييل :

- حسنا اذن ... معنى ذلك أن مسز بارت لا حسبان لها عندك ... من هي مسز بارت ؟ لا أحد على الخصوص ، ليست أكثر من امرأة تعيسة يقسو عليها زوجها ، ويضربها الى حد الموت ، ولا تملك دافعا واحدا ولا تدري أين تذهب .

ورفع صوته واستطرد :

- ولكن لي أنا كلمة في هذا الموضوع يا كارسليك . ان تصرفك هذا لا يروق لي . سأذكر لك من هي مسز بارت ، انها مخلوق بشري ... وعندما يتعلق الأمر بخططك وترتيباتك اللعينة فلا حسبان لأحد ... الانتخابات أولا ... وهذا ما أبغضه في السياسة . ان أقوالك تتلخص في أنني تصرفت تصرف الجنتلمان ، وانني سأفشل لهذا

السبب . ليكن فلتذهب انتخاباتك الى الشيطان . اننى رجل أولا والسياسة تأتى بعد ذلك . اننى لم أنطق أبدا بكلمة سوء تخدش حياء هذه المرأة المسكينة ، ولم أغازلها قط . وانما أشفقت بها ورثيت لها . واذا كانت قد قصدتنى فى الليلة الماضية ، فذلك لانها لم تعرف من تقصد غيرى . ...نا يمكنها أن تبقى معنا . سوف أهتم بها ، ويمكن لسنت لو ان تذهب الى الشيطان .

توسلت مسز كارسليك اليه قائلة .

– ميجور جابرييل ... لا يمكن أن نفعل شيئا كهذا ... لنفرض أن مستر بارت قد يطلب الطلاق .

– اذا فعل فسوف أتزوج ميللى .

صاح كارسليك محنقا :

– لا يمكن أن تتخلى عنا هكذا يا جابرييل . لا يمكن ان تثير من هذه المسألة فضيحة عامة .

– لن يهمنى هذا . ولا تظن انك تخيفنى بما تقول . اذا تراءى لبعض الحمقى من الناخبين أن يصوتوا لمبدأ يقوم على أن يضرب الرجل زوجته ويقسو عليها ويرعبها ثم ليتهما فوق ذلك بكل معصية فلهم أن ينتخبوا مرشحا آخر غيرى .

وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى دخلت ايزابيللا فجأة ... وكانت هادئة كعادتها لا تكترث بما يدور ، وسارت الى الميجور جابرييل كما لو لم يكن فى الغرفة أحد غيره ، وقالت له فى رفق :

– أظن أن الأمور قد انتظمت .

واذ نظرنا اليها جميعا فى دهشة استطردت :

– أعنى بخصوص مسز بارت .. انها موجودة الآن فى القصر .

صاح كارسليك :

- فى القصر ؟

- نعم . ما أن سمعنا بما حدث حتى رأيت ان هذا هو الحل الوحيد . وتحدثت مع عمتى اديلايد فى ذلك فوافقتنى ، وأخذنا العربة ومضينا الى فندق رويال .

وقد تمت العملية كما عرفت فيما بعد بطريقة شبه رسمية ، دلت على ما تتمتع به ايزابيللا من ذكاء كبير ، فقد كانت الليدى سنت لو تتمتع باعتبار كبير فى المدينة وتحظى باحترام الجميع ، واذا ما ارتضت شيئا أرتضاه الجميع على الفور ... مضت فى سيارتها الديملر وبرفقتها ايزابيللا ، ودخلت الفندق وطلبت أن تتحدث الى مسز بارت .

وهبطت ميللى الدرج وهى ترتجف ، وقد تورمت عيناها لفرط البكاء . وضمتها السيدة العجوز بين ذراعيها ، وقالت فى صوت مسموع .

- لقد أحزننى ما حدث بالأمس يا بنيتى ، وكان يجب على الميجور جابرييل أن يأتى بك الى القصر فورا . ولكنه مراعاة لنا ، لم يجرؤ على ازعاجنا فى ذلك الوقت المتأخر من الليل .

- أوه يا سيدتى .. ما أطيب قلبك .

اضطرم وجه ميللى بارت وقالت انها لم تأت معها بأى شئ ، فأسرعت الليدى تقول .

- ما أغبانى حقا ... سنمر فى طريقنا بالبيت وتأخذين ما تحتاجين اليه .

- ولكن ..

وبدا الارتباك والخوف على ميللى ، ولكن الليدى سنت لو قالت :

- لا تخشى شيئا . أركبى سيارتى . سنذهب الى البيت لكى تأتى بما يلزمك .

ولم تجد ميللى بدا من الانصياع أمام هذا الأمر النافذ . وعندما بلغت البيت خرج جيمس بارت من مكتبه جاحظ العينين على أهبة هجوم عنيف ، ولكنه ما ان رأى الليدى سنت لو حتى تسمر مكانه .

وقالت هذه الأخيرة :

- أصعدى يا ابنتى واحزمى حقيبتك .

اندفعت ميللى تصعد الدرج ، فى حين تحولت الليدى سنت لو الى جيمس بارت وخاطبته قائلة :

- انك تصرفت تصرفا مذموما ... مذموما جدا . ومن سوء حظك يا بارت انك تفرط فى الشراب . مهما يكن من أمر فانك لا تساوى شيئا يذكر ، وسأنصح زوجتك بالانفصال عنك طبعا . وان ما تردده سنها ان هو الا أكاذيب ، وأنت تعرف ذلك تماما ..

ونظرت اليه كما لو كانت تريد أن تملى عليه ارادتها فقال :

- حسنا . اننى فقدت رأسى مساء أمس .

- دبر أمرك بحيث يعرفون انها أكاذيب ، والا فسوف انصح الميجور جابرييل أن يرفع عليك قضية تشهير .. آه .. أهذا أنت يا مسز بارت .

وكانت ميللى تهبط الدرج وفى يدها حقيبة صغيرة ، فأخذتها الليدى سنت لو من ذراعها ومضت بها نحو الباب . وصاح بارت يقول :

- آه ... ولكن أين تأخذين زوجتى ؟

أجابته الليدى سنت لو :

- الى القصر .

ثم سألته فى شراسة :

- الديك مانع ؟

هز بارت رأسه فى شرود . وعادت الليدى سنت لو تقول فى لهجة لاذعة :

- واليك نصيحة أخرى يا جيمس بارت . أقلع عن الشراب قبل أن يفوت الأوان واهتم بمهنتك .

أنت طبيب قدير ولكنك اذا استمررت على حياتك هذه فسوف تنتهى أسوأ نهاية .

ثم ركبت سيارتها هى وميللى . وجلست هذه الأخيرة بجوار الليدى سنت لو وايزابيللا أمامهما ، وانطلقت السيارة فى الشارع العمومى ، ومضت الى السوق ثم منه الى القصر . وبدأ الأمر كالموكب ورآهم جميع أهالى سنت لو .

وراحت الاشاعات تجرى من جديد فى نفس اليوم . وقال البعض :

– اذا كانت الليدى سنت لو قد أخذتها الى القصر فمعنى هذا انه ليس هناك ما تلام عليه .

فى حين قال آخرون انه لا دخان من غير نار ... لماذا هربت ميللى بارت فى جوف الليل الى الفندق الذى يقيم به الميجور ؟ ... واذا كانت الليدى سنت لو تضفى حمايتها عليها فانما يرجع ذلك الى أسباب سياسية .

ولكن هؤلاء كانوا أقلية . ولا شئ يفرض نفسه غير القوة والحزم . كانت الليدى سنت لو قوية شديدة الحزم وتتمتع بسمعة كبيرة . واذا كانت قد أخذت ميللى بارت معها ، واذا كانت قد انحازت لها فلم يكن الا الخضوع فان الليدى سنت لو لم تكن امرأة تغفر لمذنبة ... كلا ... انها كانت تحب الأخلاق الحميدة والادب .

وأطلعتنا ايزابيللا على الخطوط الكبيرة لهذه المغامرة . وقالت انها أقبلت من القصر بعد أن استقر بميللى بارت المقام .

وانبسطت أسارير كارسليك وهو يستمع الى هذه القصة وصاح :

– يا الهى ... انها انقذتنا بعملها هذا من ورطتنا ... ان هذا يدل على ذكاء كبير من الليدى سنت لو .

ولكن الفكرة لم تكن فكرة الليدى سنت لو فى الأصل ، وانما كانت فكرة ايزابيللا . وقد ذهلت للسرعة التى أدركت بها الخطر المحدق به فتصرفت على هذا الاساس .

وقال كارسليك :

- لا يسعنى الآن الا أن أتحرك لابد من طرق الحديد وهو ساخن ... تعالى يا جانيت ... وأنت يا ميجور .

قال جابرييل :

- لحظة واحدة .

وعندما خرج كارسليك اقترب جابرييل من ايزابيللا وسألها :

- انت التى فعلت هذا فلماذا ؟

تأملته مشدوهة وقالت :

- ولكن ... بسبب الانتخابات .

- أيهمك نجاح المحافظين الى هذا الحد ؟

بدت عليها الدهشة وقالت :

- المحافظون ؟ ... كلا انما فعلت ما فعلت من أجلك .

- من أجلى أنا ؟

- ألا تريد ان تنجح فى الانتخابات ؟

ارتسم على وجه جابرييل تعبير غريب يدل على الاستغراب ، وابتعد عنها وهو يقول كما لو كان يحدث نفسه :

- هل تظنين ذلك ؟ ... هذا عجيب .

***



الفصل العشرون

سبق ان قلت أن هذه القصة ليست ملخصا وجيزا لاحدى الحملات الانتخابية ، فاننى لا أعرف شيئا عما يدور فى الانتخابات ، ثم أننى كنت بعيدا عنها ، وكل ما عرفته عنها فى ذلك الوقت جاءنى عن طريق السمع .

وقبل الادلاء بالأصوات بيومين جاء جابرييل مرتين الى بولنورث لكى يتناول كأسا ويستريح . ويدلى عندئذ أنه شديد الارهاق والتعب ، وبح صوته وازداد خشونة بسبب الخطب التى كان يلقيها فى الهواء الطلق ، ولكنه على الرغم من ذلك بادي النشاط ، قليل الكلام ، يحتفظ بكل قوته وصوته للنضال .

وأفرغ كأسه مرة واحدة وتمتم :

- يا لها من مهنة قذرة ... وكم من حماقات ننطق بها ... انهم يستحقون ما يلاقونه من سوء الادارة والحكم .

أما تيريزا فقد استخدمت أكبر جزء من نشاطها فى قيادة السيارات . وفى صباح يوم الادلاء بالأصوات هبت زوبعة بحرية شديدة ، وصفرت الريح وسقطت الأمطار وجاءت ايزابيللا لزيارتنا بعد تناول الافطار ، وكانت ترتدى معطفا واقيا من المطر وقد ابتل شعرها وراحت عيناها تتألقان . وقالت :

- يجب أن أنقل الناخبين طوال اليوم الى صندوق الانتخابات ..وربيرت كذلك . وقد نصحت مسز بارت لكى تأتى وتبقى برفقتك ، فهل يزعجك هذا ؟ .. الا اذا كنت تريد أن تبقى وحدك .

لم تكن زيارة مسز بارت لتزعجني ، ولكنني كنت أود أن أكون وحدى ، لأنني ألتقيت بأناس كثيرين فى الأيام الأخيرة .

واستطردت ايزابيللا تقول :

- كانت عمتي أجنس تود أن تأتي بنفسها لتبقى برفقتك ، ولكنها خشيت أن تثقل عليك بحديثها واستقر بنا الرأى على أن تأتى مسز بارت ... وقد خطر لنا انه ربما كان فى مقدورك أن تواسيها وتنصحها . فهى تتكلم عما حدث ، وتقول كيف هرعت الى الميجور جابربيل ، ترمى على نفسها باللائمة ، لأن الغلطة غلطتها هى وان الميجور اذا فشل فى الانتخابات فستكون هى السبب ... ولو انها أبدت شيئا من الحرص .. كان يجب أن تتوقع ما حدث ...ولو أنها تحلت بالصبر مع جيمس بارت وحاولت أن تفهمه أحسن لما استغرق فى رذيلته . وان ضميرها ليؤنبها على ذلك ، ولا تنام الليل وكل ذلك فى رأسها ، وتقول انها لو تسببت فى الاضرار بالميجور فانها لن تغفر لنفسها ذلك أبدا طوال حياتها .

وسكتت ايزابيللا لحظة ريثما استردت نفسها ثم قالت :

- وقد ظننت انك تستطيع مواساتها والترفيه عنها .

- وهل تواجه أية مشاريع ؟

- نعم . لقد وجدت لها جدتى عملا فى أقليم سوسكس كوصيفة لسيدة تعرفها وستنقدها هذه السيدة راتبا محترما نظير عمل قليل . والمواصلات بين الاقليم وبين لندن منتظمة ومريحة بحيث تستطيع ميللى ان تنتقل من وقت لآخر لزيارة أصدقائها .

عن أى أصدقاء تتكلم ؟ ... أعن الميجور جابربيل ؟ ... كانت ميللى مغرمة بجابربيل ، وقد تساءلت اذا لم يكن هو الآخر شغوفا بها . كان هذا محتملا .

وقالت ايزابيللا :

- يمكنها أن تطلب الطلاق ... ولكنه يتكلف الكثير .

ونهضت قائلة :

- يجب أن أذهب الآن ... ستتكلم معها بصيغة جدية ، أليس كذلك ؟

وتوقفت بالباب واستطردت تقول فى رفق :

- سنتزوج انا وريوبيرت فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل . وسنقضى معا أسبوعا ثم يعود الى بورما ، ولكننى لا أعتقد أن الحرب ستطول كثيرا ... ما رأيك أنت ؟

قلت فى رفق :

- هل أنت سعيدة يا ايزابيللا ؟

أحنت رأسها نعم ثم قالت :

- انه لأمر مخيف قليلا أن يتحقق للمرء شئ كان يتمناه منذ وقت طويل . كان ريوبيرت فى فكري ولكنه كان قد بدأ يمحى .

ثم نظرت الى وعادت تقول :

- وعلى الرغم من ان الأمر أصبح حقيقة فمازلت غير مصدقة ، ويخيل لى اننى سأستيقظ فجأة كما يحدث حين يرى الانسان مناما .

وأردفت تقول فى رفق :

- ان أجد كل شئ فى متناول يدي مرة واحدة ... ريوبيرت والقصر ... وبلوغ أماني كلها .

ثم صاحت تقول مذعورة :

- يا الهى .. ما كان يجب أن أبقي كل هذه المدة . لقد أعطونى مهلة عشرين دقيقة لكى أتناول قدحا من الشاى .

وأدركت انها تقصدنى أنا بقدح الشاى ،

وأقبلت ميللى فى أصيل اليوم ، وعندما نضت عنها معطفها الواقي وقبعتها

مست بيدها شعرها الاسود ، وذرت المسحوق على أنفها ، ثم عادت وجلست بجوارى .

كانت جميلة وفاتنة حقا ، وما كان يسع من يراها الا أن يحبها . وقالت :

- أرجو الا تكون الوحدة قد أثقلت عليك . هل جاءوك بالغداء ؟ ... الا ينقصك شئ ؟

أكدت لها أننى على ما يرام وأردفت :

- وسنتناول الشاى بعد قليل .

قالت :

- ما أظرف هذا .

ثم استولى عليها القلق شيئا ما وأردفت :

- هل تعتقد انه سيفوز يا كابتن نوريز ؟

- مازال الوقت مبكرا جدا لمعرفة ذلك .

- ولكن الا تعتقد أنه سيفوز ؟

قلت فى توكيد :

- أعتقد أن أمامه فرصة كبيرة جدا .

- لولاى أنا لكانت أمامه كل الفرص ... أوه ..كيف أقدمت على هذه الحماقة... اننى كنت مجنونة جدا ... شد ما أبغض نفسى .

قلت محاولا ان أرفه عنها :

- لو اننى كنت مكانك لفكرت فى شئ آخر .

- وكيف السبيل الى ذلك ؟

- ولكننى لا أستطيع مواجهة الأمر بمثل هذا الاستخفاف ... خصوصا بعد الذى فعلت .

- أى ابنتى العزيزة ... انك لن تفتحى أبواب البرلمان عنوة أمام جابرييل

بتحسراتك على ما فات .

- هذا صحيح . ولكننى لن أغفر لنفسى اذا تسببت فى ضرره .

- انك تحبينه كثيرا ... أليس كذلك ؟

أغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

- أوه ، نعم . كثيرا اننى لم ألتق أبدا بمن هو مثله . واننى لافعل أى شئ فى سبيله يا كابتن نوريز ... أى شئ .

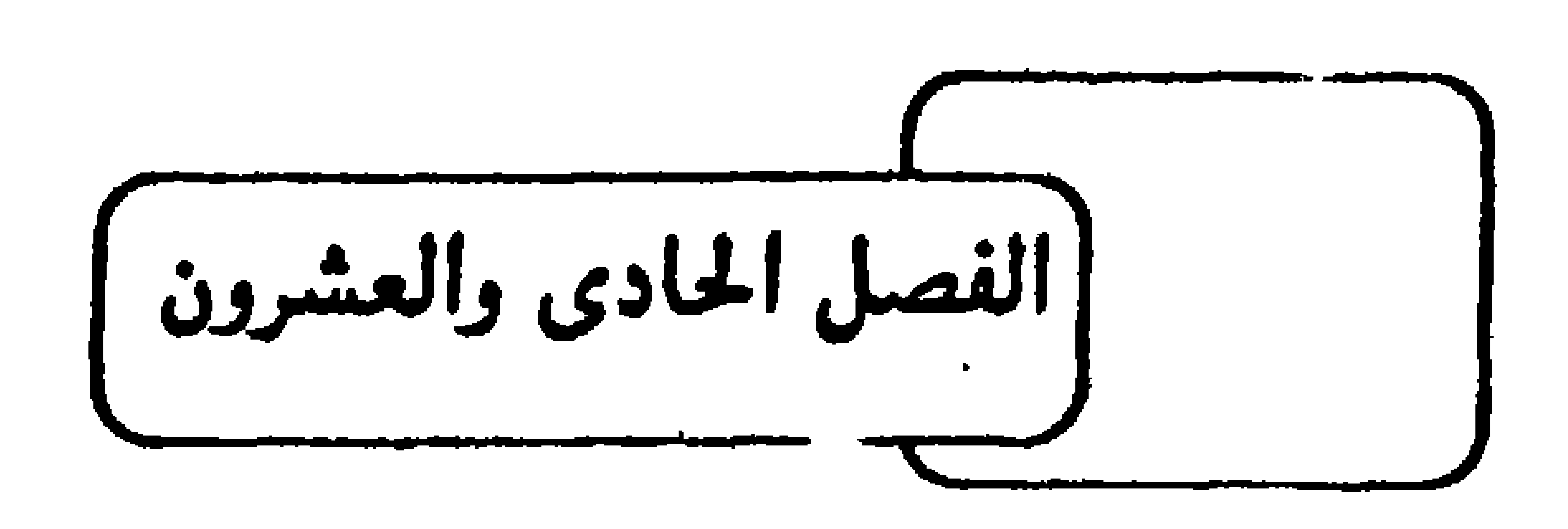
- يكفى تعلقك به الى هذا الحد ولا تحاولى المزيد .

ودققت الجرس وأمرت أن يأتونا بالشاى .

ورحنا نحتسيه ونحن نتحدث عن الافلام التى شهدتها فى العام الماضى . وكانت ميللى تحب السينما فحدثتنى بدورها عن الأفلام الجديدة التى رأتها ، وقضينا وقتا ممتعا ، وشعرت بشئ من الأسف عندما انصرفت أخيرا .

وكانت أصوات المعركة تصل الى من وقت لآخر . وكانت تمر بوجه كئيب من التفاؤل اليائس . وكان روبير هو الوحيد الذى جاءنى بوجه يطفح بشرا ومرحا ، فقد رأى شجرة مقطوعة فى بقعة منبسطة من الغابة ، وكان هذا هو المنظر الذى تهفو اليه روحه كرسام، ورأى أن يخلده فى احدى لوحاته .

***



الفصل الحادى والعشرون

كان الوقت قد تأخر كثيرا فى مساء اليوم التالى عندما دخلت تيريزا فجأة وطوحت بشعرها الى الخلف فى ارهاق وقالت :

- قضى الأمر وقد فاز .

سألتها : بأغلبية كم صوت ؟

- مائتان وأربعة عشر صوتا .

أطلقت صفيرا خافتا : - انها أغلبية ضئيلة .

- هذا صحيح . ويعتقد كارسليك انه لولا مسألة بارت لحصل على أغلبية لا تقل عن ألف صوت .

ان الاندفاع نحو اليسار كبير فى المدينة ، والعمال يفوزون على طول الخط ، وفوزنا يعتبر فوزا نادرا للمحافظين .

- كان جابرييل على حق اذن .. لقد توقع ذلك . هل تتذكرين .. ؟ تستطيع ميللى أن ترقد وهى سعيدة الليلة على الأقل ، فهى لم تتسبب فى فشله ، انها ستشعر بارتياح كبير .

- هل تظن ذلك ؟

- تيريزا .. انك " مصيبة " . كبيرة .. ان هذه الفتاة المسكينة تعبد جابرييل .

- أعرف ذلك . ومهما يكن فقد خلقا لبعضهما . فى مقدوره أن يكون سعيدا معها.. هذا على فرض أنه ينشد السعادة ، فهناك أناس لا يهمهم أن يكونوا سعداء .

- ان جابرييل ليست له أية نوايا تقشفية ، وهو لا يفكر الا فى اغتراف كل ما

يستطيع من الحياة . ومهما يكن فهو لم يتزوج الا زواج مصلحة ، وقد قال لى ذلك بنفسه ، وسوف ينال ما يريد . وواضح أنه خلق لكى ينجح فى الحياة الى أقصى حد . أما ميللى فهى من ذلك الحب الذى يصنعون منه الشهداء ، وأظنك ستقولين لى أنها تعرف ذلك .

– لن أذهب الى هذا الحد يا هوج ، ولكن لابد أن يتمتع الانسان بارادة قوية لكى يقول لنفسه اننى تصرفت تصرفا أحمق . ولكى يضحك مما أقدم عليه ويفكر فى شئ آخر . ان الضعفاء بحاجة الى نقطة ارتكاز لكى يتشبثوا بها ، ولكى يعرفوا أن أخطاءهم لا ترجع الى سوء تقدير وانما الى دفعة من القدر والمصير .

وأردفت تقول فجأة : – اننى لا أؤمن بالشر . وانما يجب أن تعزو مصائب هذه الدنيا الى الضعفاء . والى ضعاف النفوس على الخصوص . أننى أخاف من هؤلاء الناس فهو شديد الخطر ، أنهم كذلك الحطام الذى يتخبط مع الأمواج فى الليل ويتسبب فى غرق أحسن السفن .

لم أر جابرييل الا فى اليوم التالى . كان يبدو متعبا مكدودا . وكدت لا أعرفه حين رأيته فقلت له :– كأنى بك خارج من حفلة صاخبة .

قال مزمجرا : – يمكنك أن تقول هذا . ان النجاح يجعلنى أشعر بالغثيان دائما . أين تحتفظ بأجود أنواع الشيرى ؟.

وقلت له حين صب لنفسه كأسا : – ولكن لا أظن أن الفشل قد انعش ولبراهام .

ابتسم جابرييل ابتسامة شاحبة وقال : – انه رجل مسكين وأننى أرثى له . وأخذ كل شئ باهتمام ، ولكنه ضعيف الشخصية للاسف .

– أظن أنكما تبادلتما الكلمات المألوفة فى مثل هذه الحالات بخصوص الحظ والنصيب ؟ .

تصنع جابرييل ابتسامة وقال : – اوه .. نعم .. وقد أصر كارسليك على ذلك ..

يا الله ، ما أشد غباء هذا الرجل . انه يعرف مهنته حق المعرفة ، ولكنه مجرد من الذكاء .

رفعت كأسا وقلت : - حسنا .. أنني أشرب نخب مستقبلك الزاهر الباهر . وسأتتبع نشاطك باهتمام كبير .

ضحك وقال : - سوف تراني بعد عشرين سنة وقد أصبحت ذا كرش كبير ، لا يهمني شئ سوى أن أعيش عيشة هادئة ، وسوف يقول عامة الشعب عني مع ذلك أنني من كبار المصلحين .

قلت في شئ من الأسفاف : - حسنا . لقد انتظمت كل الأمور الآن ..

قطب حاجبيه مغيظا وقال : - ألابد لك من أن تضع أصبعك في الجرح يا نوريز ؟

- ولكنني لم أقل شيئا .

- هو ذلك .. انك لم تقل شيئا ومع ذلك فقد قلت الكثير .

وأردف يقول بعد لحظة صمت :- هل حدث لك أن رحت تمشي وفي أصبعك شوكة ؟ أني أكاد أصاب بالسعار ، ومع ذلك فليس الأمر خطيرا ، ولكنني مضطر الى التفكير بدون انقطاع ، وهذا يؤلم ويحز في النفس .

- ومن هي الشوكة .. ؟ أهي ميللي بارت ؟

نظر الي في ذهول بحيث أدركت أنه لا يتكلم عن ميللي وقال : اوه .. ان ميللي ظريفة وليس هناك أي خطر منها ، وأنني أحبها من كل قلبي ، وأرجو أن أراها في لندن من وقت لآخر ، فأننا في لندن سننجو على الأقل من ألسنة السوء .

ثم اضطرم وجهه ، وأخرج من جيبه ربطة صغيرة وقال :

- أريد أن تلقى نظرة على هذا وأن تقول لي رأيك انها هدية زواج لايزابيللا كارتريس لأني أظن أنني يجب أن أقدم لها هدية . متى ستتزوج .. ؟ أظن يوم الخميس القادم .. أرجو أن تكون الهدية مناسبة .

فككت الربطة وأنا أشعر بفضول كبير . كانت الهدايا آخر شئ أتوقعه من جابرييل، فقد كانت عبارة عن نسخة صغيرة نادرة من الكتاب المقدس مجلدة تجليدا فاخرا ، ومنقوشة بحروف من ذهب . وقال جابرييل :

- انها نسخة نادرة يرجع العهد بها الى أكثر من مائتى سنة . ويخيل لى أنها أنسب هدية لها اذا لم أخطئ .. الا اذا رأيت أنت العكس .

أسرعت أقول مطمئنا : - انه هدية نفيسة جدا . ان أى شخص ليسره جدا أن يحصل على مثل هذه الهدية الرائعة .

- ولكننى لا أدرى هل يروق لها .. أتمنى أن تسر به ، وأن تجد سعادتها مع ذلك اللورد الذى عرفت كيف تفتنه .

وأخذ منى الكتاب وأعاد تغليفه وهو يقول : - هل أنت واثق أنه سيروق لها ؟

- انه هدية ثمينة وجميلة .

ودخلت تيريزا فاعتذر جابرييل واستأذن فى الانصراف .

وسألتنى تيريزا تقول : ما الخبر ؟

- أظن أنه رد الفعل .

قالت : - بل أن الأمر أشد خطورة من ذلك .

قلت : - لسوء الحظ انه نجح فى الانتخابات ، لأن الفشل كان سيصيبه بخير كبير اما وقد نجح فسوف يكون بغيضا بعد سنتين . انه رجل كريه ، ولكن ذلك لن يمنعه من أن يصعد الى أعلى شجرته .

ولعل كلمة شجرة هى التى دفعت أخى روبير الى الاشتراك فى الحديث ، وكان قد جاء مع تيريزا ولكنه كان قد لزم الصمت والهدوء بحيث أخذتنا الرجفة حين تكلم فجأة وقال :- أوه كلا .. أنه لن يصل الى أعلاها أبدا .. لن تسنح له الفرصة .

***

الفصل الثانى والعشرون

كان يجب أن يتم زواج اللورد سنت لو وايزابيللا كارتريس يوم الخميس . وكانت الساعة قد أشرفت على الواحدة من صباح ذلك اليوم عندما سمعت وقع أقدام على الشرفة خلف نافذتى ، ولم أكن قد استطعت النوم ، وكانت ليلة من أسوأ ليالى استبد بى الأرق فيها . وهاجمتنى هواجس شتى انتشلتنى منها خطوات ايزابيللا ..

قالت وهى تقف بالباب :- هل أستطيع الدخول ؟

وكانت ترتدى معطفا من الجلد الداكن ، وتلف رأسها بايشارب أحمر . وأضاءت نور الاباجورة . وخيل لى أنى لا أزال أحلم .

ولم أستطع أن أفهم ماذا كانت تفعل فى الخارج فى هذه الساعة المتأخرة ولكننى أحسست بخوف مبهم .

قالت : - أنى أتيت لكى أقول لك وداعا يا هوج .

نظرت اليها فى غباء وقلت : - وداعا ؟

- نعم .. لأننى ذاهبة .

- ذاهبة .. ؟ مع ريوبيرت ؟

- كلا .. بل مع جون جابرييل .

أحسست عندئذ بازدواج الشخصية ، فان جزءا منى صعق من الدهشة وأبى أن يصدق .. بدت لى كلمات ايزابيللا غريبة وعجيبة ولا معنى لها .

ومن ناحية أخرى ، تقبل الجزء الآخر من كيانى الواقع كما لو أن صوتا داخليا كان يقول لى ساخرا " هل يدهشك هذا " ألم تكن تعرف أن هذا سيحدث منذ وقت طويل ؟

وتذكرت ما انطبع على وجهها حين عادت من الحديقة ليلة المباراة كما تذكرت تدخلها السريع ازاء حادث ميللى بارت ونبرات القلق فى صوتها وهى تقول : يجب أن يعود ريوبيرت سريعا . سريعا .

وكانت تخاف فى ذلك الوقت مما هو حادث الآن .

وأدركت ، ولكن بطريقة غير كاملة ، الميل الذى تحس به نحو جابرييل ، والله وحده يعلم لماذا يؤثر ذلك الرجل فى النساء . وقد قالت لى تيريزا ذلك أكثر من مرة .

هل كانت ايزابيللا تحبه .. ؟ شككت فى ذلك ، ولم أصدق أنها تستطيع أن تجد سعادتها فى رجل يشتهيها ولا يحبها .

أما من ناحيته هو فقد كان الأمر جنونا مطبقا ونهاية لحياته السياسية ودمارا لأطماعه ، ولم أستطع أن أفهم ما الذى يدفعه الى مثل هذه المغامرة الجنونية ، فهو لم يكن يحب ايزابيللا ، بل اننى لا أستطيع أن أقسم الى حد ما أنه كان يكرهها ، فهى فى عداد الذين لم يكفوا عن اذلاله واهانته منذ ان أقبل الى البلدة . أهو أخيرا انتقام "الفتى السوقى المبتذل" .

كنت أحب ايزابيللا . وقد اكتشفت الآن أنى أحبها حبا عميقا ، بحيث أن سعادتها أصبحت عزيزة على . وقد كانت سعيدة حين تحقق حلم حبها بريوبيرت وحلم اقامتها فى قصر سانت لو . وكانت تخشى أن يكون الأمر مجرد حلم . واذا كان ذلك صحيحا فأين الحقيقة .. ؟ جون جابرييل . ؟ كلا . ان ما تقدم عليه الآن انما هو عمل طائش . كان لابد من ايقافها واقناعها والتوسل اليها .

وصعدت الكلمات الى شفتى ولكننى لم أنطق بها . ومازلت حتى اليوم لا أدرى لماذا لم أفعل ، والسبب الوحيد الذى أستطيع أن أتعلل به هو أن ايزابيللا كانت ايزابيللا .

وهكذا لزمت الصمت . وانحنت ايزابيللا فوقى وقبلتنى لم تكن قبلة فتاة بريئة

وانما كان فمها فم امرأة ناضجة . أطبقت شفتيها الرطبتين النديتين على شفتى فى رفق وقوة لن أنساها أبدا .. كانت أشبه بقبلة وردة .

وقالت مرة أخرى " وداعا " . ثم خرجت .. خرجت من الغرفة ومن حياتى الى جابرييل الذى ينتظرها .

ولم أفعل شيئا لاحتجازها .

***

الفصل الثالث والعشرون

ينتهى الجزء الأول من قصتى هذه بهروب جون جابرييل وايزابيللا . وأرى الآن أن هذه القصة قصتهما وليست قصتى أبدا لأنى لا أتذكر شيئا تقريبا .. منذ رحيلها . بل اننى لا أتذكر ما حدث بعد ذلك فقد أصبح الأمر بالنسبة لى غامضا ومبهما .

ولم أشعر بأى اهتمام للناحية السياسية فى حياتنا ، فهى لم تكن بالنسبة لى الا القماشة الخلفية التى أمامها المأساة . الا أن مضاعفاتها السياسية كانت شديدة القسوة ولا حصر لها .

ولو ان جون جابرييل كان يدرك أقل ادراك معنى مهمته الاجتماعية لما أقدم على تصرفه هذا ، ولا أخافه مجرد فكرة الضرر الذى الحقه بالحزب ، ولكنه تخلى عن كل شئ فى لحظة تهور . وقد بلغ التأثر المحلى أقصى مداه بحيث أقاله من المنصب الذى لم يكد يحصل عليه ، وكان رد الفعل شديدا ومحزنا للحزب . وكل رجل يعرف التقاليد ويفهم معنى الشرف يدرك ذلك ، وأنا واثق أن جون جابرييل لم يفكر فى ذلك، فهو لم يكن ينتمى الى الحزب ، ولم يكن يدين له بمبدأ الولاء ، ولم يكن له غير هدف واحد هو أن ينجح فى الانتخابات ، وقد أصاب حين تنبأ بأن امرأة ستتسبب فى تدمير حياته ، ولكنه لم يتوقع من تكون هذه المرأة .

لم يكن فى تربيته ولا فى طباعه ما يؤهله لكى يستوعب الصدمة العنيفة والذعر الشديد اللذين سيسببهما لأشخاص كالليدى تريسليان ومسز بيجهام كارتريس ، فقد نشأت الليدى تريسليان وهى تعتقد بصفة خاصة أن التقدم للانتخابات واجب عادى لأى رجل نحو بلاده ، وهكذا كان أبوها يواجه الأمور .

ولكن جابرييل لم يقدر الأمور بهذه الطريقة وكل ما أقر به هو أن الحزب باختياره له لم يحسن الاختيار ، وأن المسألة كانت مسألة حظ لا أكثر .

والعجيب أن الليدى سنت لو قد التمست لى العذر فيما فعل فقد قالت لتيريزا ذات يوم :

- لا يجب أن ننكر نصيبنا فى هذا العار ، فقد كنا نعرف الرجل .. وقد وقع اختيارنا عليه على الرغم من أنه غريب عنا ، ولم تكن له مبادئ ولا تقاليد ولا خلقيات وكنا نعرف تماما أنه ليس أكثر من أفاق . وقد رضينا به لأنه كان يمتاز بموهبة التأثير على الجماهير ولأنه كان حاصلا على الصليب الحديدى ، ورضينا أن يستغلنا لأننا كنا ننوى أن نستغله بدورنا . كنا نجد لأنفسنا الأعذار قائلين أننا يجب أن نجارى الزمن ، واذا كنا نريد رجلا يخدم الحزب حقيقة فلابد لنا من رجل من بيننا يقدر المسئولية ويعرف واجبه نحو ناخبيه .

ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة عن ايزابيللا ، فقد تغلغل الحديد فى الجرح وأصبح من الصعب علاجه ، وقد خانت ايزابيللا عشيرتها وغدرت بهم بعملها هذا .

واذا كانت الليدى سنت لو لم تشر فى حديثها الى ايزابيللا فقد اختلف الأمر مع الليدى تريسليان . واذا كانت قد تحدثت معى عنها ، فذلك لأنها لم تجد من يستمع اليها ولعلها كانت تعتبر أن حديثها معى لا أهمية له نظرا الى حالتى الصحية . كانت تشعر وهي تتحدث معى أنها انما تتحدث الى أبيها . وقد قالت لى :

- لا يمكن أن أتحدث مع رديلاد فى هذا الأمر ، ومود تأبى أن تستمع الى وتسارع بالهروب بمجرد أن أفتح فمى .

وقالت تخاطبنى : - ليس هذا من سجاياها أبدا يا هوج أنى أشعر بأن ذلك الرجل قد أغواها وطالما قلت أنه شديد الخطر .. كانت تبدو سعيدة .. سعيدة جدا هى وريوبيرت . وقد خلقا لكى يكون كل منهما للآخر . أننى لا أفهم شيئا . وأقسم لك

أنهما كانا سعيدين . أليس هذا احساسك أنت أيضا ؟

قلت انه خيل لى أنهما سعيدان فى الواقع ، ولكننى وددت لو أن أقول أن السعادة ليست كل شئ .

- لا يسعنى الا أن أقول أن ذلك الرجل قد أرغمها على الرحيل معه ، وأنه سيطر عليها بطريقة مغناطيسية ولكن أديلايد تنكر ذلك ، وتقول ان ما من أحد يمكنه أن يرغم ايزابيللا على أن تفعل إلا ما تريد ..اننى لا أفهم ..ولكن هل تظن أنهما تزوجا.؟ ألا تعرف أين هما ؟

- ألم ترسل اليك أنباءها ؟

- كلا لا شئ . فيما عدا الخطاب الذى خلفته وراءها قبل أن ترحل .. قالت فيه أنها تعرف أن اديلايد لن تصفح عنها أبدا ، وأنها تقرها على ذلك . كما قالت أنه لا فائدة من الادعاء بأننى نادمة على الشر الذى ألحقه بكم ، لأنى لو كنت نادمة لما فعلت ذلك . ومن المحتمل أن يفهم ريوبيرت ولكن ليس هذا أكيدا. سأحبكم دائما .دائما .. حتى اذا لم أركم أبدا ..

ونظرت الليدى تريسليان الى بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت : - يالفتى المسكين . كانت الصدمة عنيفة له .

ولم أكن قد رأيت اللورد سنت لو منذ رحيل ايزابيللا ، فقد غادر القصر فى اليوم التالى ولا أدرى أين ذهب ولا ماذا يفعل وبعد أسبوع لحق بفرقته فى بورما .

وهزت الليدى تريسليان رأسها فى حزن وقالت : - لقد كان كريما معنا رفيقا بنا ، ولكنه لم ينطق بكلمة .. لا أحد يريد أن يتكلم .. (وتنهدت) . أما أنا فلا يسعنى الا أن أتساءل أين ذهبا وماذا يفعلان .. وهل سيتزوجان . وأين يقيمان ..

كانت عقلية الليدى تريسليان نسائية تماما تقوم على ضرورات الحياة اليومية .. وكنت أستطيع أن أرى أنها بنت لنفسها صورة من حياة ايزابيللا المنزلية .. زواج

وبيت واولاد . كانت قد صفحت بكل بساطة ، وكانت تعز ايزابيللا . كان العمل الذى أقدمت ايزابيللا عليه مخزيا ومهينا وقد ألحقتا بعملها هذا العار بالأسرة .. ولكنه كان من ناحية أخرى عملا رومانسيا ، وكانت الليدى تريلسيان تعبد الرومانسية .

وكما سبق أن قلت فان ذكرى السنتين التاليتين بقيت مبهمة فى ذهنى .. وقد جرت الانتخابات من جديد ، وفاز ولبراهام بأغلبية ساحقة .. وقد شغلتنى صحتى فى تلك الفترة أكثر من أي شئ آخر ، وانتقلت الى احدى المستشفيات أكثر من مرة لاجراء بعض العمليات ، واذا لم تكن صحتى قد تحسنت فانها لم تزد د سوءًا، وبقيت تيريزا وروبير فى بولنورث .. أما الليدى سنت لو وزميلتاها فقد غادرن القصر ، وانتقلن للاقامة فى بيت صغير به حديقة جميلة .وعاد ريوبيرت بعد سنة ومعه زوجة أمريكية .

وفى سنة ١٩٤٧ عرض روبير لوحاته فى لندن ، ولقى نجاحا كبيرا .. وفى ذلك الوقت كانت الجراحة قد تقدمت تقدما كبيرا ، ونصحنى طبيبى المعالج أن الجأ الى جراح مشهور بسلوفاكيا فعملت بنصيحته ومضيت الى مدينة زاجراد فى خريف سنة ١٩٤٧ لاستشارة الدكتور كراسفيتش .

وليس من الضرورى أن أدخل فى تفاصيل قصتى بالذات ولكن يكفى أن تعرف أن الدكتور كراسفيتش كان طبيبا قديرا ، وأنه صرح لى أن صحتى ستتحسن تحسنا ملحوظا بعد اجراء عملية معينة ، واننى سأستطيع بعدها أن أمشى على عكازين بدلا من البقاء مكانى جامدا عاجزا عن الحركة .

وتحققت آماله وآمالى ، وخرجت من المحنة بعد ستة شهور وأنا أمشى فعلا على عكازين .. ولا تسل عن مبلغ سعادتى عندئذ فقد بدت لى الحياة مثيرة بعد طول جمود ، وبقيت بعد ذلك فى زاجراد ، لأنه كان لابد لى من اتباع علاج طبيعى خاص لمدة بضعة أسابيع .. وفى ذات مساء ، وكان الوقت صيفا ، أخذت أتمشى فى شوارع المدينة وأحسست بالتعب فمضيت الى مقهى صغير فى الهواء الطلق وطلبت كأسا من

البيرة .

وأخذت أنقل عينى بين الجالسين ، ولم ألبث أن رأيت جون جابرييل .. وكانت مفاجأة لى فقد طرحته من ذهنى منذ وقت طويل ، ولم يخطر ببالى أن أراه فى ذلك المكان .. ولكن المفاجأة الكبرى كانت فى التغيير الكبير الذى طرأ عليه ، وفى آثار الانحطاط البادية على هيئته .. وزادت ملامحه خشونة بحيث أننى كدت لا أعرفه .. فقد تورم وجهه وجحظت عيناه .. وبدأ ثملا جدا .

ونظر هو الآخر حوله ورآنى ، فنهض وأقبل الى مائدتى وهو يترنح وقال : عجبا !. من كان يظن ذلك ؟ انك لآخر رجل كنت أتوقع أن أراه هنا .

وكم وددت لو أن الطمه على وجهه .. ولكننى لم أكن فى حالة تسمح لى بالعراك، ثم اننى أردت أن أعرف ماذا حدث لايزابيللا ، ولهذا دعوته الى الجلوس وقدمت له مشروبا فقال :

– شكرا يا نوريز .. كيف حال سنت لو ؟ .. والقصر .. ؟ والحيزبونات الثلاث ؟

قلت له اننى لم اذهب الى سنت لو منذ وقت طويل .. وأن القصر يشغله اناس أغراب ، وأن السيدات الثلاث انتقلن للاقامة فى بيت آخر ، وأن ربوبيرت سنت لو قد تزوج فقال :

– حسنا .. كل شئ على ما يرام اذن .

وتمالكت نفسى لكى لا أرد .. وعادت ابتسامته السابقة المتهكمة ، وارتسمت على شفتيه وقال :

– لا تنظر الى هكذا بحق السماء يا نوريز كما لو انك ترى ثعبانا ، وسلنى بالأحرى عن أخبارها فانك تتلهف على معرفتها .

وأنه لمن المزعج أن جابرييل كان يفلح دائما فى نقل المعركة الى أرض خصمه ... وقد اعترفت بالهزيمة وقلت :

- كيف حال ايزابيللا ؟

- لا بأس .. أننى لم أتصرف تصرف الوغد فى مثل هذه الحالات ولم أهجرها فى كوخ حقير .

كان لابد لى من بذل جهد كبير حتى لا أضربه ، فقد كان مثيرا دائما واصبح الآن أكثر جنتلمانا ، وهو ينحدر فى الطريق الوعر .. وسألته :

- هل هى فى زاجراد ؟

- نعم .. يجب أن تذهب لزيارتها . سوف يسرها أن تلتقى بصديق قديم لها وأن تستقى منه أخبار سنت لو .

يسرها ؟ .. ألقيت على نفسى هذا السؤال .. خيل لى اننى اتبين فى صوت جابرييل مسحة خفية من السادية .. وسألته فى ضيق :

- هل تزوجتما ؟

ضحك فى استهزاء وقال : - كلا طبعا .. ويمكنك أن تخبر الحيزبون العجوز بذلك نيابة عنى ..

وكان العجيب أن أرى أن حقده على الليدى سنت لو لا يزال كما هو .. وأجبته فى برود :

- ليست هناك أية فرصة فى أن أتحدث معها عن ذلك .

- هل بلغ الأمر الى هذا الحد ؟ .. طبعا ، فان ايزابيللا ألحقت العار بالأسرة .

وراح يتمايل فى مقعده الى الخلف وهو يستطرد قائلا : وودت لو أن أرى هؤلاء الحيزبونات الثلاث فى ذلك اليوم ..فى ذلك الصباح الذى اكتشفن فيه أننا فررنا معا.

أحسست بشجاعتى تتخلى عنى وقلت : - أنت وغد حقير يا جابرييل .

ولكن قولى هذا لم يؤثر فيه أقل تأثير وقال : - هذه وجهة نظرك أنت ، والحق أنك ضيق الأفق يا عزيزى نوريز .

- ولكنه أفق نظيف على كل حال .

- ثم انك انجليزى قح .. يجب أن أريك الوسط الذى نعيش فيه أنا وايزابيلا .. انه خلط من الأجانب المختلفين .

- يبدو لى انك غير متألق .

أسرع يقول : - ذلك لأننى أفرط فى الشراب ، وقد تناولت اليوم كأسا أكثر من اللازم ولكن لا أهمية لهذا .

وأردف : أن ايزابيلا لا تشرب وانني لاتساءل لماذا .. انها ما زالت تبدو كفتاة .. سيسرك أن تراها .

قلت : - بل انني أود أن أراها .

ولكنني لم أكن واثقا وأنا أنطق بكلماتى هذه ، هل كنت أريد أن أراها حقا أم لا ؟ ان رؤيتها ستسبب لى ألما كبيرا ؟ .. وهى هل يسرها أن ترانى ؟ .. كلا بلا ريب .. لو أستطيع أن أعرف ما يدور فى رأسها .

قال جابرييل فى رفق : - يسرك أن تعلم أنها ليست حاملا .

اكتفيت بأن أنظر اليه فتمتم : - أنت تكرهنى يا نوريز أليس كذلك ؟

- أعترف ان هناك أسبابا تحملنى على ذلك .

- لا أدرى لماذا تحقد على حقا .. انني عملت على مرضاتك بكل الطرق .. نعم .. لا تنكر ذلك ، فان اهتمامك بتهريجى هو الذى جعلك تتشبث بالحياة ، ولن تستفيد شيئا من حقدك على بسبب حبك لايزابيلا .. نعم ، انني أعرف انك كنت مجنونا بها فى ذلك الوقت ، وما زلت مجنونا بها حتى الآن .. وهذا هو السبب فى انك تحتمل وجودى امامك فى هذه اللحظة مع انني أثير اشمئزازك الى درجة الغثيان .

- كان بينى وبين ايزابيلا حب لا يمكن ان تفهمه .

- لا أقول انك غازلتها يا عزيزى فأنت لست من هذا الطراز .. لا يهمك الا

ارتباط الأرواح وانسجامها .. مهما يكن فسيسرها أن ترى صديقا قديما لها .

قلت فى تفكير : - هذا ما اتساءل عنه بالذات .. هل تعتقد انها تريد أن ترانى حقا ؟

- سيسرها أن تراك طبعا أيها الأخ العزيز .. سأعطيك العنوان ، وفى مقدورك أن تأتى عندما تريد .. أنها تكاد لا تخرج .

قلت : - وأى عمل تمارسه أنت الآن ؟

غمز بعينه وقال : - هو عمل أقوم به فى الخفاء وأتعابه غير مجزية .. عندما يخطر لى اننى كنت سأتقاضى ألف جنيه فى السنة لو اننى بقيت عضوا فى البرلمان .. كم من مرة أذكر ايزابيللا بكل ما ضحيت من أجلها .

كيف أعبر عن الاشمئزاز الذى أحسست به ازاء هذا القول ؟ وددت لو أن .. ولكننى وددت أشياء كثيرة كان يستحيل على أن أقوم بها .. وبذلت جهدى لكى أتمالك نفسى وأخذت منه قصاصة الورق القذرة التى كتب فيها العنوان .

وجافانى النوم فى تلك الليلة .. وازدادت مخاوفى بخصوص ايزابيللا ، ورحت أتساءل هل أفلح فى انتشالها من براثن جابرييل .. آه ، لو استطيع أن أنتشلها من هذه الحياة وان أعود بها الى انجلترا .

وفى اليوم التالى مضيت الى العنوان الذى ذكره لى جابرييل .. وكلما تقدمت فى الشوارع والأزقة الحقيرة المزدحمة ازداد وجيب قلبى ، فان ايزابيللا الجميلة المتكبرة وصل بها الأمر الى هذا الحد .

أليس من الأوفق أن أعدل عن هذه الزيارة ؟ .. ألا يزيد رؤيتى لها فى هذا الاطار اليأس من مذلتها ومهانتها .. ذلك لأنها كانت لا تزال بالنسبة لى كما رأيتها فى اطارها الطبيعى بقصر سنت لو بعظمته وأبهته .

ولن أصف لك الشارع ولا البيت الذى وجدتها فيه فالمكان قذر حقير يفوق كل

وصف .

وصعدت السلم حتى الطابق الأخير لذلك البيت البشع .. وكان عكازاى ينزلقان على الدرجات وقد حنقت على جابرييل الى حد اننى ما كنت لأتردد عن ذبحه لو اننى لقيته فى طريقى .. وكنت أعمل كل حساب للحظة التى سأرى فيها ايزابيللا فى هذه الحالة المتدهورة .

وأننى لألوم نفسى الآن لأننى لم أفهمها جيدا ، فأننى ما أن طرقت الباب ودخلت حتى لم يعد يعنينى شئ ما غير ايزابيللا نفسها .

تلاشت من أمام عينى حقارة الغرفة وقذارتها .. ومع ذلك فقد كان الأمر أسوأ مما تصورت .. ولن أصفها لأن هناك أشياء يعجز المرء عن وصفها ولكننى نسيت كل ذلك بمجرد أن رأيتها جالسة فى الغرفة لا تكترث بشئ ، وقد لوت قدميها كما يفعل الأطفال وعكفت على تطريز قطعة من الحرير مربعة الحجم .

كانت كما رأيتها يوم ودعتنى ، وثوبها البالى كان لا يزال محتفظا بوقاره ، وكان شعرها معقوصا فى خصلات جميلة ، كان وجهها كما لو كانت تجلس فى وسط صحراء أو على سطح سفينة .. لم يكن بيتها وانما كان مكانا تقيم فيه مؤقتا .

حدقت فى لحظة ثم هبت واقفة على قدميها ، وأقبلت الى مذهولة باسطة ذراعيها ، وأدركت عندئذ أن جابرييل لم ينبئها بوجودى فى زجودى فى زاجراد . وتساءلت لماذا لم يفعل ، والتقت يداها بيدى ورفعت وجهها لى وقبلتنى ثم قالت :

- هوج ! .. ما أسعدنى !

لم تسألنى عن سبب وجودى فى المدينة ، ولم تبد أية اشارة بأنه أصبح فى مقدورى أن امشى الآن ، مع أنها حين رأتنى آخر مرة كنت عاجزا عن الحركة كل الذى آثار اهتمامها هو أن صديقها هوج واقف أمامها ، وكذلك سرورها بأن ترانى . والواقع انها عادت وأصبحت ايزابيللا التى أعرفها .

وذهبت وجاءت بمقعد أدنته من مقعدها وقلت أسألها : - ايزابيللا .. ما أخبارك ؟

وكان جوابها نموذجيا عرضت على قطعة من الحرير التى تطرزها وقالت فى قلق :

- اننى بدأت هذا العمل منذ ثلاثة أسابيع .. هل يروق لك ؟

أخذت منها التطريز .. كان قطعة مربعة من الحرير رمادية اللون باهته شيئا ما ، رسمت عليها ايزابيللا بطاقة التطريز ورودا حمراء وبنفسجية .. وكان التطريز دقيقا رائعا .. وقلت :

- هذا مدهش يا ايزابيللا .. مدهش تماما .

وأحسست مرة أخرى بجو أقاصيص الحوريات الذى يحيط بايزابيللا .. وخيل لى أننى أمام أميرة أسيرة تطرز قطعة من الحرير فى برج الغول .

وقلت مرة أخرى وأنا أعيد اليها قطعة الحرير : أوه .. نعم انه رائع .. ولكن هذه الغرفة بغيضة .

ونظرت حولها فى شرود ودهشة تقريبا وقالت :- حقا ؟ .. نعم .. هذا جائز .

ولم ترد .. وتملكنى الارتباك ، ولكن ايزابيللا أفلحت دائما فى آثار ارتباكى .. وخيل لى انها لا تهتم بالديكور ، وأنها لم تفكر اطلاقا .. كانت الغرفة بالنسبة لها مكانا عابرا ، واذ حملتها على ان تنظر حولها وافقتنى وقالت أن المكان غير جميل حقا ، ولكن الأمر لا يهمها وأن كل ما يهمها هو التطريز الذى تقوم به .

قلت : - ايزابيللا .. اننى رأيت جون جابرييل أمس .

- حقا ؟ .. وأين رأيته ؟ .. أنه لم يخبرنى بذلك .

- هو الذى أعطانى عنوانك .. وطلب منى أن آتى لكى أراك .

- وها أنت ذا قد أتيت .. اننى مسرورة .

وأحسست بالدفء وأنا ألمس صدق كلماتها وقلت : - عزيزتى ايزابيللا .. هل أنت بخير ؟ .. هل أنت سعيدة ؟

نظرت الى كما لو كانت تحاول أن تفهم معنى سؤالى فقالت : - أن كل شئ هنا جد مختلف عما اعتدت عليه .. ألا تريدين مغادرة كل هذا والعودة معى الى لندن .. هذا اذا كنت لا تشائين العودة الى سنت لو .

هزت رأسها نفيا وقالت : - ولكن عمل جون هنا .. لا أعرف أى نوع من العمل هو ولكن ..

- ان ما احاول أن أعرفه هو هل أنت سعيدة ؟ . اذا كنت قد أرتكبت غلطة شنيعة فلا تدعى كبرياءك يأبى الاعتراف بذلك .. تخلى عن هذا الرجل يا ايزابيللا .

نظرت الى قطعة الحرير التى فى يدها وقد ارتسم على ملامحها تعبير عجيب وقالت وهى تبتسم :- كلا .. لا أستطيع أن أفعل هذا .

- هل تحبينه الى هذا الحد يا ايزابيللا ؟ .. هل أنت سعيدة حقا ؟ .. اننى أسألك ذلك لأننى أحبك كثيرا .

قالت فى لهجة الجد :- ماذا تعنى بكلمة سعيدة ؟ هل تعنى هل أنا سعيدة كما كنت فى سنت لو ؟

- نعم .

- كلا بكل تأكيد .

- اذن ماذا تنتظرين لكى تهجرى كل هذا وتعودى معى لتبدئى حياة جديدة ؟

- هذا محال .

قلت رغما عنى : - مهما يكن فانتما غير متزوجين .

- كلا اننا لم نتزوج .

ازداد احساسى بالارتباك ، ولكن ايزابيللا لم تشاركنى أياه ، وكان لابد لى أن أجلو العلاقة التى بين هذين المخلوقين العجيبين فسألتها فى جرأة :

- ولماذا لم تتزوجا ؟

لم يحنقها سؤالى .. وخيل لى انها تلقى على نفسها هذا السؤال لأول مرة ، وجلست لا تتحرك وقد لزمت الصمت لحظة ، ثم قالت فى شئ من التردد والحيرة .

- لا أظن أن جون قد أراد أن يتزوجنى .

تمالكت نفسى بكل مشقة وقلت : - ولكن لا يوجد أى سبب لكى لا يتم هذا الزواج ؟

- هل تظن ذلك ؟

وكانت أمارات الحيرة لا تزال بادية فى صوتها .

- انه يدين لك بهذا فهو أقل ما يمكن أن يفعل .

هزت رأسها فى بطء وقالت : - كلا .. أنه لا يدين لى بأى شئ .

- كيف هذا ؟

- عندما غادرت سنت لو لم يكن ذلك لكى أتزوجه هو بدلا من ربوبيرت ، وانما لأنه أراد أن أرحل معه وقد رحلت .. لم يكن هناك أية اشارة بخصوص زواج بل أظن انه لم يفكر فى الزواج اطلاقا .. كل هذا . وأبعدت يديها فى حركة خفيفة ، فأدركت انها تشير الى الغرفة ، والى الجدران العارية وطبيعة حياتها المشتركة العابرة .

- كل هذا لا شأن له بالزواج .. فان الزواج مختلف .

بدأت أقول : - أنت وربوبيرت .

قاطعتنى كما لو أحست بالارتياح لأننى أدركت ما يجول بخاطرها : - نعم .. كان يمكن أن يكون الأمر زواجا عندئذ .

قلت أحدث نفسى : - اذا كان الأمر كذلك فكيف تعتبر حياتها مع جابربيل ؟ .. ولكننى لم أجرؤ على أن أسألها هذا السؤال صراحة .

- قولى لى يا ايزابيللا .. ماذا تعرفين عن الزواج ؟ .. ما معناه بالنسبة لك فيما عدا أنه عمل قانونى بحت .

حملها سؤالى هذا على التفكير لحظة ثم قالت : - أظن أن معناه امتزاج حياة شخص بحياة شخص آخر .. وتألمهما معا . وان يشغل كل منهما المكان الذى يجب أن يشغله من الآخر .

- معنى هذا انك لا تشاركين حياة جابرييل ؟ .

- كلا .. أننى لا أستطيع ذلك .. وددت لو أن أفعل .. ولكن .

وبسطت يديها الطويلتين واستطردت : - ولكننى لا أعرف عنه شيئا .

نظرت اليها مفتونا .. كانت غريزتى تقول لى أنها صادقة ، وانها لا تعرف شيئا عن جون جابرييل وانها لن تعرف عنه شيئا ابدا ، حتى لو قضيت أيامها كلها معه .. وأدركت فى نفس الوقت أن ذلك لن يغير شيئا من مشاعرها نحوه .. وتمتمت أقول :

- حسنا .. مادمت غير تعيسة .

حولت نحوى عينين لا ترياني .. وسواء تعمدت الا ترد على ، أو سواء انها عجزت عن الرد ، فقد لزمت الصمت لأن التجربة التى كانت تعيشها كان لها جانبها المؤلم الموجع بحيث آثرت الا ترد على .

وسألتها فى رفق :

- هل يجب أن أقول لهم فى سنت لو انك ما زلت تحبينهم ؟

لم تتحرك . وصعدت الدموع الى عينيها ، وانسابت فوق وجنتيها .. لم تكن دموع حزن ، وانما دموع ذكرى .

- لو تستطيعين العودة الى الوراء يا ايزابيللا ، ربما كان قولى هذا قسوة منى ، ولكن كان لابد لى من أن أعرف .. وأن أتأكد .. ونظرت الى دون أن يبدو عليها أنها فهمت وقالت :

- هل الانسان حر فى اختياره ؟ .. فى كل ما يفعل ؟ كانت المسألة مسألة رأى .. ولعل الحياة أسهل للواقعيين الذين لا يحفلون بالظلال كايزابيلا ، لأن احتمالات

الاختيار بالنسبة لهم لا وجود لها ..ومع ذلك فقد كنت أعلم أن اللحظة تأتى لكى نختار ولكى تتخذ قرارها ، وهى تعلم حق العلم ما هى فاعلة .. ولكن هذه اللحظة لم تأت بعد .

وبينما كنت أقف بجوارها أنظر اليها سمعت خطوات بالخارج ثم فتح الباب ودخل جون جابربيل بطريقة مسرحية وهو يترنح .. ولم يكن منظره ليسر العين وقال :

- حسنا أرى انك وجدت طريقك بسهولة .

أجبت فى حدة : - نعم .

ولم أجد ما أقول فمشيت نحو الباب وأنا أتمتم : - أرجو المعذرة ، ولكننى مضطر الى الانصراف .

وأفسح لى المكان وهو يقول : - حسنا انك لن تزعم اننى لم أمنحك فرصتك .

ولم أعرف ما الذى كان يعنيه ، واستطرد يقول : - تعال لتناول العشاء معنا غدا فى مقهى جرى .. سأجمع بعض الرفاق ، وسوف يسر ايزابيللا ذلك أليس كذلك يا ايزابيللا ؟

وكان وجهها هادئا لا ينم عن أى انزعاج ، ولكننى رأيت فى وجه جابربيل شيئا لا أستطيع وصفه .. شيئا كان يمكن أن يكون أية من آيات اليأس .

وهبطت السلم الحقير بأسرع ما يمكن .. كنت على عجل لكى أجد نفسى تحت الشمس ، بعيدا عن المكان الذى يعيش فيه جون جابربيل وايزابيللا .. جابربيل الذى تغير من سيئ الى أسوأ ، وايزابيللا التى لم تتغير .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

هناك ذكريات بغيضة لا يستطيع المرء أبدا أن يمحوها من مخيلته مهما حاول أن يفعل .. ومن بين هذه الذكريات ليلة الكابوس التى قضيتها فى مقهى جرى ... وأنا واثق أن العشاء الذى أعده جابرييل لم يكن الغرض منه الا ارضاء خبثه بالنسبة لى .. كان عمله هذا خسة ونذالة منه ، وقد قدم لى أصدقاءه وشركاءه ، كانت ايزابيللا تجلس بينهم ، وكل ما أستطيع قوله هو أنه ما كان يجب أن يكون لها أية علاقة بهؤلاء القوم..

لم يكن يجمع بينهم أى فن ولا أية موهبة فلم يكونوا من الكتاب ولا من الموسيقيين أو الرسامين أو الشعراء ولا حتى من رجال الأدب ، وانما كانوا حثالة من الأجانب وقد اختارهم جابرييل خصوصا لكى يرينا الى أى درك يمكن أن ينحدر .

واجتاحتنى موجة من الحقد بسبب ايزابيللا .. هى ، بين مثل هؤلاء القوم .. كيف تجرؤ ؟

ولكننى وأنا أراقبها بطريقة أفضل هدأت حدة غضبى فهى لم تبد أى ارتباك ولا أية كراهية ولا أية رغبة فى إخفاء تدهورها الشنيع . وانما جلست وفوق شفتيها ابتسامتها الحلوة الهادئة التى تشبه ابتسامة احدى عذارى الأكروبول ، وكان ينبعث منها أدب جم ولم تشعر بأى امتعاض من حثالة القوم الذين يحيطون بها . وأننى أذكر عندما سألتها ذلك بكثير عن رأيها فى السياسة أجابتنى تقول انها من ضمن الأشياء التى يجب أن تقوم بها ، وكانت تلك الليالى التى تتسم بنفس الالزام ، ولو اننى سألتها رأيها فى ذلك الاجتماع لأجابتنى بأنه واجب تتقبله بصدر رحب ، لأنه من

الأعمال التى ترضى جابرييل .

نظرت اليها عبر المائدة فابتسمت لى .. لم تحفل بما أشعر به من يأس وألم مصيرها يمكن للزهرة أن تزدهر فوق كومة من القاذورات ، كما يمكنها أن تزدهر فى أى مكان آخر وتزداد جمالا وبهاء مع ذلك .

وغادرنا المقهى جماعة .. وكانوا جميعا سكارى تقريبا .. وعندما هممنا بعبور الشارع اندفعت سيارة نقل ضخمة نحونا من جوف الظلام فجأة وأوشكت أن تصدم ايزابيللا ، ولكن هذه الأخيرة أحست بالخطر فأرتدت الى الخلف على الفور وقد شحب لونها ، وبدا الذعر فى عينيها ، فى حين اختفت السيارة وابتلعها الظلام .

لم تتغير ايزابيللا فى هذه النقطة اذن .. كانت الحياة عزيزة عليها على الرغم من كل ما حدث .. كانت تستطيع احتمالها .. أما الشئ الذى لم تستطع احتماله فهو فكرة الموت وخطره .. وحتى اذا مازال الخطر ، فقد كانت تبقى شاحبة مضطربة وقتا طويلا .

وصاح جابرييل : - يا الهى انك نجوت بمعجزة .. هل أصابك شئ يا ايزابيللا ؟

- قالت : - كلا .. كل شئ على ما يرام .

ولكن صوتها كان يتهدج من الخوف .. وتحولت الى وقالت : - أرأيت يا هوج .. اننى مازلت جبانة .

لم يعد هناك الكثير بعد ذلك فقد كانت هذه آخر مرة أرى فيها ايزابيللا .. ووقعت المأساة دون أن يتوقعها أحد كما هى العادة .

وكنت فى مسكنى أتساءل اذا كان يجب ان أقوم بزيارة أخرى لايزابيللا قبل أن أغادر زاجراد دون أن أراها حين أقبل جون جابرييل .

ولا أستطيع أن أقول لاحظت شيئا غريبا فى وجهه .. كان ما لاحظته لم يزد عن شئ من الانفعال أو التوتر .

قال بكل هدوء : - ماتت ايزابيللا .

حدقت فيه في غباء دون أن أفهم .لم أشعر بأنه ينطق بالصدق ورأى ذهولى فقال : انها ماتت .. لقيت حتفها برصاصة .

استعدت صوتى وأنا أشعر بأن احساسا باليأس والضياع ينساب فى عروقى وقلت:

ماذا قلت ؟ .. هى ؟ .. هذا كلام فارغ .. من الذى قتلها ، وكيف حدث هذا ؟

روى لى ما حدث .. كانا يجلسان معا فى المقهى الذى التقيت به فيه ، ثم سألنى ان كنت قد رأيت صورة لستولانون وان كنت قد لا حظت الشبه الكبير الذى بينه هو وبين ذلك المدعو التولانوف .. وكان هذا الأخير الدكتاتور المستبد بسلوفاكيا فى ذلك الوقت .. وأمعنت النظر الى جابرييل فوق جبينه ، وكان هذا يتحدث كثيرا .

سألته : - ماذا حدث ؟

- دخل طالب مجنون وحسبنى ستولافون ، وكان يمسك فى يده مسدسا ، واندفع بين الموائد وهو يصرخ : ستولانوف .. عثرت عليك أخيرا .. وكان من المستحيل ان يتدخل أحد ، وأطلق الرصاص ، ولكنه لم يصبنى وانما أصاب ابزابيللا .

وسكت . ثم أردف يقول بعد لحظة : وقد لقيت حتفها على الفور .. اخترقت الرصاصة القلب ..

- يا الهى .. يا الهى .. ولم تفعل شيئا للحيلولة دون ذلك .

بدا لى أنه من غير المعقول الا يتدخل جابرييل . واضطرم وجهه وقال : كلا لم أفعل شيئا . كنت جالسا خلف المنضدة موليا ظهرى للجدار ، ولم يسعفنى الوقت لكى أتحرك .

صعقت ولم أقل شيئا . وبقى جابرييل جالسا ينظر الى دون أن يظهر عليه أى انفعال . وقلت أخيرا :

- قضى الأمر اذن .. أرأيت ماذا فعلت بها ؟

هز كتفيه وقال : - نعم . اذا شئت أن ترى الأمور هكذا .

- بسببك أنت جاءت هنا .. ذلك البيت الحقير .. هذه المدينة القذرة .. ولولاك لبقيت على قيد الحياة ..

وأمسكت فقال يكمل حديثى : - ولكانت تدعى الآن الليدى سنت لو ، ولكانت تقيم فى قصر منيف على ساحل البحر ، ولا تنجب صبيانا ولا بناتا .. نعم .. لم لا ؟

كدت أجن أزاء سخريته هذه وصحت : - جابرييل .. فليعنى الله اذا أنا غفرت لك فى يوم من الأيام .

- الحق يا نوريز أنه لا يهمنى سواء غفرت لى أم لا .

- ماذا تفعل هنا اذن .. ؟ لماذا أتيت .. ماذا تريد منى .. ؟

قال فى هدوء : - ان تأخذها معك . أن تعود بها الى سنت لو . انك تستطيع ذلك طبعا .. يجب أن تدفن هناك بين أهلها وليس هنا ، فى أرض أجنبية .

قلت : - هذا صحيح . ليس هذا وطنها .

- ثم نظرت اليه وقد استيقظ فضولى على الرغم من الألم الذى كنت أحس به وقلت : - لماذا اختطفتها .. ؟ ماذا كان غرضك من ذلك .. ؟ هل كنت تشتهيها الى هذا الحد .. ؟ الى حد أن تدمر حياتك وأن تتخلى عن أطماعك ..؟

هز كتفيه مرة أخرى فصحت فى حدة : - أننى لا أفهم .

- تفهم ... ؟ لا تستطيع أن تفهم طبعا .

وسرت الرعدة فى جسدى ازاء صوته الأجش الخشن النبرات : لن تفهم أى شئ .. لأنك لا تفهم معنى الألم .

- أتقول هذا لى أنا ؟

- نعم .. لأنك لا تعرف شيئا عنه حقا . اسمعنى جيدا .. أنى لم أعرف أبدا ولم

أستطع أن أتفاهم معها أبدا . أنى بذلت كل ما أستطيع لتحطيمها .. كل شئ جررتها فى الوحل وفى ادرانه واعتقد أنها لم تفطن الى ذلك لم تشعر بأى اذلال أو مهانة ، ولم تفزع .. هل تسمعنى .. ؟ هذا فظيع كنت أتوقع منها أن تحتد وان تتشاجر وأن تثور ، وبهذا أكون أنا الأقوى ، ولكننى لم أكن الأقوى أبدا . ولا يمكنك أن تكون الأقوى حين يفطن غريمك أن هناك معركة .. لم أعرف أبدا ماذا أقول لها . لم استطع أبدا أن أتجاوب معها . اننى حاولت كل شئ تناولت الشراب حتى الانهيار ، وتناولت المخدرات ، وعاشرت نساء أخريات ، ولكنها لم تحفل بكل ذلك .. كانت دائما كما رأيتها ، جالسة وقد لوت قدميها ، وتغنى فى صوت خافت وكأنها فى قصرها الملعون على شاطئ البحر فى جوها السحرى المنحوس .

وأمسك عن الكلام ، فجأة وتهالك فوق مقعد ثم قال : - كلا .. لا يمكنك أن تفهم وكيف تستطيع ذلك .. ؟ حسنا . أنها قهرتنى .. أنى امتلكت جسدها ، ولكننى لم أمتلك شيئا آخر .. والآن أفلت جسدها منى هو الآخر .

ونهض وهو يقول : - خذها الى سنت لو .

قلت : - حسنا . وليسامحك الله على الشر الذى ألحقته بها ..

استدار فى عنف وقال : - الشر الذى ألحقته بها .. وهذا يمكن أن يكون بجانب الشر الذى ألحقته هى بى . ألم يفهم عقلك المسكين أنى ما إن رأيت تلك الفتاة حتى أصابنى ألم شديد .. لا أستطيع أن أفسر لك .. ولكن مجرد النظر اليها كان كأنه الجحيم . أنا الآخر لا أفهم شيئا من ذلك ، ولكن الأمر معى كان كالفلفل والشطة اذا ما وضعا فوق الجرح . كل ما أردته واشتهيته طوال حياتى بدا أنه يتبلور فيها . كنت أعرف اننى رجل فظ وبغيض وشهوانى ولكن لم يكن لكل هذا أية أهمية حتى اللحظة التى رأيتها فيها .

انها أصابتنى بأكبر الضرر يا نوريز ، فهل تفهم .. ؟ أضرت بى كما لم يضر بى

أحد قط ، وكان لابد لى من أن أدمرها وأن أنزلها الى مستواى . هل تفهم ما أعنيه ؟ كلا .. لا يمكن أن تفهم . كل ما تستطيع أن تفهمه ، هو أن تلتقى فى أثرك وأن تبقى جالسا مكانك فى مقعدك المريح . كما لو أن الحياة كتاب يقرأ فى هدوء .. فى حين أننى كنت فى الجحيم . نعم .. أقول لك أنى كنت أصلى بنار جهنم .

مرة واحدة ... مرة واحدة فقط رأيت السلام والخلاص ..رأيت الثغرة التى أستطيع الافلات منها تلك المرة .. كانت عندما ارتمت تلك الفتاة المجنونة بين ذراعى فى الفندق وعقدت كل شئ .. لم يكن هناك أقل أمل فى أن أفوز فى الانتخابات بفضلها .. كنت سأجد ميللى بارت بين ذراعى ، وكان زوجها سيطلب الطلاق بكل تأكيد ، وكنت سأفعل عندئذ ما يتعين أن أفعل ، وأعنى أننى كنت سأتزوج ميللى . وكنت سأشعر بالهدوء عندئذ لأننى سأفلت من عذابى والمى الشديدين . ولكن ايزابيللا نفسها هى التى تولت الأمر . لم تدرك ما هى مقدمة عليه . فقد ارغمتنى بذلك على الاستمرار فى طريقى ، ولم يعد لى أى منفذ للخروج وكنت أعتقد طوال الوقت أنى سأجد مخرجا، بل اننى اشتريت لها هدية زواج ، ولكن لم يكن هناك أى جدوى .. لم أستطع النكوص ، وكان لابد لى من أن أنالها .

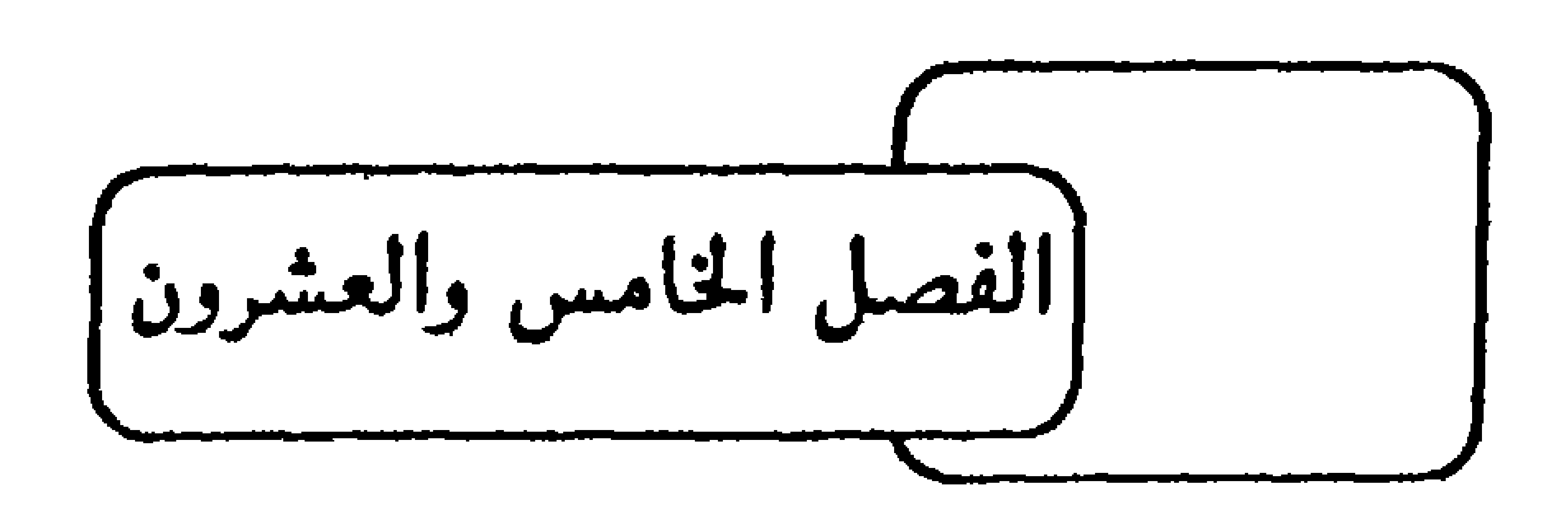
قلت : – ولكنها ماتت الآن وانتهى كل شئ .

وفى هذه المرة ترك لى الكلمة الأخيرة فقد ردد كلماتى فى رقة كبيرة وقال :

– نعم .. أنها ماتت الآن .

ثم دار على عقبيه وخرج من الغرفة .

***



الفصل الخامس والعشرون

لم أر جون جابرييل بعد ذلك .. افترقنا ونحن غاضبان فى زاجراد ، ولم نلتق منذ ذلك اليوم ، ولقيت مشقة كبيرة في انجاز الاجراءات التى سمحت لى باعادة جسد ايزابيللا الى انجلترا .

ودفنت فى مقبرة سنت لو حيث يرقد أفراد أسرتها . وبعد الجنازة عدت بالسيدات الثلاث الى بيتهن الصغير ، وشكرتنى لأننى أعدت لهن ايزابيللا .

وكان قد ظهر عليهن الكثير بشكل محسوس أثناء السنتين الأخريين ، وبدت لى الليدى سنت لو بوجهها المعروف أشبه بوجه النسر . وكانت تبدو هشة بحيث كان المرء يتوقع أن تموت ما بين لحظة وأخرى ، ومع ذلك فيجب أن أقول أن العمر قد امتد بها بعد ذلك الى سنين طويلة . وكانت الليدى تريسليان تتمتع بصحة لا بأس بها ، وقد قالت لى أن ثلاثتهن قد تعلقن بزوجة ربوبيرت .

– انها فتاة على قدر كبير من المرح والكفاءة .. وأنا واثقة أنهما سعيدان .. لم يكن هذا ما كنا نحلم به طبعا .

واغرورقت عيناها بالدموع وتنهدت قائلة : – أوه .. لماذا وقع كل هذا . ؟

أما مسز بيجهام كارتريس فقد كانت أشد فراسة من ذى قبل .. وقد سألتنى حين هممت بالانصراف .

– هل تتذكر الصغيرة بارت ؟

– طبعا .. ماذا حدث لها ؟

– أرى أنها سترتكب نفس الحماقة مرة أخرى .. هل تعرف ماذا جرى لبارت ؟

- كلا ..

- انه وقع فى حفرة ذات ليلة ، وكان قد أفرط فى الشراب . وارتطمت رأسه بحجر فمات على الفور .

- انها أصبحت أرملة أذن ؟

- نعم . وقد سمعت فى السوسكى بأنها أحبت مزارعا بالمنطقة وأنهما سيتزوجان والعجيب أن الرجل يتمتع بسمعة سيئة ويدمن الشراب ، ثم انه شرس الطباع . وهكذا ستقع ميللى فى نفس الورطة ، ولكن من ذلك الذى يتعظ من أول مرة ؟

كنت أسأل نفسى هذا السؤال وأنا فى القطار الذى ينطلق فى اليوم التالى الى لندن وانتقلت الى عربة الأكل ، وهناك وأنا أنتظر الحساء سرحت بفكرى الى جنيفر .

كانت أخبارها تأتينى من وقت لآخر عن طريق كارو ستراجويس ، وكان هذا الأخير يقول أنها تعيسة جدا ، وأنها ورطت حياتها فى تعقيدات أخرى ، ولكنها كانت تبدى شجاعة كبيرة وكان الجميع يعجبون بها .

وابتسمت بينى وبين نفسى وأنا أفكر فى جنيفر . كانت جميلة فاتنة ، ولكنها لم تعد تثير فى نفسى أى اهتمام ولا أية رغبة فى أن أراها ، فأن المرء ليسأم ويمل سماع نفس الاسطوانة . ووصلت الى تيريزا فى لندن أخيرا ، وقد تركتنى أتكلم كما أشاء ، وأسفت الى نقدى لجون جابرييل والى الأحداث التى وقعت فى زاجراد ، وكيف عدت بجسد ايزابيللا الى سنت لو . وأردفت أقول :

- كان يجب أن أقول أنها ترقد فى سلام يا تيريزا . ولكننى لا أستطيع ، ويتملكنى الحنق حين يخطر لى أنها ماتت قبل ساعتها ، فقد قالت لى مرة أنها ترجو أن يمتد بها العمر حتى تغدو امرأة مسنة . كانت قوية جدا ويغيظنى أن تنقطع أيامها هكذا .

وكانت تيريزا جالسة فوق مقعد كبير تولى ظهرها للوحة باهتة ، وراحت تصغى

الى فى اهتمام كبير . وقالت عندما فرغت من قصتى :

- انك محظوظ جدا يا هوج .

- محظوظ .. أنا . ؟

ونظرت اليها مشدوها فقالت : - نعم .. لأنك أحببتها .

- هذا صحيح . أننى أحببتها ، ومع ذلك فلم أستطع أن أفعل شيئا من أجلها . بل أننى لم أحاول أن أمنعها من الرحيل مع جابرييل .

- ذلك لأنك كنت تحبها حقا .. ولأنك كنت تحبها تركتها تتصرف كما تشاء .

وكان هذا حقا .. وعادت تيريزا تقول : - صدقنى يا عزيزى هوج انك أحببتها وأن حبك لها أمدها بسعادة كبرى .

قلت فى شئ من الدهشة : - نعم .. بسعادة كبرى .. ثم صمت وقد غمرتنى موجة من الغضب .. ولكن هذا لا يمنعنى من أن أتمنى لجون جابرييل ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة ، ما لا قبل له من عذاب .

قالت : - أنى لا أعرف شيئا عن الآخرة ، ولكننى أستطيع أن أؤكد أن أمانيك قد تحققت فى هذه الدنيا لأنه لا يوجد على ظهر الأرض من هو أشقى من جون جابرييل .

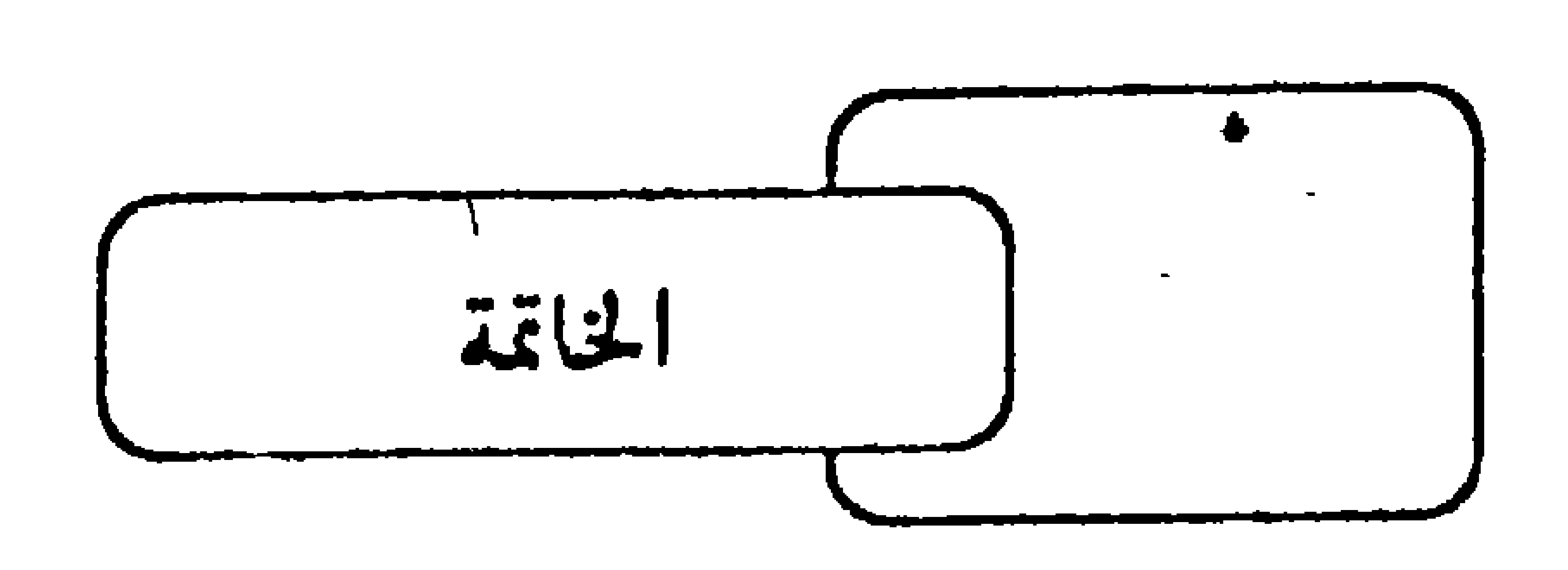
- اذا كنت ترثين له فدعينى أقول لك .

قاطعتنى تقول انها لا ترثى له ، وأنها تشعر نحوه بشئ أشد عمقا من الرثاء فقلت :

- لا أفهم ماذا تقصدين .. ليتك سمعته يتكلم فى زاجراد . لم يكن يتكلم الا عن نفسه ، ولم يبد عليه أنه متأثر بموت ايزابيللا أقل تأثير .

- وما أدراك .. ؟ لا يمكن أن تعرف بماذا كان يشعر ومهما يكن فأننى أهيب بك أن تتركه لله وسوف يأتى يوم تفهمنى فيه .

***



الخاتمة

هذه القصة . قصة الرجل الذى رأيته لأول مرة فى سنت لو ولآخر مرة فى صحة جيدة فى زاجراد والذى أراه يحتضر الآن أمامى فى غرفة حقيرة بباريس .

تكلم فقال فى صوت واهن ضعيف ، أصغ الى جيدا يا نوريز ، يجب أن تعرف حقيقة ما حدث فى زاجراد . أننى لم أقل لك شيئا فى ذلك الوقت ، ولا ريب لأننى لم أكن قد فهمت الأمر عندئذ .

وأمسك عن الكلام ريثما يسترد أنفاسه ثم قال : - انك تعرف أن .. أن ايزابيللا كانت تخاف الموت .. تخاف منه أكثر من خوفها من أي شئ آخر .

أومأت برأسى بالايجاب . كنت أعرف ذلك . وتذكرت الذعر الذى بدا فى عينيها عندما رأت العصفور الميت فى شرفة سنت لو ، ووثبتها الى الخلف لكى تبتعد عن سيارة النقل فى زاجراد ، وشحوب وجهها عندئذ .

- اصغ الى يا عزيزى اذن .. اصغ الى جيدا .. كان الطالب مندفعا نحوى شاهرا مسدسه ، ولم يكن يبعد عنى بأكثر من خطوات ، وما فى الامكان أن يخطئنى ، وكنت أنا واقفا محصورا خلف المنضدة ، ولم يكن بمقدورى أن أتحرك . ورأت ايزابيللا الخطر الذى يتهددنى فألقت بنفسها أمامى فى نفس اللحظة التى ضغط فيها الشاب على الزناد .

وارتفع صوت جابرييل وهو يقول : - هل تفهم يا نوريز ؟ كانت تعرف أنها تلقى بنفسها للموت ، وقد اختارت الموت لكى تنقذنى .

وسكت سكتة قصيرة ، ثم أردف يقول فى رفق : - حتى ذلك الوقت لم أكن قد

فهمت .. لم أفهم شيئا ، ولكننى وأنا أفكر فى الأمر مليا . لم يخطر لى ابدا أنها تحبنى . كنت أظن أننى لم أمتلك منها غير جسدها ، ولكنها كانت تحبنى .. كانت تحبنى الى درجة أنها ضحت بنفسها من أجلى ، وعلى الرغم من شدة خوفها من الموت.

عدت بذاكرتى الى الوراء واذا بى أتخيل مقهى زاجراد ، وأرى بعينى الخيال الطالب المتعصب الثائر ، وذعر ايزابيللا فجأة ، وشعورها بالخطر ، والرعب الذى أحست به لمدة لحظة ، وخوفها ، ثم القرار السريع الذى أتخذته ، وخيل لى أننى أراها تلقى بنفسها الى الأمام جاعلة من جسدها متراسا لجابرييل .

قلت : - هكذا كانت النهاية .

ولكن جابرييل قام نصف قومة فوق وسائده وومضت عيناه ، وقال فى صوت واضح النبرات :

- أوه .. كلا .. أنك مخطئ .. لم تكن النهاية وانما البداية ..

تمت بحمد الله

مجموعة قصص أجاثا كريستى

تَرجمة الأستاذ / محمد عبد المنعم جلال

* جريمة فى العراق
* العميل السرى
* أدلة الجريمة
* اختطاف رئيس الوزراء
* قتيل فى المترو
* الرسائل السودا ء
* التضحية الكبري
* ذكريات
* سر التوأمين
* اللغز المثير
* القاتل الغامض
* جريمة فوق السحاب
* الجريمة المعقدة
* المتهمة البريئة
* الجريمة الكاملة
* مغامرات بوارو
* الساحرة
* ابواب القدر



الإسكندرية ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٠٦١١٢٥ فاكس ٨٩ ٤٨٢

القاهـرة ٢٦١١٢٢٩ ص ب ٣٧٠ الاسكندرية

١١٠٣

الموزعون

بالمملكة العربية السعودية

مكتبة دار الشعب

ت : ٤١١١٢٠٧ الرياض